مجلة جامعة أم القرى

لعلوم اللغات وآدابها

مجلة علمية محكّمة نصف سنوية

العدد الثالث عشر

رجب ١٤٣٥هـ / مايو ٢٠١٤م

قـواعــد النشـــر

١– تُقبل الأعمال المقدمة للنشر في مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها حسب المواصفات التالية:

أ. يقدم صاحب البحث أربع نسخ ورقية، ونسخة واحدة على أسطوانة ممغنطة (CD).

ب. يطبع البحث على برنامج Microsoft Word بالخط العربي التقليدي Traditional Arabic (بنط ١٦) على وجه واحد، مقاس A4 (٢١ X ٢٩,٧سم)، بما لا يزيد حجم البحث عن خمسين صفحة، بما فيها المراجع والملاحق والجداول.

ج. تُرَقَّم صفحات البحث ترقيما متسلسلاً، بما في ذلك الجداول والأشكال وقائمة المراجع، وتطبع الجداول والصور والأشكال واللوحات على صفحات مستقلة، مع تحديد أماكن ظهورها في المتن، وتكون الهوامش مكتوبة بطريقة آلية وليست يدوية.

د. يُرفق ملخصان بالعربية والإنجليزية لجميع الأبحاث، بما لا يزيد عن ٢٠٠ كلمة.

هـ. يُكتب المؤلف اسمه وجهة عمله على ورقة مستقلة، مع إرفاق نسخة موجزة من سيرته الذاتية، وتعهد خطي موَّقع من الباحث / الباحثين بأن الباحث لم ينشر من قَبْل، أو قُدِّم للنشر لدى جهات أخرى.

و. تُرفق أصول الأشكال مرسومة باستخدام أحد برامج الحاسب الآلي ذات العلاقة على أسطوانة ممغنطة (CD).

٢– توضع إحالات البحث وهوامشه وتعليقاته في نهاية البحث، بالإشارة إلى اسم العائلة للمؤلف، ثم الاسم الأول، وعنوان كتابه، ورقم الصفحة المحال إليها؛ وإن كانت الإحالة على مقالة فتذكر المعلومات وافية بحسب الضوابط السابقة.

٣– تُعرض المصادر والمراجع في نهاية البحث، على أن ترتب هجائياً، حسب اسم العائلة للمؤلف، ثم الأسماء الأولى أو اختصاراتها، متبوعاً باسم الكتاب أو المقال، ثم رقم الطبعة، فاسم الناشر (في حالة الكتاب) أو المجلة (في حالة المقالة)، ثم مكان النشر (في حالة الكتاب) وتاريخ النشر. أما في حالة المقال فيضاف رقم المجلة،أو العدد، وسنة النشر.

٤– يُمنح الباحث عشر مستلات من بحثه، مع نسخة من العدد الذي يظهر فيه عمله. كما تمنح نسخة واحدة من العدد هدية لكاتب المراجعة العلمية، أو التقرير، أو ملخص الرسالة الجامعية.

المراسلات: ترسل جميع الأعمال والاستفسارات مباشرة إلى رئيس تحرير مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها (جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص. ب ٧١٥).

البريد الالكتروني: E-mail: jll@uqu.edu.sa

حقوق الطبع: تُعَبِّر المواد المقدمة للنشر عن آراء مؤلفيها، ويتحمل المؤلفون مسؤولية صحة المعلومات ودقة الاستنتاجات. وجميع حقوق الطبع محفوظة للناشر (جامعة أم القرى)، وعند قبول البحث للنشر يتم تحويل ملكية النشر من المؤلف إلى المجلة.

التبادل والإهداء: توجه الطلبات إلى رئيس تحرير المجلة (جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص. ب: ٧١٥)

الاشتراك السنوي: خمسة وسبعون ريالاً سعودياً أو عشرون دولاراً أمريكياً، بما في ذلك أجور البريد.

تنويه: تصدر مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها بمسماها الحالي، بعد أن كانت جزءاً من مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية، في مجلداتها (١–٢٠) الصادرة خلال الفترة (١٤١٩هـ– ١٤٢٨هـ) الموافق (١٩٩٩م –٢٠٠٧م).

رقم الإيداع ١٤٣٠/٢٣٥٩ وتاريخ ١٤٣٠/٣/١٨هـ - ردمد: ١٦٥٨/٤٦٩٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة جامعة أم القرى

لعلوم اللغات وآدابها

مجلة دورية علمية مُحَكَّمة نصف سنوية، تصدر عن جامعة أم القرى، لنشر الأبحاث العلمية الأصيلة في مجال اللغات وآدابها، وفروعها المختلفة ذات الصبغة اللغوية، وفي أطرها النظرية والتطبيقية. وتُرَحِّب المجلة بنشر جميع ماله علاقة بما سبق، من مراجعات كتب، وتقارير أبحاث مُمَوَّلة، وتوصيات مؤتمرات وندوات وأنشطة علمية أخرى، وملخصات رسائل جامعية، باللغتين العربية والإنجليزية، والتي لم يسبق نشرها، أو تقديمها للنشر لدى جهات أخرى، وذلك بعد مراجعتها من قِبَل هيئة التحرير، وتحكيمها من الفاحصين المتخصصين.

المشرف العام

د. بكري بن معتوق عساس

مدير الجامعة

نائب المشرف العام

د. ثامر بن حمدان الحربي

وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

رئيس هيئة التحرير

أ. د. عبدالرحمن بن حسن العارف

هيئة التحرير

أ. د. سعد بن حمدان الغامدي — د. محمد بن حمّاد القرشي

د. ظافر بن غرمان العمري — د. فهد بن محمد القرشي

د. عبدالله بن ناصر القرني — د. عفاف بنت جميل خوقير

د. مريم بنت عبدالهادي القحطاني

المحتويـات

البحوث باللغة العربية :

- **"وهوَ مَعرُوفٌ" " مِن إشكاليّاتِ تَقنِيَةِ التَّعريفِ في المُعجَمِ العَربِيِّ"**

د. يس أبو الهيجاء .... ٩ – ٦١

- **دوائر الزمن في سيرة " المغزول " لعبدالعزيز مشري "دراسة نقدية"**

د. كوثر محمد القاضي .... ٦٣ – ١٢٢

- **علم لغة النص (الإرهاصات الأولى وبدايات النّشأة)**

د. عزمي محمد "عيال سلمان" .... ١٢٣ – ١٩٢

- **هل من الضروري مواصلة نهجنا في تحليل الخطابات؟**

آن ريبول وجاك موشلير

ترجمة : د. حافظ إسماعيلي علوي & د. امحمد الملاخ .... ١٩٣ – ٢٣٦

البحوث باللغة الإنجليزية :

- **An Investigation into the Reading Strategies of ESP Students in the College of Medical Sciences at Umm Al-Qura University**

Dr. Abdul majeed Al-Tayib Omar.. **5-46**

- **The Translation of Qur'an Metaphors: Procedures and Examples**

Dr. Zubaidah M. Kheir Hasan Ereksoussi **47-99**

"وهوَ مَعرُوفٌ"

" مِن إشكاليّاتِ تَقنِيَةِ التَّعريفِ في المُعجَمِ العَربِيِّ"

د. يس أبو الهيجاء

أستاذ اللغويات المشارك بكلية اللغة العربية

جامعة أم القرى

ورد البحث في ١٨/ ٤/ ١٤٣٥هـ وقُبل للنشر في ١٦/ ٥/ ١٤٣٥هـ

"وهوَ مَعرُوفٌ"

"مِن إشكاليّاتِ تَقنِيَةِ التَّعريفِ في المُعَجَمِ العَربِيِّ"

د. يـس أبو الهيجاء

ملخص البحث

يَنهضُ هذا البحثُ المُعجميُّ بمُناقشةِ إشكاليةٍ من إشكاليّاتِ تَقنِيَةِ التّعريفِ في المُعجَمِ العربيِّ، ألا وهيَ عبارةُ المُعجمِيِّينَ "وهو مَعروفٌ"، بأنماطِها المُختلفَةِ. وهيَ تَقنيةٌ إحاليّةٌ، تَقومُ على فَرضيّةِ مَعرِفَةِ القارئِ بمُحَدِّداتِ المَدخَلِ أو اللَّفظِ المَوصُوفِ بهذِهِ الصِّفَةِ، واختِزالِ المكَانِ والزّمانِ - فَضْلاً عَن البَشرِ - في شَرِيحَةٍ واحِدَةٍ. فهيَ مِن بابِ الإحالةِ إلى المَعرفةِ والثّقافَةِ. وهيَ -على هذا- إحالةٌ مخصوصةٌ، ولا تَندرجُ تحتَ التّعريفاتِ الموضُوعيةِ التي تَنتمي إلى مَناهج التّعريف العامةِ، كالتّعريف الاسميِّ أو المنطقيِّ أو البنيويِّ.

والبَحثُ يضعُ بين يديْ الباحثينَ في المُعجَمِ، والعاملينَ على تَطويرِهِ وتَنقيتِهِ صُورةً بَيّنةَ المَعالمِ، لِحَقيقَةِ استِخدامِ هذهِ التّقنيَةِ، يَنبغي ألا تَغيبَ عَمّن يَشتغلُ في هذه الجُهودِ، بَعيدًا من الظَنّ والتخمينِ.

والبحث يَقُومُ على المَنهجِ الوَصفِيِّ الإحصائِيِّ، وقد تتبّعَ هذه التقنيةَ في عشراتِ الآلافِ من المَداخلِ، وما يَتصلُ بها. من بداياتِ التأليفِ المُعجميّ إلى طائفةٍ مُمثّلةٍ مِن جُهودِ المُعجميينَ المُحدثينَ في هذا المَيْدان، شاملاً كلَّ المَدارسِ المُعجميّةِ العَربيةِ، وقد حَفَلَ بالإحصاءتِ والتّحليلاتِ التي تُجلّي هذه التقنيةَ عندَ القدماءِ والمُحدثينَ، مُبيّنًا اتجاهاتِها، وطرائِقَ المُعجميّينَ في استخدامِها، والأطُرَ المَنهجيَّةَ التي سَلكَها أولئكَ المُعجميّونَ في سبيلِ استِخدامِ هذه التقنيةِ.

وخلصَ البَحثُ إلى أنّ هذهِ التّقنِيةَ هَنةٌ مِن أبرزِ هَناتِ المُعجماتِ، في استِخدام تَقنياتِ التّعريفِ عندَ القدماءِ والمُحدثينَ.

وبعدُ، فالبحثُ يَدعُو إلى التّخلّصِ من هذهِ التّقنِيةِ ونَبذِها، ما لم تَستندْ إلى مُحدّداتِها الرئيسَةِ: الزَّمان، والمكانِ، والإنسانِ، فضلاً عن سائر المحددّات، فالمَعروفُ وَصْفٌ لا يُمكِنُ أنْ يَكونَ مُنبتًّا من سِياقِهِ المَعرفيِّ القائمِ على الأقانيمِ المَذكورةِ، وغيرُ ذلكَ ضَربٌ من والالتباسِ والخلطِ، هو أبعدُ ما يكونُ مِن هدفِ المُعجَميِّ وغايتِه.

Research in Lixicon:
“It is known” and “Some of the controversies of the definition techniques in the Arabic lexicon”

ABSTRACT

This research aims at discussing one controversy of the definition techniques in the Arabic lexicon which is the almagamaan’s (lexicologists) phrase “it is known” in its multi forms. This technique is a referential one supposing that the pre-knowledge reader of the reader of the determinants of the entry or its pronunciation ignoring place and time –and people- in one template. It is a matter of referral to knowledge and culture, They refer to this specific, And do not fall under the definitions objectivity that belong to the general curriculum definition, such as the definition of nominal or logical or structural

Also this research made it available to all those dealing with researches in the lexicon in terms of development and purification to see a crystal-clear picture of this technique usage on which nobody could ignore away from guessing or probability.

It is based on the descriptive statistical, and analyzes thoroughly ten thousands of lexicon entries and studied whatever related to them starting from early work in lexicon authoring and reaching to presenting a representative sample of the efforts of modern almagamaans in this field from different Arabic lexicoloical trends. Moreover, this research includes analysis and statistics in the aim of making this technique clearer to both modern and old lexicologists. That is to say that this research focuses on the trends and methodologies of the concerned people.

The research concluded that this technology is a major defect among others in lexicons in the use of definition technologies of both the modernist and the oldest.

Finally, this research recommends rejecting and getting rid of this technology unless it is based on its main determinants that is, people, time and place, in addition to other determinants like, sex, kind, interval. What is known is a description cannot be stemmed from its cognitive context based on above mentioned conditions, thus other than that it will be one form of ambiguity or typecast.

تَوطئة:

لئنْ كانَ الشعرُ ديوانَ العَرَبِ فإنّ المعجَماتِ ديوانُ العَرَبيّةِ، الذي أَودَعَـتْ فيـه مادّتَها، وَسَـجَّلت في ثَناياه بَلاغتَهـا وَتميّزهـا، وَفُنـونَ التّصـرّفِ في مَعـاني ألفاظِهـا، وَتَراكيبِها.

على أنّ جلَّ الجهودِ اللّغويةِ بعامّة يَمّمتْ شَطرَ النّحو؛ إذ شَكّل الحظَّ الأكبرَ من تلكَ الجهودِ، فتجلتْ فيه شتى فنونِهم العَقليّةِ، حتى غُيِّبَ الكثيرُ ممّا عَداه بشكلٍ بيّنٍ، ولعلّ مِن أبرزِ هذهِ الجهودِ المغيّبةِ الجهدَ المُعجمِيَّ.

إنّ هذا البحثَ يقومُ على رَصْدِ جانِبٍ من الجهدِ المعجميِّ العربيّ، وتجليـةِ مـا وقعَ فيه من قصورٍ، في مَسألةٍ من أهمِّ المسائلِ المعجميَّةِ، وخَصيصةٍ من أهمِّ خصائصِ هذا الجهدِ ألا وهيَ تَقنيةُ التّعريفِ. وإذا كـانَ لكـلِّ مُنصـفٍ أنْ يَـذكرَ تَجلّـةً وإكبـارًا جَهودَ علمائِنا المعجَميّة في ما قدَّموا وبذلوا في هذا الميدان، فإنّ الحقَّ يَقتضي أنْ نـذكرَ أنّ تلكَ الجهودَ لا تَبرأُ من النقصِ، ويَعتورُها العديدُ من الهَناتِ، لا يخطئهـا القـارئُ. لأنها لم تقم - في الأغلبِ - على أسسٍ نظريةٍ واضحةٍ، إنْ تجاوزنا الشّكلَ.

إنّ أخصَّ تعريفٍ للمعجمِ وأكثرَه مباشرةً أنّه مادّةٌ مُرتّبة ومُعرَّفة، وهذا وصفٌ يحيطُ بالشكلِ والمضمونِ، وهو يَتكوّن من ثلاثةِ أقانيمَ: الجمـع والوضـع والتعريـف. ويمكننا بادئًا أن نقسم الصيغ الموضوعية التي ينتمي إليها التعريفُ المعجمـي بعامّـة إلى ثلاثٍ: لغويةٍ وتنتمي إلى المعجماتِ اللغويةِ، وموسـوعيةٍ مُسـهَبةٍ تعـالجُ الموضـوعاتِ العامّةَ، ومختصةٍ قائمةٍ على تَبيينِ المصطلحاتِ المعرفيّةِ. ونحن ههنا نتعلّقُ بالأولى منها، فهي البابُ الذي استقلَّ به الجهدُ المعجميُّ العربيّ القديم في جلِّ أوجهِ نشاطِهِ.

وتَخلُقُ الإشارةُ ههنا إلى السِّمةِ الموسوعيّةِ التي توشّحُ المعجماتِ اللغويّةَ القديمةَ، فقد كانت تلك المعجماتُ تنوءُ بدورِ الموسوعاتِ في زمن لم يكُن هذا النّمطُ من التأليفِ معروفًا. فالمعجمُ اللغويّ لا يهتمُّ -كما يُفترَض- بذكر أسماءِ الأعلامِ والأشخاصِ وتراجمِهم وأسماءِ المدنِ والبلدانِ والأنهارِ والجبالِ والبحارِ وصفاتها، ولا بذكرِ الحروبِ والأيامِ والوقعاتِ[1]، وهذه السماتُ الموسوعيّةُ لا تخطئها العينُ في معجماتِنا القديمة، ممّا يضاعفُ الجهدَ في نقدِها، وتنقيتِها.

بادئ ذي بَدء فإنّ تعريفَ المدخلِ أو اللفظِ إنما هو رموزٌ منعكسةٌ تقرّبُ التصوّرَ اللغويَّ لتلكَ المفردَةِ المشبَعةِ بالمعاني. والتعريف – والمفهومات ههنا بعامّة – إشكاليةٌ كبيرةٌ بحدِّ ذاتِه، باعتبار المعجم دِيوانًا لأساسياتِ المعارفِ، وأداةً للتواصلِ والتوصيل، ولارتباطه بجلّ الدراساتِ الإنسانية والطبيعية[2]، أيًا كان المنهجُ الذي يقومُ عليه التعريفُ المعجميُّ[3].

والمعجماتُ بعامّةٍ تسعى بالدرجةِ الأولى إلى تحديدِ العلاقةِ بين الدالِّ والمدلولِ، بالعبارةِ الموجَزة، والألفاظ المُفهِمة. ويستعين المعجمي على ذلك بطاقةٍ من الوسائلِ التي تَسعى لتجليتِه كالشرحِ والتفسيرِ والتأويلِ؛ مما جعلَه مَسرحًا لتعاقبِ هذه المفهوماتِ، فتعريفُ المدخل المعجمي وما يتصل به إنما هو الوظيفة الرئيسة، والغرض الأبرز في المعجمات اللغوية.

وفي سبيلِ هذا فإنّ المعجماتِ تُبنى على كمٍّ كبيرٍ مِن التّقنياتِ، مختلفةِ الطرائقِ والمناهجِ؛ لأنها لا تسعى إلى تَرسيخِ مَنهجٍ مُعيّنٍ في تَبيينِ تَعريفِ الكلمَةِ بقدرِ ما تسعى إلى كشفها وتقريبها. والمعجميُّ يُسوِّغُ لنفسِهِ كُلَّ الإمكاناتِ لِتَحقِيقِ هذا الغَرَضِ، وَحشدِ كلِّ هذه التّقنياتِ لِتعريفِ مَداخلِه، وما يَتصلُ بها، واستِثمارِ ما استَطاعَ مِن أنواعِ العَلاقاتِ القائمة بَينَ الدّالِ والمدلُولِ[4]، فلا مَنهجَ إلا ما يَراهُ صالحًا لِعقدِ هذه العَلاقةِ بَينَه وبينَ القارِئ.

وأيًا كانَ المنهجُ الذي يَنهض به التعريفُ، اسميًّا أم منطقيًّا أم بنيويًّا، أم غير ذلك، فإن البحث عن قاعدة محكمة للتعريف عسير. فليس ثمة قاعدةٌ، أو مجموعة من القواعد، لا بد من تطبيقها في كلّ تعريف، وتساؤل زكي نجيب محمود في صُلب هذه الإشكاليّة إذ[٥]: "كيف يمكنُ أنْ تكونَ قاعدةٌ للتعريفِ، والأصلُ فيه أنْ يُصبحَ معنى الكلمةِ العِبارةِ أو الرّمزِ مَعروفًا لمن لم يَكُنْ يَعرفُه، فكلُّ طريقٍ وكلُّ أسلوبٍ من شأنِه أنْ يُعرِّفَ معنى اللفظِ أو الرّمزِ لمن لا يَعرفُه، طريقَةٌ صَحيحةٌ وأسلوبٌ مقبولٌ". ومن ههنا يَنجمُ الاختلافُ والخلافُ. وقد أفضى هذا - ممّا أفضى إليه- إلى إغفالِ المفهومِ النظريِّ المثاليِّ للتعريفِ، فَتَصوّرَ هذا الإغفالُ في التّطبيقِ العَمليّ[٦].

وهذا كلُّه يُفضِي بالضّرورةِ إلى أنّ نقائصَ التّعريفِ وهَناتِه من الصّعوبةِ بمكانٍ أنْ يخلوَ منها أيُّ مُعجَمٍ، وكَثيرًا ما يَغدو السّعيُ إلى تَوضيحِ المعنى وتَقريبِه، غُموضًا، وبُعدًا عن الهدَفِ المنشُودِ، وهي هَناتٌ متنوِّعةٌ، وتَنتمي إلى كَثيرٍ من الأصولِ المنهجيّةِ، التي يَتجاوزُها المعجميُّ، عن وعيٍ، وعن غيرِ وعيٍ، في تحديدِه للمُعجَميِّ وغيرِ المعجَميِّ، في هذه المسألةِ.

فلا مندوحةَ لمن يَتصدّى للجُهدِ للمُعجميِّ مِن تنويعِ تقنياتِهِ، فالمناهجُ الرئيسةُ المذكورة على اختلافِ أنواعِها وأشكالِها تَتكاملُ في المعجَمِ اللغويِّ ولا تَتعارضُ، فالطّبيعةُ المفرَداتيّةُ الواصِفَةُ للمُعجمِ تَتميزُ أصلاً بالتنوّعِ والتّفاوتِ، مِن الحسيِّ إلى المجردِ، ومِن الشّفافِ إلى المعتمِ، ومِن المتمكنِ إلى البنائي..، وتَبعًا لذلكَ تَظلُّ مسألةُ التّعريفِ شَكلاً قابلاً لكلِّ أنواعِ المناهجِ والوسائلِ. وهنا ينبغي الفصلُ بين الإقرارِ بِعدمِ وُجودِ مَنهجٍ مثاليٍّ لتقنيةِ التعريفِ، وفقدانِ الأسسِ المنهجيّةِ الموضوعيّةِ في بناءِ هذه التّقنيةِ، بناءً يَستثمرُ كلَّ ما يمكنُ أنْ يُوضِّحُها.

ولئنْ بدأَ التأليفُ المعجميُّ مُبكرًا فقد تأخّرَ الالتفاتُ إلى الوقوفِ على نقائصِ المعجماتِ، وخَلَلِها، وقوفًا مَنهجيًا شامِلاً[٧].

ولعلّ أبا الطيِّبِ الشّرقيّ الفاسِيّ(ت١٧٦٥م) من أوائلِ مَن دَرسَ هذه النقائصَ والعيوبَ، دراسةً فيها الكثيرُ مِن أَماراتِ المنهَجيّةِ في حاشيتِه على "القامُوس المحيط"، ثم تلاه طائفةٌ من العُلماءِ أبرزُهم بُطرس البستانيّ(ت١٨٨٣م) في: نُقدِ المعجماتِ العربيّةِ، ثم أحمد فارس الشّدياق(ت١٨٨٧م) بمحاولةٍ أكثرَ استبصارًا، في "الجاسوس على القاموس"؛ إذ حَشدَ فيها طائفةً من هذه النقائصِ؛ كالتعريفِ الدَّوْري، وَتَفسيرِ اللفظِ بلازمِ مَعناه، وإيرادِ ألفاظٍ في التعريفِ مُبهمة، وتجاهلِ تَعريفِ بعضِ الألفاظِ، اتكالاً على الإحالةِ إلى المعجماتِ الأخرى[٨]، أو على ثَقافَةِ القارئ. ثم إبراهيم اليازجي(١٩٠٦م) في: "نقد لسان العرب"، فالأبّ أنستاس الكَرْمِليّ(١٩٤٧م) في: "أغلاطِ اللغويينَ الأقدمينَ".

وقد وقف الدكتور الجِيلاليّ في سِفره القيم "تقنيات التّعريفِ في المعجَماتِ العَرَبيّةِ المعاصِرَة" على طائفةٍ من أهمِّ النقائصِ التي تَعتري المعجَمات من هذا البابِ، كالشّرحِ الدّوري، والغُموضِ والإبهام، والسّطحيةِ، وعَدم الانتظارِ، والقالبيّة أو المحدوديّة، والتعريفِ بغيرِ المعرّفِ في المعجم، والقصورِ، والإحالةِ المكرّرةِ، والتنافرِ وعدَمِ المناسبةِ[٩].

والحقُّ أنّ مَن يَنظرُ في مُعجماتِنا لا تخطئُ عينُه الكثيرَ مّما ذُكر من هذه النقائص، وما يربو عليها. فقارئُ المعجم باحثٌ عن معنى، لا عن متعة أدبيّة أو إبداعية. وما يزال على سبب من المُعجم، حتى إذا وقفتْ به المعرفَةُ انقطعتْ به السّبُل.

إنّ إشكاليّة تقنيةِ التّعريفِ الرئيسةِ مدارَ البحث هي" وهو معروف"، وهي نمطٌ من أنماطِ الإحالةِ، وليست تعريفًا حقيقيًّا، على أنّها لا تَنطوي تحتَ أيٍّ من تَقنياتِ

التّعريفِ الثلاثِ الرئيسةِ: الاسميّة أو المنطقيّة أو البنيويّة انطواءً مباشرًا، كما أنّها أيضًا تفارقُ الإحالةَ التي تندرجُ تحتَ تقنيةِ التعريفِ الاسميِّ بشقّيهِ[10]؛ الإملائي والـدلالي. فهي إحالة مَعرفيّة، أو بمعنى من المعاني ثقافيّة.

أمّا التعريف بـ" وهو معـروف " فيتبـوّأُ أكثـرَ التعريفـاتِ المقولبـةِ انتشـارًا لـدى القدماءِ، بل قد يَغدو مَسكوكةَ تعريفٍ تَقنيِّةٍ، تُوشَّحُ بهـا الكـثيرُ مـن المـداخلِ، أو مـا يتصل بها. فهو ينداح خارج دائرة التعريف المعهود؛ ليشكل تعريفًا إحاليًّا، اتكاءً على مخزونٍ معرفيٍّ لجماعةٍ من الجماعاتِ في مكانٍ من الأمكنةِ، وزمانٍ مـن الأزمِنـة، وهـو على هذا رهنُ زمانٍ ومكانٍ، ومجموعةٍ بشريةٍ محـدودةٍ. وهنـا تَنعقـدُ الإشـكاليّةُ كمـا سَنرى، فانتقالُ المعرفةِ التي يَتصورُها المعجميُّ للمَدخلِ الذي يُعالجُه تَغـدو عَسـيرةً في كثيرٍ من الأحوالِ؛ لأنها حُكمٌ فقدَ شُروطَه، التي يَتعرّفُ بها؛ إمّا لاختلافِ الزّمـان أو المكان، وإمّا لكليهما، ومِن ثَمَّ البيئَة المفترَضة.

إنّ النظرَ إلى المعجمِ كقائمةٍ مِن الألفاظِ تَستخدمُها مجموعةٌ من البَشرِ في مَكـانٍ وزمانٍ معيّنينِ أصلُ كَثيرٍ من الإشكاليات المعجميّة، وربما يَعسُر حلّها، والخُلوصُ فيها إلى شيءٍ بيّن. فالغالبية العظمى من صنّاع المعجمات لا يتصورون في تَصانيفهم أنهـم يَكتبونَ لغيرِ زمانهم، أو لزمانٍ قريبٍ من زمانهم على الأكثرِ، ومَن يَقرأُ مُقدّمات تلك المعجماتِ، لا تفارقُه هذه الحقيقةُ. ولعلّ الكثيرَ من الهَنات في تلك المصـنّفات تَنكَفِـئُ إلى هذه العلّةِ. وتَزدادُ المسألةُ تعقيدًا عندَما يَعتمدُ اللاحِقونَ على الاستِنساخِ، دونَ تحقيقٍ.

والمعجماتُ العربيّةُ كَمثيلاتها تقومُ على الملَكةِ المعجَميّة لمتكلمِ اللغـةِ العربيّـة الفَصيحةِ، وهذا يَعني فيما يَعنيه تحديدَ من هـذا المتكلم، ومـا محـدِّدات هـذه الملكـة؟ وأساسُها المحدّدات الزمانية والمكانية[11]. ولا يمكن-في كثيرٍ من الحالاتِ- تجريدُ اللفـظِ من انتمائِه الموضوعيّ والدلاليّ، وتَعليقُه بثقافةِ القارئ ومَقدرتِه على الإحالَةِ.

ويجدرُ التوضيحُ ههنا أنّ هذا النّمطَ مِن التقنيةِ - مَحلَّ البحثِ- يَتحوّلُ ضِمنَ هذا المفهومِ إلى أساليبَ لغويةٍ مختلفةٍ أصلُها الجملةُ الاسميّةُ الصّريحة المبنيّةُ على الضّميرِ "وهو مَعروفٌ"، واسمُ الإشارة "وهذا مَعروفٌ"، أو "وهذه معروفة". وقد يأتي بالكلمةِ الفَذَّة،، نحو:"الفَرسُ: معروف"، وإن كانت أقلَّ، على أننا يمكننا أنْ نأوّلَه، ونُلحقَه بالبابِ الواسعِ من التعريفِ بالجملةِ الاسميّةِ.

وقد يأتي بِصيغةِ التّثنيةِ على قِلّة، والجمعِ على نُدرَة، على ما سَنرى. وهذه هي الصِّيغُ التي استَقلَّ بها هذا البحثُ. وقد يأتي بِصيغةِ الفعلِ المبنيِّ للمَجهول، نحوَ: ويُعرَفُ" و"عُرِف"، وهذا قليل، ويَكفي أنْ نعلمَ مِن قلّته أنّنا لا نكادُ نقعُ عليه في "جَمهرة اللغة"، على كثرةِ ما جاء فيها من الصِّيَغِ المذكورَة، كما سَنرى.

أمّا منهج هذا البحث فَوَصفيٌّ إحصائِيٌّ، وأمّا مَيدانُهُ فطائفةٌ مِن المعجَماتِ العربيّةِ القديمةِ والحديثَةِ، هي من أهمِّ المعجماتِ العربيّةِ منذُ نشأتِها، وتُظلِّلُ المدارسَ المعجميّةَ كافّةً. وقد تقصّيتُ من خلالها عشراتِ الآلافِ من المداخلِ، إلكترونيًّا ويَدويًّا، للكَشفِ عن طبيعَةِ وُجودِ هذهِ التّقنيةِ، التي تُعدُّ هنَةً بيّنةً مِن هَنَوات التعريفِ في المعجَماتِ العَربيّة. وقد اعتَمَدْتُ إلكترونيًّا على مَوسُوعَتين: الجامِعِ الكَبيرِ لِكُتُبِ التّراثِ العَربيِّ والإسلامِيِّ ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، والمكتَبَةِ الشّامِلَةِ، الإصدارِ الثاني.

أولاً : المعجمات القديمة :

أمّا المعجَمات القديمة فقد تخيّرتُ تِسعَةً مِنها، وهي على الموالاة:

"العَين" (ت١٧٠هـ/ ٧٨٦م)[١٢]، و"الجَمهَرة" لابن دريد (ت٣٢١هـ/ ٩٣٣م)[١٣]، وتُهذيب اللغة" لأبي منصور الأزهري (ت٣٧٠هـ/ ٩٨١م)[١٤]، و"الصِّحاح" لإسماعيل بن حمّاد الجَوهريّ (ت٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م)[١٥]، و"الُمحكَم" لابن سِيدة

(ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م)[١٦]، و"أساس البَلاغة" للزّمخشري (ت ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م)[١٧]، و"لسان العرب" لابن منظور (ت٧١١هـ/ ١٣١١م)[١٨]، و"القاموس المحيط" للفيروزآبادي (ت٨١٧هـ/ ١٤١٥م)[١٩]، و"تاج العروس" للزَّبيديّ(ت١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)[٢٠].

إحصاء:

بعدَ البحثِ في عَشراتِ الآلافِ مِن المداخلِ في المعجمات المذكورةِ عن الصّيغِ المشارِ إليها آنفًا من تَقنيةِ التعريفِ، بصُورِها المختَلفة، عَمدتُ إلى قِسمتِها(١٤)، أربعةَ عشرَ بابًا؛ تيسيرًا لحصرها، وبيانِ اتجاهاتها، وجعلتُ هذه الأبوابَ على نمطٍ مخصوصٍ بالبحثِ، لتستبينَ الفكرةُ التي أنشئَ من أجلها هذا البحثُ. ثم أحصيتُ بعدَ ذلكَ ما سميّته المُبهَماتِ، فجعلتُ لها بابًا، وهو مأخوذٌ من الأبوابِ المذكورةِ كافّة، وليسَ قسيمَها؛ إذ هي كلُّ ما ذُكر في تلك المعجمات، من هذا النمط من التعريف، خِلوًا من التعليق، أو تحديدٍ لجنس أو نوع، أو فئة، أو أي محدِّد آخر، وإنما أحيل على ثقافة القارئ، ومقدرته على استبانته، إحالةً تامّةً، وجلُّه من التعريف بالكلمة الفَذّة "معروف"، إذا صرفنا التأويل بالجملة. أمّا الأبواب فعلى النحو الآتي:

- الأعلام بمختلف صورها، سواء كانت علمًا لشخص أو قبيلة، أو مكان، أو حيوان أو غير ذلك.
- أسماء الحيوان وما في حكمها.
- أسماء النبات، وما ينتمي إليها.
- أسماء أعضاء الكائنات الحية، وما ينتمي إليها.
- المهن، والألقاب، والأوصاف، والرتب، والأعداد، والأوزان، والنقود.
- الأطعمة، والأشربة، والزينة، والألبسة، والأدوات، والألعاب، والعطور وما ينتمي إليها.

- الأجناس، والقرابات، والصلات، وما ينتمي إليها.
- الأوضاع والحركات، والتصرفات، والأشياء الناتجة من الكائنات الحيّة.
- الطبيعيّات، وهي كل ما ينتمي إلى الطبيعة، كالمناخات والأجواء والعناصر، وما ينتمي إليها.
- المعتقدات والأديان، واللغات، والعلوم، وما ينتمي إليها.
- الأمراض والأدوية، وما ينتمي إليها، وما ينتج عنها.
- الأمكنة المحدودة، دون الأعلام: كالدار، والحديقة، والبستان...
- الأزمنة: كالأيام والأشهر، والفصول....
- أشتات من المحسوسات، والجوامد، والألوان، ممّا خرج عمّا ذُكر.

وقد جمعتُها في جَدولٍ، مُشيرًا إلى كلِّ بابٍ باختصارٍ، حَصرًا للمِساحةِ، وتَيسيرًا للموازَنَةِ، وقد جاءَ الجدولُ على النّحوِ الآتي:

المعجم	العين	الجمهرة	التهذيب	الصحاح	المحكم	الأساس	اللسان	القاموس	التاج	المجموع
التكرار	١٧٣	١٠٨٥	٤٥٥	٢٠٧	٤٣٠	–	٩٧٧	٥١٢	٥٤١	٤٣٨٠
الأعلام....	٢١	٣١٥	١٤٦	١٧	٢٠٨	–	٣٨٣	١٨٤	٢٧٠	١٥٤٤
الحيوان...	١٢	٩٢	٣٣	١٣	٢٣	–	٦٢	٥٠	٣٣	٣١٨
النبات...	٢١	٩٢	٨٧	٣٨	٤٤	–	١٥٣	٩٠	٦٥	٥٩٠
الأعضاء...	١٨	٦٣	١٧	١١	٨	–	٢٢	١٠	١٠	١٥٩
المهن...	٧	٥٠	١١	٨	٢٠	–	٢٣	٤	١٢	١٣٥
الأطعمة...	١٠	٨٥	٦٨	٣٨	٥٠	–	١٣٧	٩٤	٧٤	٥٥٦
الأجناس...	١٤	١٠	١	٢	٩	–	١٢	٦	٧	٦١
الأوضاع...	١٥	١١١	٣٣	٢٥	١١	–	٥٢	١١	١٠	٢٦٨
الطبيعيات...	١	٢٠	١٦	١٢	١٣	–	٢٣	١٩	١٢	١١٦
المعتقدات...	–	١٣	١٠	٦	٩	–	١٣	٤	١٤	٦٩
الأمراض...	٤	٢٠	٩	٩	١٠	–	٣٥	٢٣	٢٠	١٣٠
الأمكنة...	٥	٢٧	٥	٥	٦	–	١٤	٥	٦	٧٣
الأزمنة...	١	٢٢	١١	٣	٥	–	١٢	٦	٢	٦٢
أشتات	٤٤	١٦٥	٨	٢٠	١٤	–	٣٦	٦	٦	٢٩٩
المبهمات	١١١	٤٩٠	١٤٧	١٢٥	٧٠	–	١٤٨	١٤١	٤٢	١٢٧٤

دِلالات:

لا بدَّ من وقفة على هذه الإحصائيات، تجلي كثيرًا من جوانبها. وبادئ ذي بَدء، لو نَظَمنا هذه الأرقامَ في منحنًى كاشفٍ، يجلّي حركةَ هذه التقنيةِ لتمثّلت على النحو الآتي:

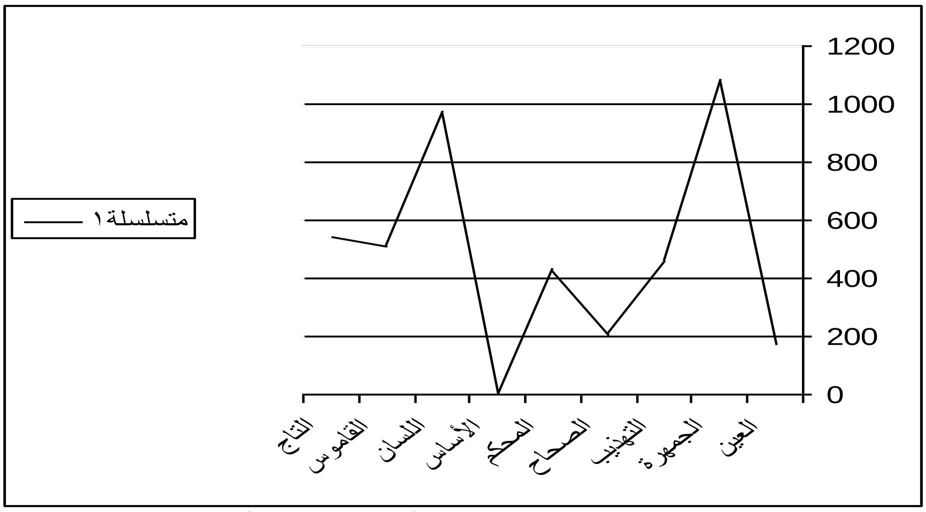

ولا يُعجِزُ الناظرَ أنْ يستبينَ عَشوائيّةَ هذا المُنحنى، وأنّه لا أُسسَ بيّنةً يَقومُ عليها، وعلى الأخَصِّ أنّ المعجميينَ لم يقفوا –كما سنعلمُ– على علّةِ استِخدام هذهِ التّقنيةِ.

وأوّلُ شيءٍ خليقٌ بالوقوفِ بعدَ ذلكَ إنما هو نِسَبُ ورودِ هذا النمطِ من التّعريفِ في المعجماتِ المذكورة؛ إذ بلغ على الموالاة الزمانيّة تقريبًا:العين٤%، الجمهرة٢٥%، التهذيب١٠%، الصحاح٥%، المحكم١٠%، الأساس٠%، اللسان٢٢%، القاموس١٢%، التاج١٢%. وعلى هذا فالجمهرة واللسان يكادان

يستأثران بنصف النسبة. ولعلّ المنهجَ الذي نهض به هذان المعجمان وراء هذه الكثرة الكاثرة من هذه التقنية.

أمّا الجمهَرةُ فقد أعلنَ ابن دُريدٍ في مستهلِّ كتابِه[٢١]:"وإنما أعرناه هذا الاسمَ لأنّـا اخترنا له الجمهورَ من كلامِ العَربِ، وأرجأنا الوَحشيَّ المُستَنكرَ"، ويؤكدُ ذلك بقولِه[٢٢]: "على أنّا ألغينا المُستنكرَ، واستَعملنا المعروفَ". وأمّا اللسانُ فموسـوعةٌ ضَـخمةٌ، قائمـةٌ علـى النّقـلِ، أعـدّها مُصـنّفها للعـالِمِ، والنـاثرِ، والنّـاظمِ، والمحـدِّثِ، وعـالمِ التفسـيرِ، والفقيهِ..، فهو أوّلُ مُعجمٍ جامعٍ حَشَـدَ فيـه ابـنُ منظـور الكـثيرَ مـن ألفـاظ العلـومِ ومصطلحاتِها. والذي يَستدعي النظر ههنا أنّ التّاجَ- بعد تجريدِه ممّا ليس منـه- علـى ضخامته وامتدادِه لم تجاوزْ نسبتُه العُشرَ إلا قليلاً، ولعلّ وراءَ ذلك أنّ التـاجَ يميـلُ إلى التفصيلِ والشّرحِ على أصلِ وضعِهِ.

ومن الملحوظاتِ الجديرةِ بالوقوفِ خلوُّ "أساسِ البلاغـةِ" مـن هـذا الـنّمطِ مـن التعريفِ؛ إذ لم أقعْ فيه على أيةِ صورةٍ مِن الصّورِ المذكورةِ، وهذه مَنقبَـة، تَنضـافُ إلى مناقبِ "أساسِ البلاغَة"، من هذا الوجهِ. ولا غروَ؛ ذلك أنّ "أسـاس البلاغـة" يَقصـدُ إلى تَسجيلِ قوانينِ فصلِ الخطابِ، والكلامِ الفصيح[٢٣]، وتمييزِ الحقيقةِ من المجازِ، فهـو أوّلُ مُعجم يهتمُّ اهتمامًا كبيرًا بالتوسعِ الدّلالي، ويُعنى بالتعبيرِ البليغِ، ويمكنُ القـولُ بـأنّ "أساسَ البَلاغةِ" مُعجم بلاغيٌّ، أو معجمٌ خاصٌّ، والبحثُ يؤكّدُ هذه الحقيقةَ، وما كانَ اختيارُه إلا لِرَصدِ هذا النمطِ من التقنيةِ فيه، وقد تصدّرَ منهجًا مُستقلاً، وبُنِيَ على نمطٍ فريدٍ من التأليف.

وأمّا فيما تعلق بالمداخل وما يتصل بها فقد بلغت نسبة الأعلام في هذا الـنمط من التعريف؛ (١٥٤٤)؛ أي ما يقارب ٣٥% منها. وأعلى نسبة سُجّلت في التـاج؛ إذ

بلغت ما يقارب٥٠%، ممّا ورد فيه. يليها المُحكم؛ إذ بلغت ما يقارب٤٨%. فاللسان٣٩%، فالقاموس٣٦%، فالتهذيب٣٢%، فالجمهرة٢٩%، فالعين٢١%، فالصحاح٨%.

وأمّا حقيقة هذه الأعلام فجلّها للمكان، إذ بلغتْ نسبتُها من مجموع الأعلام(١٠٥٠)؛ أي ما يقارب٦٨%. ويليها علم الشخص والقبيلة؛ إذ بلغ(٢٨٦)؛ أي ما يقارب١٩%، ويتقاسم سائرَها الأنماطُ الأخرى من الأعلام. وأعلى المعجماتِ نسبةً في ذلك "التهذيب"؛ إذ بلغتْ ما يُقارب٨٠% ممّا وَردَ فيه من هذه الأعلامِ، ويَليهِ "الجمهَرة"٧٦%، فـ"اللسان"٧٤%، فـ"الصحاح"٧١%، فـ"المحكم"٦٤%، فـ"التاج"٦٣%، فـ"القاموس"٤٦%، فـ"العين"١٢%.

وأمّا المداخلُ الأخرى فقد جاءتْ على الموالاة: النبات١٤%، الأطعمة١٣%، الحيوان٧%، الأشتات٧%، الأوضاع٦%، الأعضاء٤%، المهن٣%، الأمراض٣%، الطبيعيّات٣%، الأمكنة٢%، المعتقدات٢%، الأزمنة١%، الأجناس١%.

على أنّ أعلاها حقيقةً ما جاءَ في النباتِ والحيوانِ، لتجانُسِها؛ ذلك أنّ الأبوابَ الأخرى – العاليةَ نسبيًا- كالأطعمة والأشتات، والأوضاع، إنما هي مُتفرقات، وإنْ نَظَمَتْها صِلَةٌ، وقد جمعتُها لاستشعارِ تلك الصِّلةِ، حتى لا تتضخّمَ الأبوابُ، ويضيعَ الغرضُ من هذا الإحصاءِ، ولو فرقتها لدَقّت نسبتها. فإذا ضممنا هذا الثنائي، إلى ما رأينا من ارتفاع نسبة علم المكان، انتهينا إلى ثلاثيّ يمثّل قيمةَ هذه الأركانِ في حياةِ العربيِّ، واستشعارِه قُربها، ممّا سوّغَ لصنّاعِ المعجماتِ هذا النمطَ من التقنيةِ فيها. وفي مقابلِ ذلك نجدُ أنّ الشعورَ بغيابِ مفهومٍ محدّد، وفقرَ التعبيرِ عندَ المتكلمينَ، بمصطلحات ومفاهيمَ مخصوصةٍ، وراءَ قلّة هذا النمطِ من تقنيةِ التعريفِ في الأبوابِ الأخرى، باستثناءِ الأعضاء، وما ينتمي إليها المحدودةِ بطبيعتِها.

وأمّا فيما يتعلّق بالمبهمات فقد سَجّلتْ نَسبةً تقاربُ٢٩% من مجموعِ الواردِ في هذا النّمطِ من التعريفِ؛ أي نِسبة تقاربُ الثلثَ. وجاءتْ على الموالاة: العين٦٤%، الصحاح٦٠%، الجمهرة ٤٥%، التهذيب٣٢%، القاموس٢٨%، المحكم١٦%، واللسان١٥%، والتاج٨%. وأشدّ ما يَلفتُ النظرَ في هذه النسبِ النسبةُ الضئيلةُ التي سجّلتْ في التاجِ، على امتدادِه واتساعِه، وكذا اللسانُ، في مقابلِ كثرتها في المعجماتِ المتقدِّمَة: كالعين، والصِّحاحِ، والجمهَرةِ، والتهذيبِ، حتى بلغتْ في هذه المعجماتِ ما يقاربُ٦٩% ممّا جاء منها. ولئن دلَّ هذا على شيء فإنه يدلّ على ثقة صناع تلك المعجمات بالمخزون المعرفي لدى القراء، إبّان تأليفهم، يمكّنهم من الكشف عن معاني تلك المداخل.

المعروفُ واللّغة:

لا جرمَ أنّ مَن يُعالج أيَّ جانبٍ من جوانبِ تَقنيةِ التّعريفِ محلَّ البَحثِ لا بُدَّ أنْ يَقفَ على علاقةِ اللّغَةِ بهذهِ التّقنيةِ؛ إذ يمثّلُ المعروفُ اللغويُّ في تراثنا صُلبَ ثقافةِ التعريفِ، وإن اختلفت الألفاظُ في أدائهِ. ولا مَعدَى عن الوقوفِ عليهِ وتمييزهِ من المعروفِ الدلاليِّ، الذي يَسِمُ هذا العملَ. واستكمالاً لدائرة البحثِ فقد تقصّيتُ علاقةَ "المعروفِ" بمسألةِ اللغة في المعجمات المذكورة كلِّها، وخَلصت إلى ما يأتي:

أمّا "العينُ" و"أساسُ البلاغة" فلم أقعْ فيهما على شيءٍ من هذه العَلاقة. وأمّا "الصِّحاح"فجاء فيه مرةً واحدة. وأمّا الستةُ الأخرى فقد وقفت على (١٩٢) موطنًا، تناولت علاقة هذه التقنية باللغة، فيغدو المجموع(١٩٣)، على النحو الموالي:

أمّا الجمهرةُ فقد بلغتْ المضامينُ اللغويةُ في الألفاظ التي ورد فيها "المعروف" (٩٣) مرّةً، أي ما يقاربُ النصفَ من مجموعِ ورودها في سائر المعجمات. وهي

بمجملها على ثلاثة أقسام؛ الأكبر ما عرّفه الأزهري بـ"عربيّ صحيح معروف" أو "عربيّ معروف"، وقد بلغ(٧٩)،نحو:الفَخّ، والحقّة، والخَزّ، والخَلّ، والدنّ، والرفّ"[٢٤]، ويقصدُ منه نفيَ العُجمة عنه.

وأمّا القسم الثاني فما ذَكَرَ مَعرفةَ اللغةِ فيه من حيثُ استخدامُه، وقد بلغ(١١)، نحو: "شمال وشمأل وشمَل... لغة معروفة، و"القَصعَة، بفتحِ القافِ معروفة، والجُلّة لغة تميمية معروفة"[٢٥].

وأمّا الثالث فما قرن معرفته بالتعريب، وهو(٣)، الدانق: معروف معرّب، و"وطومار معروف على أنه معرّب"، وطرسوس بلد معروف معرّب".

أمّا التهذيب فقد بلغ من ذلك (١٦)، واحدة منه في نفي العُجمة، وهو:"سَهَجَ وهو من كلام العرب معروف"، واثنتان في التعريب، وهما: قال الليث: القزُّ كلمة معرّبة"، "والجصّ معروف، وهو من كلام العجم". وسائرها في أوجه استخدام الألفاظ، نحو: عَدبَ: أهمله الليث وهو معروف، و" وإمرأة علاّنة: جاهلة وهي معروفة، و"الرّصغ لغة في الرسغ معروفة"[٢٦].

وأمّا "الصحاح" فلم أقع فيه إلا على مرة واحدة، وهي في نفي العجمة:" وشيبُ السَوْطِ معروفٌ عربي صحيح"[٢٧].

وأمّا "المحكَم" فجاءَ منه (١١)، مرة واحدة في استخدام اللغة، وهي: رهنته وأرهنته معروفان، و(٧) في نفي العُجمة، نحو: الحُقّ: عربي معروف" و"الهليون نبت عربي معروف"، والكمون معروف عربي"[٢٨]. و(٧) في التعريب، وهي:اليسع معروف أعجمي" و"الطنبار معروف فارسي معرّب"، و" البُمّ من العود معروف أعجمي".

وأمّا اللسان فـ(١٣) مرة، منها (٧) في التعريب، "البخت: فارسي معرّب"، و" البَنْد: معروفٌ فارسي معرّب"، و"الكاغد: معروف فارسيّ مُعرّب"[٢٩]. و(٢) في نفي

العجمة، "الهليون عربي معـروف"، و"الجـلّ عربيـة معروفـة"، و(٤) في اسـتخدام اللغـة، وهي:"القيعون على بناء فيعول معروف"، و" امْضَرْب... فأبدل الـلام ميمًـا، وهـي لغـة معروفة"، و"العسل تذكيره لغة معروفة"، و"الوِتر والوَتر لغتان معروفتان".

أمّا القاموس المحيط فقد ورد فيه (٢٥) مرّة، واحدة، وهي "العَفـص"، قـال فيـه: معروف، مولّد أو عربيّ" وسائرها في التعريب، نحو:" اليَشَب: حجـر معـروف معـرّب"، وكذا "الياقوت"، والفوتنج، والمرداسنج، والنارنج"[٣٠].

وأمّا التاج فقد جـاء فيـه (٣٤) مـرة، منهـا (٧) في نفـي العُجمـة، نحو:"الـدُّبِّ معروف عربية صحيحة" و"اللّوز ثمر عربيّ معروف"و "الكزبرة عربية معروفة"[٣١]. و(١١) في اللغة، نحو: "سَففتُ الخوص بغير ألـف عربيـة معروفـة" و"الأصـيلة لغـة معروفـة في الأصيل" و"أزَم الحبل، والراء فيه لغة معروفة"[٣٢]. وسائرها في التعريـب، نحـو: اليـاقوت معروف فارسي، و" سُكَّر معرّب شَكَر"، و"الطّنبار معروف فارسي"[٣٣].

وإذا ما وَقفنا على دِلالاتِ هذه النتـائجِ أمكَننـا أنْ نقـولَ بـادئينَ إنّ التعريـفَ اللغويَّ يمثّلُ قلّةً ظاهرةً في مقابلِ التعريفِ الدّلاليّ، وهذا يَتوافقُ معَ الغايـةِ مـن بنـاءِ تلكَ المعجماتِ. أمّا في نِسَبِ وجودِ هذه الظاهرة التّقنيةِ فنجدُ أنّ خلوَّ المعجماتِ، أو قلّةَ استخدامِ "المعروف" في المضامينِ اللغويةِ فيها عائدٌ لِطبيعةِ إنشائِها، وتَخصيصِ هـذا النّمطِ من التّقنيةِ بالدّلالة.

فـ"أساسُ البلاغةِ" كما ذُكِرَ ليس من همّه هذا الجانب، وقـد لَـزِم منهجـه. وأمّـا "العينُ" فالخليل تكلّمَ على المعرّب والتعريب-وإن كان قليلاً- على أنه لم يستخدم فيهـا صفة المعرفة في هذا الزمن المبكّر، وبالرغم من أنّه أشارَ إلى اللغاتِ كـثيرًا فلـم يَقرنهـا بالمعرفة أيضًا. وكذا "الصِّحاح" فقد تجنّبَ صفة "المعرفة"، وإن كانَ ذكر المعرّبَ والتعريبَ واللغات. وأمّا الكثرة النسبيّة لـ"العربي الصحيح المعروف" في "الجمهرة" فليست ببعيـدة

من تأثير ظاهرة الشعوبية، التي استحكَمَت في القرنِ الثالثِ، وصوّرَها الجاحظُ أحسنَ تصويرٍ.

في المنهج:

ولعلّ السؤالَ الذي يَستدعيهِ الناظرُ في هـذهِ الإحصـاءاتِ، هـل أشـارَ أولئـك المعجميّونَ إلى مَلمحٍ مَنهجيٍّ، بنَوا عليه هذه التقنيةَ من التعريفِ، تَبدّى من خلال هذا المسح الواسع؟ والإجابةُ أنّ أحدًا من المعجميينَ الذين وَقفتُ البحثَ على عَملـهم لم يُشِرْ إلى مَنهجٍ، أو ملحوظةٍ تُفضي إلى مَنهجٍ، ما خـلا وَقفـاتٍ قليلـةٍ فَريـدةٍ، وقعـتُ عليها عند الزَّبيـديّ في التـاج، مُعلِّقًـا علـى "معـروف" الفيروزآبـادي، ظاهرُهـا يُـوحي بالمنهجيّة، غيرَ أنها لا تستندُ إلى أساسٍ، ولا إلى مَذهبٍ، في هذا الشأنِ.

وهي خمسةُ نصوصٍ؛ اثنانِ منها يَتعلّقان بتحقيق الأعلام، إذ يقول:[٣٤]: (بَهْـدَى كسَكْرَى)، أهمله الجوهريّ وقال الصاغانيّ: هو(ابن سعْد بن الحارث بن ثَعْلَبَـة) بـن الحارث بنِ دُودانَ بنِ أَسَدٍ. (م)، أَي معروف. قلت: وفيه نَظرٌ. وقوله[٣٥]: (محمـدُ بـنُ المُهَنَّى بنِ الباتِنِّيِّ)، هكذا هو بموحَّدَةٍ قبْلَ الألِـفِ و (بكسْـرِ التَّـاءِ) الفَوْقيَّـة،(والنّـونِ المُشـدَّدَةِ) المكْسُـورَةِ: (م) مَعْـروفٌ بـينَ المُحـدِّثِين، وفيـه نَظَـرٌ". أمّـا الثلاثـة الأخـرى فقوله:"[٣٦]: ومِجْدَافَةُ السَّفِينَةِ: م معروفَـةٌ، هكـذا النُّسَـخ، والأَوْلَـى مِجْـدَافُ، وقولـه: معروفٌ، فيه نَظَرٌ، وكان الأَوْلَى أَن يقولَ: مِجْدَافُ السَّفِينَةِ ما يُدْفَعُ بها، أو ما أَشْبَهَه، أَو إِحَالَتُه علَى الدَّال. وقوله[٣٧]:(و) نامِيَةُ: (ماءَةٌ م) مَعْروفَةٌ. قُلْتُ: هي مِـن مِيـاهِ بَـني جَعْفرِ بنِ كِلابٍ، ولَهُم جِبالٌ يقالُ لها جِبالُ النامِيَةِ، كما نقلَـهُ يـاقوتُ. ومِثْـلُ هـذا لا يقالُ فيه مَعْروفٌ، فتأَمَّل. وقوله[٣٨]: (و) السَّعَد، (بالتحريك)، وبخطّ الصاغانيِّ: بالفتح (وأَجَمَةٌ م) معروفة، وفي قوله: معروفة، نَظرٌ. وقوله:"[٣٩] الكَلْبُ عَلَى هذا النَّوْعِ النَّـابِحِ.

قال شيخُنا بل صار حقيقةً لُغَوِيّة فيه، لا تَحْتَمِلُ غيرَهُ، ولذالك قال الجوهريّ، وغيرُه: هو معروفٌ، ولم يحتاجُوا لتعريفه، لشُهْرته".

وكلُّ هذا من المواضعِ النادرةِ التي قُلِّبَ فيها النظرُ فيما يُعـرَّفُ، وهـي لا تخلـو من الدهشةِ والعَجبِ، فقد حَشدَ الزَّبيديّ نفسُه العشراتِ، بـل المئـات، ممّـا يسـتدعي الوقوفَ والنظرَ، فلم يَربعْ عليه، ولم يَلوِ منه على شيء، وسَوّغَه على ما فيه، ثم نجدُه يتأملُ هذه المواضعَ، ويقلّبُ النظرَ في نعتِها بالمعروفَة، ولا يُعقّبُ. وكأنّنا به قد اسـتَبانَ عندَه - فيما عَرّفَ - مَنهجَ "المعرُوفِ" و"المنكرِ"، وتنادَّتْ عنه هذه المواضعُ. وأمّـا مسـألةُ الشّهرةِ، فهو نفسُه لم يَلتزمْها، لأنها مسألة نسبيّة، والأصل في المعجم أن يكون مرجعًا يُعنى بموضّحات مداخله، لا تابعًا.

ملامح منهجية:

سَلّمنا أنْ ليسَ ثمةَ مَنهجٌ يَقومُ عليهِ هذا النّمطُ من التّعريفِ، تَسليمًا ناجمًا مـن طبيعة التقنية التي يَنتمي إليها التعريفِ. فالنقدُ في هذا الميدانِ قائمٌ على أسسٍ بناء هذه التقنية، لا على فَقْدِ المنهجِ فيها. وقد رأينا أنّ المعجميّين القدماءَ- محلَّ البحث- لم تَبدُ منهم أية إشارةٍ إلى ذلك. على أن هناك معـالمَ يمكـنُ أن تُسـجّلَ ضِـمنَ الملامـحِ الـتي نَهجها أولئكَ المعجميونَ في تأطيرِ هذا النمطِ من التعريـف عنـدهم، وَرصـد الاتجـاه العام الذي سلكوه، في سبيل استخدامهم لهذه التقنية، وقد وقفت من ذلك على ستةِ مَعالم:

الأوّل: المعرفةُ القائمةُ على الشّكّ:

ولعل أبرز هذه المعالم، بل المفارقات، أنّ المعروف، لا يُزري بـه أن يكـون محـلاً للشك، ولننظر طائفة مـن الأمثلـة علـى ذلـك. إذ جـاء في العـين[٤٠]: "تِعْشـار موضـع

معروف يُقَالُ: بنجد ويُقَالُ: لبني تميم"، فمن أين جاءته المعرفة؟ وجاء في الجمهرة لابن دريد في "زمن الخُنان"[41]: زمن معروف عند العرب قد ذكروه في أشعارهم، ولم أسمع له من علمائنا تفسيرًا شافياً". فمع كل هذا العُرف، يذكر ابن دريد الخلاف فيه، وعدم تحقيقه. ومن ذلك عنده أيضًا[42]: "تَرْتَرْتُ الشيءَ من يدي، إذا بَدَرْتَه. والتَّرثار: نهر أو واد معروف"، وأين الوادي من النهر؟ ومثل ذلك[43]: "وموقوع: موضعٌ معروف أو ماء معروف". ومثله[44]: "والسَّبَلَة، سَبَلَة الرجل: معروفةٌ، فمن العرب من يجعلها طرفَ اللحيةِ فيقولونَ: رجل أَسْبَلُ وسَبَلاني، إذا كانَ طويلَ اللحيةِ، ومنهم من يجعل السَّبَلَةَ ما أسْبَلَ من شَعر الشاربِ في اللّحيةِ. ومثله[45]: "والقَسُوميّات: موضعٌ، زعموا، مَعروفٌ"، ومثلُه أيضًا في اللسان[46]: "وغُمْدانُ قُبَّةُ سَيْفِ بن ذي يَزن، وقيل قصرٌ معروفٌ باليمنِ. ومنه[47]: "وبَدَّرُ موضعٌ، وقيلَ ماء معروف". وكأنّنا بالمعروفِ في كلِّ هذا يعادلُ، كثرةَ التّداولِ اللغويّ، ولا يَرتبطُ بالمعرفَة الحقيقيّةِ، وهذا النمطُ من الشّكِ ليسَ عارضًا، بل كثيرٌ، لا تخطئُه عينُ القارِئ[48].

الثاني: إسنادُ المعرفَةِ:

وهذه مفارقة منهجية أخرى بيّنةٌ، تستدعي التأمّلَ في هذا النمطِ من التقنيةِ، تفضي إلى شيءٍ من هذه المعالم، وهي ظاهرةٌ أكثر ما بانت في "التهذيب"؛ إذ يَقرِن معرفة المدخل، أو ما يتصل به، بـ"الليث"[49]، ولا ندري كيف سوّغَ الأزهريّ أن ينقل هذه المعروفات، وكأن الليث استأثر بعلمها، وقد جاءت في عشرات المواضع، نحو[50]: "قال الليث: الحَسَدُ معروف"، ومن ذلك أيضًا، وهو كثير: الفحش، والحطب، والحوض، والحوت، وحراء، الهليلج، الهيرون، الصخَب، والفخّار، والنَّفخ، والقِرد، والقَتْل، والقِرفَة، والقُفل، القَمْل، والسَّقْي، والقَيْد، والزِّندِيق[51].... وهذه ظاهرة لا يكاد يخلو منها معجم، على أنّ الأزهريَّ أكثرَ منها كثرةً لافتةً.

الثالث: إفرادُ المعروفِ:

ومن هذه المعالم أيضًا، غلبةُ الإفرادِ على وصفِ "المعروفِ"، وقد ظهرَت فيه التثنيةُ على قلّة، إذ جاءت في ستةِ مُعجمات[52]. وبلغ ما جاء منها(٦٦) مرة، جلها في المكان؛ إذ بلغت ما يقارب ٦٠%، نحو: الدانان جبلان معروفان[53]، والمشرق والمغرب[54]، والوحيدان ماءان[55]، و"الخوّان واديان[56]، و" وعانِدان واديان معروفان"[57]، و" الرسُّ والرّسِيسُ ماءان"[58]، أمّا فيما يخصُّ الاستعمالَ اللغويَّ فبلغَ ما يقاربُ ٢٠% نحو: والقِنَّبُ والقُنَّب عربيان معروفان"[59]، و"السُّقْم والسَّقَم واحد، معروفان"[60]، و" ثاخَ وسَاخَ معروفان"[61]، و" وأَتَابَه وأَعطاه الأَجْرَ، والوَجْهَانِ مَعْرُوفان لجميعِ اللُّغَـويِّين"[62]، و" ويحفظ: الضَّمُّ والكسْرُ في الصُّوانِ مَعْرُوفانِ"[63].

وسائرها من المتفرقات، نحوَ: "البَغل والبَغلة معروفان[64]، و" والطير والطائر"[65] و" وَمَنْكبا الإنسان"[66]، وابنا عِيان قِدحان[67]،" وابنُ مُرٍّ وابنُ سِنْبِس صائدانِ مَعْروفانِ"[68]، و" النَّسْران: كوكَبانِ في السَّماء"[69]، و" وَابُنَا هُجَيْمَةَ، كَجُهَيْنَةَ: فَارِسَانِ معروفان"[70].

أَمّا صيغة الجمع، فقد بدت مرة واحدة في الصِّحاح؛ إذ جاء فيه[71]: " والمُحادثة، والتَّحدُّث، والتّحادُث، والتَّحديث معروفاتٌ"، وقد ردّدها ابن منظور في "اللسان"[72]، والزَّبيدي في "التاج"[73].

الرابع: استِنساخُ المعرفَةِ:

ومنها استنساخُ أو انتقالُ الوصفِ بـ"المعروفِ"، إذ بادئًا ثمة اتجاه في كلِّ المعجمات القديمة تقريبًا على تجنّب الألفاظِ المحظورةِ، أو ما يسمّى "بالتابو"، وهي الألفاظُ التي يتجنبُ المعجميُّ الخوضَ فيها حرَجًا، فيلقيها ولا يُعقّب. ولا يفوتُ القارئَ في ما وراء ذلك أنْ يلحظَ النقلَ في المعجماتِ المتأخّرةِ على وَجهِ الخصوصِ، فَنَجدُ الكثيرَ من المعروفِ بقِي معروفًا، على طولِ الأمَد، وتحوّلِ البيئةِ، وتنوّعِ القرّاءِ.

على أنني تَنكبتُ المعجماتِ المتأخّرة، وتخيّرتُ لدراسةِ هذه الظاهرةِ ثلاثةَ معجماتٍ تنتمي إلى عصرٍ واحد تقريبًا، هو القرنُ الرابع الهجري، بل تشكّل فوق ذلك ما يقارب نصف النسبة الواردة من هذا النمط من التعريف في المعجمات كلّها، وهي: الجمهرة، والتهذيب، والصِّحاح، وجعلتُ "التهذيبَ" نقطةَ الارتكازِ؛ لقياسِ صفةِ "المعرفة" في عصرٍ واحدٍ تقريبًا.

وقد سجّلتُ عندَ الأزهريّ ما يقارب (٨٥) مرةً، كرّر فيها معروفَ ابن دُريد، بينما لم يسجل الجوهريّ أكثر من(١٥) مرة، ممّا ذكره الأزهري. وهذا يؤكّد المنهجَ المتميّزَ عندَ الجوهريّ. وإذا صوّرنا الأرقامَ نسبةً، وجدنا أن الأزهريّ لم يكرر من معروف ابن دريد أكثر من ١٩% على وجه التقريب ممّا جاء فيه من هذا النمط من التعريف. أمّا الجوهري، فلم يكرر ممّا جاء عند الأزهري أكثر من ٧%، ممّا ورد فيه. وإذا وازنّا ما ورد في التهذيب من هذا، إلى النسبة الكلية ممّا ورد عند ابن دريد في الجمهرة، وجدنا النسبة في التهذيب لا تتعدى ٨% منه. وفي الصحاح تقارب ٣% من النسبة الكلية في التهذيب. وأمّا نسبة ما ورد في الصحاح ممّا ورد في الجمهرة فلا تكاد تذكر. وهذا يؤكّد عشوائية استخدام هذه التقنية، في الاتفاق على "المعروف"، كرّة أخرى، حينما نتكلم على عصر واحد يُظِلُّ أولئكَ المعجَميين تقريبًا، بعيدًا من النقل، الذي استحرَّ عند المتأخّرين.

الخامس: دَعائِمُ تَقنِيةِ المعرفَةِ:

من النادرِ أنْ نقعَ على توضيحٍ للمعروفِ من حيثُ وجودُ دعائمِ المعرفةِ الثلاث الرئيسةِ في هذا البابِ من التّقنيةِ، وهي الزمان والمكان والإنسان، على أننا لا نعدمُ تحديدَ المكانِ في نصوصٍ قليلة ذَكرها الأزهريُّ، ونقَلها بعضُ الخالِفين، ومن

ذلك[٧٤]: "الذهب مكيال معروف في اليمن"، وقوله[٧٥]: "وقال أبو عبيد: سألت الأصمعي عن الكِظَامةِ وغيرَه من أهل العلم فقالوا: هي آبـار تُخْفَـرُ ويُباعَـدُ مـا بينهـا... فهـذا معروفٌ عند أهل الحجاز".وقوله[٧٦]: "وبُسْرٌ موكِّتٌ، وهذا معروفٌ عند أصحاب النخيل في القُرَى العربيَّة. ومنه[٧٧]: " قال أبو عبيدٍ في قوله: قُلّتين: يعـني هـذه الحِبَـابَ العِظَـامَ واحدتها قُلّة، وهي معروفةٌ بالحجاز". وقول الزّبيدي:" والعَمْرُ نَخْلُ السُّكَّر، يقـال لـه العَمْرُ، وهو معروفٌ عند أَهْلِ البَحْرَيْنِ". ولا شكّ في أنّ المكانَ ههنا يُفضي إلى طائِفَـةٍ من الناس، على أنّه مكانٌ فضفاض، يستدعي طائفة فضفاضة، فضلاً عن تحديد الزمن.

السادس: المعروفُ والمنكَرُ:

لا يمكنُ – في ختامِ هذهِ المعالِمِ – الكلامِ على المعروفِ في المعجمـات المـذكورةِ دونَ أنْ يستدعيَ الوقوف على ما وسَمه المعجميّون بـ"غير معـروف" أو المنكـر، حتـى تكتمل الصورة. فـ"غير المعروف" بادئًا معادلٌ للمعروفِ، شـكلاً ومضـمونًا. علـى أنـه عند التحقيق لا يستوي حالُه على هذا؛ أمّـا الـورودُ فلـم يُسـجّلْ في كـلِّ المعجمـاتِ المذكورةِ أكثر من (١٣٩) مرةً، في أربعةِ معجماتٍ، هي علـى المـوالاة مـعَ تكرارِهـا: التهـذيبِ(٥)، والمحكَـم(١٨)، واللسـانِ(٣١) والتـاجِ(٨٥)؛ أي أنّ مـا وردَ في "التـاجِ" وحدَه يُعادِلُ ٦١% منها. هذا من حيثُ الكَمّ، فأيُّ شَيءٍ هو "غيرُ المعـروفِ" أو المنكـرُ هذا؟

لقد أحصيتُ من غير المعروفِ(١٢٨) في اللغة[٧٨]؛ أي مايعـادلُ٨٧% ممّـا وردَ منه. سواء في ذلك الضبطُ، أم الاشتقاقُ، أم التذكيرُ والتأنيـثُ، أم الاسـتعمالُ. و(٥) في النحو[٧٩]، و(٢) في العـروض[٨٠]، و(٣) في نسـبة الشـعر[٨١]، و(١) في تحديـد جـنس علم[٨٢]. وعلى هذا فمضمون "غير المعروفِ" هو مضـمونٌ لغـويٌّ في معظمِـه، ويختلـفُ

اختلافًا بيّنا عن استخدام تقنية المعروف في المعجماتِ المعنيّة، وهذا يؤكّدُ اتفاقَ أولئك المعجميينَ ضمنًا، على استقلالِ المعروفِ بالدلالة.

نماذج من مُشكلِ"المعروف":

ولا بدّ في هذا البحثِ من الوقوفِ على نماذجٍ قليلة من المنعوت بالمعرفة، المتناقَل في المعجماتِ، على إشكالِه؛ ليستبينَ لنا جانبٌ من حقيقةِ تقاذفِ هذه الصفةِ دون تحقيقٍ، في طائفةٍ من المعروفاتِ. ولعلّ أوّلَ وأبرزَ مثالٍ على هذا، لفظُ، بل مصطلحُ "المطارحَةِ"، الذي كانَ وراءَ نشوء هذه البحثِ، ولفْتِ النظر إلى هذه الإشكاليةِ[٨٣].

إذ تعدُّ المطارحةُ من المصطلحاتِ المجهولةِ، التي تقلّبتْ في تاريخِ العربيّة مُجلّلةً بالمعاني، دونَ أنْ يرصدُها أحدٌ رصدًا شافيًا. وإنْ وقفَ المعجميّون عليها وقفة هي إلى الغموض أقرب منها إلى البيان.

ولعلّ من أوائلِ المصنّفاتِ المعجميِّةِ التي نقع فيها على ذكرٍ للمطارَحةِ "جَواهِرِ الألفاظِ" لِقُدامةَ بنِ جَعفرٍ الكاتبِ (ت٣٣٧هـ)؛ إذ ذَكَرَ بابًا من أَبوابِ "المخاصَمَةِ والمشَاقَّةِ"[٨٤]، جاءَ فِيهِ:"ما زالَ يُطارِحُهُ الكَلامَ وَيُراجِمُهُ أشَدَّ مِن وَخْزِ السِّهامِ وَوَقْعِ الحُسامِ". وبادٍ ههنا سلوكُها في الخصام. ثم يقف الزمخشري عليه وقفة أشد غموضًا[٨٥]: "وطارحتُهُ العلمَ والغِناءَ وتَطارَحناهُ"، فيقرن فيها العلم بالغناء، دونَ تعليق.

ثم يسجّلُ الجوهريّ عبارتَه المنبتّة[٨٦]:" ومُطارَحَةُ الكَلامِ مَعروفٌ". ولا يشرح من أي جهة جاءته المعرفة؟ وقد نقلها الرازي (ت٦٦٦هـ) في "مختار الصحاح"، ثم زاد:" المُطارَحةُ إلقاءُ القَومِ المسائلَ بَعضِهم على بَعضٍ"؛ دون أن يتنبه إلى أن العبارة تقوم على تعريف" مطارحة الكلام"، لا المسائل.

ثم يغدو "المعروف" أيقونةً عندَ المعجميينَ، يَتقاذفونَه دونَ أنْ يَقفوا عليه، فينَقلُها بِنَصِّها نَشوانُ الحِمْيريُّ (ت٥٧٣هـ) في "شمَسِ العُلومِ"[٨٧]. وكذا ابنُ مَنظورٍ في "اللّسانِ"[٨٨]، والفَيروزُآبادِي في "القاموسِ"[٨٩]. وزاد الزَّبيديُّ في "التاجِ" ما ذكره الرازي[٩٠]. وكلهم ناقلٌ، دون أن يحققها أحد منهم تحقيقًا شافيًا. أمّا المعجمات الحديثة، فقد جاءت فيها بما لم تُسبق[٩١]، فضلاً عن وجوه استخدام المحدثين لها.

وثاني المعروفِ من هذا البابِ هو "زمن الخُنان"، وأوّل ما جاءَ ذِكرُه في العين[٩٢]: "والخُنانُ: داءٌ يأخُذ الطَّيْرَ في حُلوقها... والخُنانُ في الإبِلِ كالزُّكامِ في النّاسِ". ثم جاء ابن دُريد في الجمهرة فقال:"[٩٣]: وزمن الخُنان: زمن معروف عند العرب قد ذكروه في أشعارهم، ولم أسمع له من علمائنا تفسيراً شافياً". وأكد الجوهريّ في الصحاح ما جاء في العين[٩٤]. وكرّر ابن سِيدة ما قاله ابن دريد، وزاد[٩٥]:" والخُنَانُ في الإبل، كالزكام في الناس. وعلى هذا فالخنان داءان لا داء واحد. ثم نجد ابن سيدةَ نفسَه في المخصّصِ يُضيفُ إليه ثالثًا[٩٦]، فيزيد: " والخُنان داءٌ يأخذ في العَيْنين". أمّا ابن منظور فقد حشدَ كلَّ هذه الأقوال[٩٧]. ثم جاءَ الفيروزُ من بعد ذلك، ليذكر أنه كانَ في عَهْدِ المُنْذِرِ بنِ ماءِ السماءِ وماتَتِ الإبِلُ منه[٩٨]. وذكره الزَّبيدي، وكرّر ما قاله ابن دريد، والفيروز. وجعل منه تقويمًا يُؤرِّخ العرب به؛ إذ يقول[٩٩]:" وهو مَعْروفٌ عِنْدَ العَرَبِ، وقد ذَكَرُوه في أشْعارِهِم، قالَ النَّابِغَةُ الجعديُّ:

فَمْـنَ يَحْـرِصْ علـى كِبَـرِي … فـإني مـن الشُّـبَّانِ أَيَّـامَ الخُنَـان

قالَ الأَصْمعيُّ: كانَ الخُنانُ داءً يأْخُذُ الإِبِلَ في مَناخِرِها، وتموتُ منه، فصارَ ذلكَ تارِيخاً لهم". ولم يذكروا بيتًا آخر يؤكد هذا الزعم. وقال الصُّولي[١٠٠]: وأرخت العرب بعام الخنان لأنهم تماوتوا فيه، وعظم عندهم أمره". ولم يزد على بيت النابغة. وكذا صنع المرزوقي(ت٤٢١هـ) في الأمالي[١٠١].

ومن عجبٍ أنّ نقعَ على نصٍّ لأبي الفرجِ(ت٣٥٦هـ) ينقضُ ذلك كلَّه؛ إذ جاء فيه[١٠٢]: "سُئِلَ محمدُ بن حبيب عن أيامِ الخنانِ ما هي؟ فقالَ: وقعةٌ لهم. فقالَ قائلٌ منهم، وقد لَقُوا عدوَّهم: "خُنّوهم بالرّماح"، فسمّي ذلك العامُ الخنانَ". وقال أبو الحسن المسعوديّ(٣٤٦ هـ)[١٠٣]: "وأرّخوا بعام الخُنان، وهو عام شَمِل أكثر الناس فيه الخُنان". وقال أبو هلال(ت٣٩٥هـ)[١٠٤]: "وعادة الناس أن يؤرخوا بالشيءِ المشهورِ، والأمرِ العظيمِ المذكورِ، أرّخ بعض العرب بعام الخنان لشهرته بتماوتهم فيه".

وقد نقضَ كلَّ هذا الصاحبُ بن عبّادِ(ت٣٨٥هـ)، والمرزوقيّ، إذ قالا[١٠٥]: ونحن في خُنانٍ من العيشِ، وسنة مُخِنّة أي مُخصِبة". ويُردفُ المرزوقيّ": وهذا الذي فسّرناه أخيرًا يَصلحُ أن يصرفَ زمنَ الخنانِ إلى الخيرِ والسّعَة أيضًا، إلا أنّ ما أنشده الأصمعيّ ورواه يَدلُّ على خِلافه".

وبعدُ، فأينَ وصفُ "المعروفِ" لهذا الزمنِ الغامضِ، الذي بُنيَ على بيتٍ من الشّعرِ، مِن كلِّ هذا الاضطرابِ؟! وهل يَجوزُ أنْ يَتوشَّح بالمعرفَة بعدَ ذلك؟

وأمّا النموذجُ الثالثُ فيتعلّقُ بالمكانِ، ونقِفُ فيهِ على" المَواشِلِ والمَغاسِلِ".

جاء في الجمهرة: " والمَواشل: مواضعُ تقربُ من اليمامةِ لا أدري ما صحّتها؛ فأما المَغاسلُ فمواضعُ هناكَ معروفةٌ، قد جاءتْ في الشعرِ الفصيحِ". ثم جاءَ ابنُ سِيدةَ فأسبغَ على "المواشلِ" المعرفةَ؛ على الرّغم من أنه يَنقلُ كلامَ ابنِ دُرَيدٍ؛ إذ يَقولُ[١٠٦]:"والْمواشِلُ مَواضِعُ معْروفَةٌ من اليَمامَةِ، قال ابن دُرَيْدٍ ما أدْري ما حَقِيقَتُه". ثم تظهر عند الزمخشري (ت٤٦٧هـ) خِلوًا من تردّد ابن دريد، فيسجّل في "المياه والأمكنة والجبال"[١٠٧]: "المواشل: مواضع معروفة من اليمامة". وتبعه البَكريّ(ت٤٨٧هـ) في "معجم ما استعجم"، وحقّق ضبطه[١٠٨]: "المَواشل بفتح أوله وبالشين معجمة على وزن

مفاعل مواضع مَعروفة تقرب من اليمامة". وذكر اللسان معرفتها[١٠٩]، أمّا الفيروز فذكر أنها مواضعُ، وانتزعَ منها وصف المعرفة[١١٠]، ثم أعادها الزَّبيدي في التاج كرَّة أخرى[١١١].

ولا نخلُص من هذا إلى شيءٍ، وهل المواشل، موضعٌ، أم مواضعُ، أو مكانٌ يصلحُ للسُّكنى، أم هي أوديةٌ ومَسايلُ، فضلا عن تحديدِها من اليمامة؟ وجلّ المسألة أنّ كلاً منهم ينقل عن الآخر، دون أنْ يبذلَ في سبيلِ ذلك شيئًا.

أمّا رَديفُها "المغاسلُ" التي ذكرَ ابن دُريدٍ أنها مواضعُ معروفة جاءتْ في الشعرِ الفصيح، فإذا تقصّينا هذا الكلامَ وجدنا ابنَ دُرَيدٍ نفسَه يقولُ في مَوطنٍ آخرَ مِن الجَمهَرة[١١٢]: " والمَغاسلُ: أوديةٌ قريبة من اليمامَةِ، واحدُها مَغْسَل، بفتح الميم. ثم يقولُ عمّا قليلٍ: والمَغاسلُ: مواضعُ معروفةٌ". وهذا سياقٌ يدل على أنهما مكانان لا مكانٌ واحدٌ. ولعلَ هذا أعقبَ الخلطَ عندَ ابنِ سيدةَ وغيرِه؛ إذ يقولُ:" والمغاسلُ: مواضعُ معروفةٌ. وقيلَ: هي أوديةٌ قِبَل اليمامة، قال لبيد[١١٣]:

فقد تَرتعي سَبْتًا وأهلكِ حِيرةً مَحلَّ المُلوك نُقْدةً فالمَغاسِلاَ

وقال ابن منظور[١١٤]:" والمَغاسلُ مواضع معروفة وقيل هي أَوْدِية قِبَل اليمامة ". وتبعه صاحب التاج[١١٥].

وأما ياقوت في "معجم البلدان"، فذكر أنها أوديةٌ باليمامةِ، وحقّقَ ضبطَها:" المُغاسِل بالضَمِّ وكسرِ السينِ المهملة"، وهذا ما لم يَذكرُه غيرُه[١١٦]. ثم لا يلبثُ أنْ يقولُ[١١٧]:" المَغْسلُ بالفتحِ ثم السكونِ اسمُ المكانِ من غسَلَ يغسلُ فهو مَغسِل بكسرِ السينِ، واحدةُ المغاسلِ، وهي أوديةٌ قريبةٌ من اليمامةِ"، وهذا اضطرابُ بيّنٌ، سواءً أكانا موضعًا أو موضعين. والفيروز يحزم أمره[١١٨]، فيقرِّر أنّ المَغاسلَ: أودِيَةٌ باليَمامَةِ، دونَ زيادةٍ. وعلى الرغمِ ممّا قالَه ابنُ دريدٍ أنها جاءتْ في الشعرِ الفصيحِ، فلم أقعْ عليها- على كثرةِ البحثِ - عندَ غيرِ لَبيدٍ.

وليت شِعري، فلا المواشلَ عرفنا، ولا المغاسلَ تبينّا، وكلُّ ما حَشدَتْه تلك المعجماتُ، زادَتنا بهما جَهالة.

وهذه نماذجُ ثلاثةٌ، بيّنتَ ليسَ التّلبيسَ في مَسألةِ المَعروفِ والمُنكرِ وحَسْبُ، بل حاجَةَ كثيرٍ من معجماتِنا الشّديدةَ، إلى التحقيقِ، والوقوفِ على اللفظ الذي تتصدّى له، ولا نجاوز الحقيقة إذا قلنا: إنّ الكثرة الكاثرة ممّا وُسِمَ بالمعروف، يحتاج كلّ منه إلى بحثٍ مستقلّ لتتبّعه وتحديدِه، وبيانِ ما وقعَ فيه من الاضطِراب.

ثانيًا: المحدثونَ وتقنيةُ "المعروفِ":

لا بدَّ من الكلامِ على جهودِ المحدثينَ في موضوعِ هذا البحثِ حتّى تستديرَ دائرتُه، وتَستبينَ هذه التقنيةُ فيما آلتْ إليه تلك الجهود من هذا الميدانِ. ولقد استقصيتُ هذا النمطَ من تقنيةِ التعريفِ في عشرةٍ من المعجماتِ الحديثةِ، خمسةٍ منها، استقصيتُ ما فيها استقصاءً تامًّا، وأخرى تخيرتً منها فصولاً، ومَوادَّ. أمّا التي استقصيتُها فهي: تُكملَة المعاجم العربيّة" لـ رينهارت دُوزي (ت١٨٨٣هـ)"[١١٩]، و"المعجم الوسيط"[١٢٠]، و"معجم اللغة العربيّة المعاصرة" لـ"أحمد مختار عمر (ت٢٠٠٣)"[١٢١]، و"الرائد" لـ جبران مسعود"[١٢٢]. و"معجم الغني" لـ"عبد الغني أبو العزم"[١٢٣]. أمّا الخمسة الأخرى: فـ"محيط المحيط" لبطرس البستانيّ (١٨٨٣م)"[١٢٤]، و"أقرب الموارد" لسعيد الشرتوني (ت١٩١٢م)"[١٢٥]، و"المنجد" للويس معلوف (ت١٩٤٦م)"[١٢٦]، "ومتن اللغة" لأحمد رضا (ت١٩٥٣هـ)"[١٢٧]. إضافة إلى "المعجم الكبير" الصادر عن مجمع اللغة العربية في القاهرة"[١٢٨]. تلك عشرةٌ تخيرتها ممثلةً لرصدِ حالِ هذه التقنيةِ عندَ المحدثين.

أمّا تَكملةُ المعاجمِ العربيةِ فقد قاربَ ما جاءَ فيها من هذا النمطِ من التعريفِ(٤٠) مرةً. وتنوّع بين الصناعاتِ والمهن والنباتات والحيوانات؛ نحو[١٢٩]:

حِمَّص: نوع من الحبوب معروف". وحَمَّة: طائر بري معروف[١٣٠]". و"شَبُّوط: ضرب من الحوت معروف بالمشرق[١٣١]".

أمّا المعجمُ الوسيطُ فقد وَردَ منه (١٢)، نحو:" (سُريج) حداد معروف تنسب إليه السيوف السريجية[١٣٢]. ومنها: (السوس) نبات عشبي مخشوشب طويل الجذور تسحق جذوره كما يصنع منها شراب معروف بعرق السوس[١٣٣]. ومثله: الفيروز: حجر كريم غير شفاف معروف بلونه الأزرق[١٣٤].

أمّا "معجم اللغة العربية المعاصرة" فقد تكرّر فيه(٢٠) مرّة تقريبًا. على الرغم من أن المؤلف أعلن في مقدمته عن الأمور التي التزمها وراعاها في مصنّفه، ومنها[١٣٥]:" عدم استعمال التعريفات العامة، مثل: نوع من النبات، شجر، حيوان معروف.. إلخ.". غير أننا نجد فيه، على سبيل المثال: أبو قِرْدان: طائر أبيض طويل الساقين أسودهما، منقاره طويل... معروف بمصر"[١٣٦]. وهو يفترض على هذا أن الطائر المذكور يعيش على الساحل كالنوارس، وفي الصحراء كالصقور، وفي الجبال، وفي الواحات،... وليس هذا دقيقًا. ومثله: بوريّ نوع من السَّمك العظميّ، معروف في مصر[١٣٧]. ومثله: خبيص: نوع معمول من التمر والسمن، حلواء معروف. ومثله: عِرْقسُوس شراب معروف يصنع من مسحوق جذور السُّوس[١٣٨]. وكلّها ألفاظ عامّة، تفتقر إلى التحديد، والتخصيص، فضلاً عن سائر محددّاتها.

أمّا معجم "الرائد"، فقد تكرّرت فيه(١٤) مرة، نحو:" أزدَرخْت. شجر معروف بـ الزنزلخت، يتخذ للزينة بخاصة[١٣٩]."، و" فستق: شجر لذيذ الثمر... ثمره معروف[١٤٠]". و" دَبكة: رقصة شعبية معروفة في بعض البلاد العربية[١٤١]".

أمّا "معجم الغني"[١٤٢] فقد استخدم الـ"معروف" أكثر من (٤٠) مرة، وهي بعامة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأوسعُ تعريفُ للمدخل بما يشبهُ المثالَ، نحو: "إِبَاءٌ،:هُوَ مَعْـرُوفٌ بِإِبَائِـهِ، مَعْرُوفٌ بعِزَّةِ نَفسِهِ"[١٤٣]. إِمْعـانٌ:.."مَعْـروفٌ بِإِمْعـانِ النَّظَـرِ"[١٤٤]. أَناقَـةٌ: "شـابٌّ مَعْـروفٌ بِأَناقَتِهِ"[١٤٥]، وقد أكثر من هذا القسم.

والقسم الثاني الأقل، وهو كما رأينا في المعجمات السالفة وقد جـاء في أربعـة مداخل. نحو: "أَرْزٌ: شَجَرٌ حَرَجِيٌّ مِنْ فَصِيلَةِ الصَّنَوْبَرِيَّاتِ، مَعْرُوفٌ بِحَجْمِـهِ وَصَـلابَةِ خَشَبِهِ وَجَوْدَتِهِ"[١٤٦]. وزِئْبَقٌ: عُنْصُرٌ فِضِّيٌّ سائِلٌ لامِعٌ،... وَهُوَ مَعْروفٌ مُنْذُ القِدَمِ"[١٤٧]. و" سَرْوٌ: شَجَرٌ مِنْ فَصِيلَةِ الصَّنَوْبَرِيَّاتِ، مَعْرُوفٌ مُنْذُ القِدَمِ"[١٤٨]. و"سُوسٌ نَباتٌ مِنْ فَصِيلَةِ القَرْنِيَّاتِ،... وَيُصْنَعُ مِنْها شَرابٌ مَعْروفٌ بِعِرْقِ السُّوسِ.

ويمكننا أن نسجّلَ ههنا عدة دِلالاتٍ أو ملحوظـاتٍ دالّـة في اسـتخدامِ هـؤلاء المحدثينَ لهذه التقنية. وأبرزهـا أنهـا هبطَـت إلى درجـةِ القلّـة، وإن لم تختـفِ. والدالّـة الأخرى في طبيعةِ استخدامِها، فهي تاليةٌ، للتعريفِ، وليست مبهمةً منبتّة، كما وجدنا في المعجمات القديمة، وإن عابها العموم، وعدم التوضيح. والثالثة أنها ليست شـاملة كما رأينا في المعجمات السالفة، وإنما محصورة في أشياء مخصوصة، كالأطعمةِ والألبسةِ والمهنِ والحيواناتِ والنباتاتِ. ومن الملحوظات البارزةِ اختفاءُ علاقَة المعـروفِ باللغـةِ تمامًا.

أمّا الملحوظة التي تخصّ معجمَ "الغني" فهي أنّ معجمًا شهيرًا كهذا المعجم، كـان أولى به أن يتجنبَ ما استقلَّ به من نمط التعريـفِ:"معروف بإبائِـه، ومعـروف بأناقتِـه، ونحو ذلك من الأساليب القريبة من الترجمة، ويستخدم بدلاً منه عبـارةً محـدّدة، نحـو: ظاهرُ الإباءِ، وبيّنَ الأناقةِ، ولعلّها أدقُّ، وأصدقُ. إذ جَعْلُ المعرفةِ لازمَةً لهذه الصفاتِ يفتقرُ إلى تحديدِ وجه هذه المعرفةِ، إنْ وُجدَت، فليسَ كلّ أنيقٍ معروفًا بأناقته، وسائرُها مثل ذلك.

أمّا المعجمات الخمسةُ الأخرى فمستهلّها "مُحيط المحيط"، ولا يفوت قارئُه أنّه يتنكّبُ استخدامَ "معروف" قَصدًا على ما يبدو، وقد وَقعتْ فيه على قلّة، نحو: وبُرْج الأسد معروف"[149]، و"الجريّ: المعروف بالقرموط"[150]، و"الشاه كار: الشجر المعروف بالكستنة"[151]. على أن الكثرةَ باديةٌ في استخدامه الفعل المبني للمجهول يُعرَف"[152]. وهو لا يختلف عن معروف، فيما خلا الصيغة.

أمّا "أقربُ الموارد" لسعيد الشرتوني فقد حَفَلَ بهذا النمطِ من التعريفِ، ولعلّه معَ أحمد رشيد رضا -كما سنرى- الفَريدانِ اللذانِ استخدما هذه التقنيةَ استخدامَ القدماءِ. وعلى الرغم من أخْذِ الشرتوني على اللغويينَ تساهلَهم في مسألةِ التعريفِ الدَّوْري، وقُصورَهم في تعريفِ النبات والحيوان[153]، فقد قصَّر - في هذا الباب- بأكثر ممّا أخذ عليهم، ونبذَ مقاصدَه، وجاءَ بتعريفاتٍ هي إلى الَّلبس أقرب. ولا تخطئ عين القارئ العشرات من "المعروف" دون تعليق. ولا نرى هذا النمط عند المحدثين ما خلا الشّرتوني، وأحمد رِضا، ومن ذلك قوله: "الأجاص: شجره معروف"، و"البرص: داء معروف"، و"الثميلة موضع الفرش من الحائط، معروف عند عوام بلادنا باليوك"، وإذا ضربنا صفحًا عن "الثميلة" و"اليوك"، فإننا لا ندري مقصوده بـ"عوام بلادنا" التي يكررها كثيرًا. و"صينين: عقير معروف"، و" والزّلابيَة: حلواء معروفة"، ومثل هذا شائع عنده[154].

أما "مَتن اللغة" لـ "أحمد رشيد رضا" فلعلّه - كما ذُكر- ينافسُ "أقربَ الموارد" في كثرة ذكرِه لـ"المعروف"، وربما فاقَه. إذ أكثرَ من استخدامِه كثرةً لافتةً، وقد أحصيتُ له العشراتِ منه، نحو: "أرزَن: الحبّ المعروف بالذرة[155]"، و"الكَربون المَعروف بغاز الفَحْم"[156]، و"الرّصاص المَعروف بالمرداسنغ[157]" و"أقافيا: شجر برّي يُعرف بالأكاسيا[158]" و"اليحمور: المعروف باسم الهيموجلوبين"[159].

وأمّا المنجِدُ فقد جاءت هذه التقنيةُ قليلةً فيه، نحو: الدُّوار: المعروف عند العامة بالدوخة[١٦٠]. أرشيمندريت: صاحب رتبة كنسية معروفة[١٦١]، الزيتون: زراعته معروفة منذ أبعد العصور[١٦٢]، الشاويش: رتبة عسكرية معروفة[١٦٣]. على أنّ الكثرةَ عندَه هي في الفِعل المبنيّ للمجهول، نحو:"التّبغ: ما يُعرَف بالتّتن"[١٦٤]، و"الحبَق: وتُعرَف بالريحان"[١٦٥]، و"الدوم: ويُعرف بشجر المقل"[١٦٦].

وأمّا معجم مجمع اللغة العربية في القاهرة "المعجم الكبير"، فقد تجنَّبَ الـ"معروف" تجنبًا بيّنًا، ومن المرّاتِ القلائلِ التي ذَكر فيها المعروفَ:"الأزاذ: معروفٌ في العراق باسم الزّهدي"[١٦٧]، و"الأسل: المعروف بمصر بالسّمار"[١٦٨]. و"بقلة الأنصار: من الخضراوات المعروفة"[١٦٩] ولكنه رضي بما دون ذلك من يُعرَف وعُرِف"[١٧٠].

وإذا وقفنا على السِّماتِ العامّةِ للمعجماتِ العربيّةِ الحديثةِ في استِخدامِ هذه التقنية، من خلالِ الطائفةِ التي تمّ اختيارُها، أمكننا أن نقولَ أنّ المعجميّينَ المحدثينَ يَتجنبونها بعامّة؛ لأنهم يسعَونَ إلى تلافي هذه التقنيةِ، التي تُشكّلُ هَنَةً بيّنةً في المعجماتِ التراثيّة، وإنْ وجدنا مُعجمَيْ "أقربِ الموارد"، و" ومَتن اللغةِ يُعيدانها جَذَعَةً"، لكنّ هذا لا يُشكِّلُ نمطًا سائِرًا. على أنّنا وجدناهم يَرتضونَ صِيغًا أخرى في الشّمول والعموميّةِ في هذه التقنيةِ، كالأفعالِ المبنيّة للمجهول.

وخلاصةُ القولِ أنّ المعجماتِ المحدَثة – ممّا قرأتُ- لم تبرَأ من هذه الهَنَةِ، ولعلّ من المؤكّدِ أنّ غيرَها من مُعجمات المحدثين، لم تَستبعدْ هذه التقنية أيضًا.

خاتمة

وبعدُ، فقد وقفَ البحثُ على حَقِيقةِ تَقنِيَةٍ مِن تَقنِياتِ التّعريفِ البارزةِ التي استَخدَمَها المعجَميّونَ العربُ، ألا وهي" وهو مَعروف"، وما يُفضي إليها من الأساليبِ. وقد بَيّن أنها تقنيةٌ إحاليّةٌ، تقومُ على مَرجعيّةِ المعرفَةِ والثّقافَةِ. وَجلّى وَجهَها تجليةً تُقدِّمُ للباحثِ حَقيقةَ هذه التقنيةِ في طائفةٍ من أهمِّ المعجماتِ العَربيّةِ، بعيدًا من الظنّ، والتّخمينِ، قائمةً على الإحصاءِ والتّحليلِ. وانتهى البحثُ في هذه الصفحاتِ القَليلاتِ، بعدَ مَسحِ عَشراتِ الآلافِ مِن المداخلِ، وما يَتصلُ بها إلى رَصدِ اتجاهِ هذه التّقنيةِ، كمًّا ونوعًا، وأوجهِ التّعبيرِ بها.

إنّ هذه التّقنِيةَ مِن التعريفِ تَقنِيةٌ إحاليّةٌ تَقومُ في جُلِّها على اختزالِ الزّمانِ والمكانِ - فَضلاً عن البَشرِ - في شَريحةٍ واحِدَةٍ. وهي وما يُفضي إليها هَنَةٌ، من هَنواتِ تَقنياتِ التّعريفِ، سَواءً لدى القدماءِ أو المحدثِينَ، ويَنبغي التّخلّصُ منها ونبذُها، وحَصرُها في أضيقِ حُدودِها، ما لم تَستَندْ إلى محدّداتها الرّئيسةِ: الزّمانِ، والمكانِ، والإنسانِ. فَضلاً عن المحدّداتِ الأخرى؛ كالجِنسِ والنوعِ، وسائرِ الموضّحاتِ، فالـ"معروفُ" وَصْفٌ لا يمكنُ أنْ يَكونَ مُنبَتًّا من سِياقهِ المعرفيِّ القائمِ على الأقانِيمِ المذكُورةِ، وغَيرُ ذلِكَ ضَربٌ مِن الالتباسِ والتلبيسِ.

إنّ الأصلَ فيمن يَتصدّى للتأليفِ المعجَميِّ أنْ يَعمدَ إلى خِدمةِ القارئِ، وتَوضيحِ، كلِّ مَداخلِهِ، وما يَتصلُ بها. فإذا أخلَّ بها، وكانَ كلُّ همِّه جمعَ الألفاظِ، وإلقاءَها بلا رَويّةٍ ولا تمحيصٍ، فقد أخلَّ بأصلِ عملِه، والهدفِ الذي يَبتغيهِ قارئُه، أيًّا كانَ السببُ.

ولقد بيّنَ البحثُ عَشوائيّةَ استِخدامِ القُدماءِ لهذه التّقنيةِ مِن التعريفِ، لافتقارِها الأسسَ البيّنةَ لبنائِها. ولعلّ الإحصاءاتِ كَشَفت عن هذه العَشوائيّةِ، وإنْ سَجّل

البحثُ بعضَ المعالِمِ المنهَجيّةِ، التي وَسَمتْ جُهدَ المعجميّين، وسيّجتْ جُهودَهم في سَبيلِ استِخدامِ هذه التّقنِيَةِ.

ومن المسلّماتِ -كما ذُكِرَ- أنّ التعريفَ وَتقنياتِه لا يَستوعبُه مَنهجٌ واحدٌ، ولا محدِّداتٌ مِعياريَّةٌ مَعروفةٌ، إلا ما يَرتئِيه المعرِّفُ مِن توضيحٍ وكَشفٍ لما يَشرعُ في تَعريفِه، وله أنْ يَنتقيَ من أدواتِه ما يَنهضُ به إلى هذا الغَرضِ. ومِن هنا نجدُ النقدَ يَنجمُ من طبيعةِ بناءِ التعريفِ لا من فُقدانِ المنهجِ.

ويمكِنُنا أنْ نُلخِّصَ أبرزَ نتائجِ البحثِ في المحاورِ الآتيةِ:

- إنَّ المنهجَ الذي يُبنى عليه المُعجم له دَورٌ بيّنٌ في نِسبةِ وُرودِ هذه التّقنيةِ، كَثرةً وقلَّةً.
- لقد سَجّلَ البَحثُ أعلى نِسَبِ هذهِ التّقنيةِ مِن التعريفِ عندَ المعجميينَ القدماءِ في العَلَمِ المَكانيِّ، ثم في أسماءِ النباتِ والحَيَوان؛ ذلك أنّ هذه الأقانيمَ الثلاثةَ – مَظنَّةَ المعرفَةِ- كانت تمثّلُ قيمةً مُعتَبرة في حياةِ العربيِّ.
- زيادة نِسبةِ ما وَسَمَه البحثُ بـ"المبهَماتِ" أو التّعريفاتِ المنبتَّةِ، في المعجمات المتقدِّمَةِ، لِثقَةِ أصحابِها بالمخزونِ المعرفيِّ لدى القرّاءِ، إبّانَ تأليفِها.
- كَشفَ البحثُ عن ضَعفِ عَلاقةِ هذهِ التّقنيةِ بالمضامينِ اللّغويةِ؛ ذلكَ أنّ المعروفَ في أصلِ استخدامِه مَبنيٌّ على الدِّلالةِ.
- خلَص البحثُ إلى عِدَّة مَعالمَ مَنهجيةٍ يمكن أنْ تؤطِّرَ هذهِ التّقنيةَ مِن التعريفِ عندَ القدماءِ، نحوَ:

إساغَةِ المعرفَةِ القائِمَةِ على الشكِّ، وَنَقْلِ المعرفَةِ عن الّليثِ وغَيرِهِ، والاقتصارِ على صِيغَةِ الإفرادِ تَقريبًا، واستِنساخِ المعرفةِ وانتقالِها دونَ تحَقيقٍ، ونُدرةِ استِخدام محدّداتِ المعرفَةِ، واستِقلالِ مَضامينَ "غيرِ المعروفِ" المعادلِ الشّكليِّ للمَعروفِ.

أمّا فيما يتعلّقُ بجهودِ المُحدَثينَ، فقد خَلصَ البحثُ إلى النتائجِ الآتيةِ:

- قَلّةِ هذا النّمطِ من التّعريفِ، في مؤلّفاتهم بعامَّةٍ، فيما خلا ما رأينا عندَ الشّرتونيّ في "أقربِ الموارِدِ"، وأحمد رشيد رضا في "مَتن اللّغة".
- أنّ هذهِ التّقنيةَ في استِخدامِهم تأتي مُوضِّحةً، تالِيَةً للمَدخَلِ، لا مُنبتّةً.
- أنها تنحصرُ عندهم في أبوابٍ مُعيّنةٍ.
- استخدامِ بَعضِهم للأفعالِ المبنيِّةِ للمجهولِ، بدلاً من العِبارَةِ المعهُودةِ.
- خَلصَ البحثُ بعامّة إلى أنّ أصلَ هذهِ الإشكاليّةِ - في كثيرٍ ممّا يُستَخدَمُ من هذه التّقنيةِ- هو تحديدُ القارئِ الذي يُكتَبُ له. وهي إشكاليّة تتبدّى جليّةً في كلِّ المقدّماتِ، ومِن ثمّ يَنجُم منها الكثيرُ من الإشكاليّاتِ، وليسَ في هذهِ التّقنيةِ وَحدَها.

وبعدُ، لقد كَشَف البحثُ أنّ كلَّ المعجَماتِ –محلّ البحثِ- قديمَها وحديثَها وقعت في الإشكاليّةِ نفسِها، على اختلافٍ في التفصيلاتِ، كمًّا ومضمونًا. وهذا يؤكّدُ أنّ هذه الإشكاليةَ من تَقنيةِ التّعريفِ سارَت عبرَ هذا الزّمنِ، دُونَ أنْ تَتلاشى.

والبحثُ بَعْدَ دَعوتِهِ إلى نَبْذِ هذه التّقنيةِ -إلاّ في حُدودِها المُستبينَةِ- يَدعو إلى استثمارِ كُلِّ النّظرياتِ المعجَميّةِ الحديثَةِ، وما أفضَتْ إليه النظريّاتُ الدّلاليةُ واللّسانية في خِدمَةِ تَقنياتِ التّعريفِ، تلكَ التقنياتُ التي تَقبعُ على ثُغورِ كلِّ عَمَلٍ مُعجميٍّ، فتَصِمُهُ بالفَشَلِ، أو تَسِمُهُ بالنُّجحِ وبُلوغِ الغَايَةِ.

الهوامش والتعليقات:

١- ينظر: المعتوق، أحمد، ٢٠.

٢- ينظر: الجيلالي، حلام، تقنيات التعريف في المعاجم المعاصرة، ٣٧، وما بعدها.

٣- ينظر: تفصيل هذه المفاهيم في المرجع السابق، وفي: الحمزاوي رشاد، المعجم العربي إشكاليات ومقاربات، ١٨٥، وما بعدها. و: العواضي حميد، المعاجم اللغوية المعاصرة، ٢٣٠. و: النصراوي، الحبيب، التعريف القاموسي، ١٠١، وما بعدها.

٤- ينظر: الجيلالي، ٥٠.

٥- محمود، زكي نجيب، المنطق الوضعي، ١/ ١٤٢.

٦- ينظر: المعاجم اللغوية المعاصرة، ١٨٣.

٧- ومن المؤلفات التي حاولت استدراك جوانب من هذا الخلل: الاستدراك على العين لابن دريد(ت٣٢١هـ)، و"كسر الناموس في نقد القاموس" لفخر الإسلام عبدالله الحسني الزبيدي (ت٩٧٣هـ)، وبهجة النفوس في المحاكمة بين الصحاح والقاموس لبدر الدين القرافي(ت١٠٠٨هـ). ينظر: الجيلالي، ٦٩.

٨- الجيلالي، ٦٩.

٩- نفسه، ٦٩-٧٣.

١٠- ينظر: تقنيات التعريف، ١١٦.

١١- ينظر: الفهري، عبد القادر الفاسي، المعجم العربي"نماذج تحليلية جديدة"، ٢٠.

١٢- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، معجم العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الهلال.

١٣- ابن دريد، أبو بكر، محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي بعلبكي، ط١، ١٩٨٧م.

١٤- الأزهري، أبو منصور، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والنشر.

١٥- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصِّحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، مصر.

١٦- ابن سيدة، علي بن إسماعيل، المخصّص، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، بيروت.

١٧- الزمخشري، أبو القاسم، محمود بن عمر، أساس البلاغة، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٦م.

١٨- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

١٩- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.

٢٠- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، وزارة الإعلام، الكويت.

٢١- الجمهرة، المقدمة١/ :٤.

٢٢- نفسه، ١/ ٤.

٢٣- تنظر مقدمته.

٢٤- ومنه: الصنّ، والقفّ، واللخلخة، والقرقور، والفأفأة، والخوخ، والبشر، والسيج، والبرج، والبردي، والبريد، والدرب، والأردبّ، والدرب، والدلب، وشيب السوط، والبصل، والعُنّاب، والباقلاء، والتور، والزفت، والكتان، والسحج، والخُرج، والجذاف، والجرز.

٢٥- والباقي: القِنب والقُنّب، الجيم والقاف (باب الجيم والفاء)، والسُّقم والسَّقم، والفهْم والفهَم، والمارد والمريد، الهودج والفودج، دفف وذفف، والبعْر والبعَر.

٢٦- و"مثع، "العسل"، و"الحمارس" و"ها بمعنى خذ" و"السروع"، جبر"، ويَسَنَ" و"الأزيم"، "تلآن"، "الوتر".

٢٧- الصحاح: (شيب).

٢٨- و" الكتان، و"الكسرة"، الجلّة، و"الدرّة".

٢٩- و"الفخ" و"نرجس"، و"الفرانق"، و"الياسمين".

٣٠- و"الأيارجة، والأسفاناخ، والفرند، والنرد، والفانيد، والببر، والجوز، ودروز الثوب، واللوزينج، والجاموس، والأجاص، والقيروطي، والجلبّان، والزئبق، والفستق، والقرطق، والكعك، والجرّة، البرنيّ".

٣١- و "الشيب"، و"حرّ سخت لخت" و"الحقة" و"الدرة".

٣٢- و "ضحك" و "تالآن"، و"أثابه واعطاه"، و"الصوان"، و"الضيطان والضيكان"، و"رهنته وأرهنته"

٣٣- ومنه:"الجرز، الجاروس، الجاموس، والنرجس، وسجستان، والمغناطيس، والخَزفي، والإبريق، والسرقين، والفلفل، والبمّ، والكتان.

٣٤- تاج العروس: (بود).

٣٥- نفسه: (بتن).

٣٦- نفسه: (جدف).

٣٧- نفسه: (نمي).

٣٨- نفسه: (سعد).

٣٩- نفسه: (كلب).

٤٠- العين: (عشر).

٤١- جمهرة اللغة: "سدد"

٤٢- نفسه: "ثرثر".

٤٣- نفسه: "عقو".

٤٤- نفسه:" بسل".

٤٥- نفسه: "قسم".

٤٦- لسان العرب:"غمد".

٤٧- نفسه: " بذر".

٤٨- ينظر على سبيل المثال أيضًا في "اللسان": "إراب" في مادة "أرب"، و"الخلصاء" في "خلص". و"البروق" في "برق". و"دارة مأسل" في "أسل. و"الخندم" في "خندم". و"الدوم" في "دوم". و"الشبرم" في شبرم". و"أود" في "أود"، و"أبنا عيان" في "عين". وينظر مثل ذلك في "القاموس المحيط": نحو: "عذراء" في "عذر"، و"المحكم": "غمدان" و"بذر" و"إراب"، و"ذات النهق"، و"أود". و"التاج": في "السلجم، و"برقة شماء"، "وقتائدة"، "وعاذ"، و"أود"، و"هجر"، و"القصيم"، و"عنيس"، و"قريم".

٤٩- والليث هو: الليث بن المظفر بن نصر على ما ذكر الأزهري، وهو على ما ذكر الفيروزآبادي ابن نصر ابن سيّار الخراساني، صاحبَ الخليل، وينسب إليه أخذه أصول الكتاب "العين" عنه، وكان عالمًا بالشعر، والغريب والنحو.. ينظر: الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق: محمد المصري، ٥٦. والسيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة، في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: مصطفى عطا، ٢/ ٢٧٥.

٥٠- تهذيب اللغة: "حسد".

٥١- كلّ منها في مادته.

٥٢- باستثناء أساس البلاغة، والصحاح، والقاموس المحيط.

٥٣- جمهرة اللغة: "دنن"

٥٤- نفسه: "برغ".

٥٥- تهذيب اللغة: "وحد".

٥٦- نفسه: "خوخ".

٥٧- اللسان: "عند".

٥٨- نفسه: "رسس".

٥٩- الجمهرة: "بقن".

٦٠- نفسه: "سقم".

٦١- تهذيب اللغة: توخ" و"اللسان"، والتاج"..

٦٢- التاج: "أجر"

٦٣- نفسه: "صون".

٦٤- العين: "بغل".

٦٥- الجمهرة: "رطي".

٦٦- نفسه: "بكن".

٦٧- اللسان: "عين".

٦٨- نفسه: "حصص".

٦٩- التاج: "نسر."

٧٠- التاج: "هثرم".

٧١- الصحاح: "حدث".

٧٢- اللسان: "حدث".

٧٣- التاج: "حدث".

٧٤- تهذيب اللغة(هذب).

٧٥- نفسه: (كظم)، وتاج العروس.

٧٦- نفسه: (كبا)، و(وكب) في اللسان، والتاج.

٧٧- تهذيب اللغة: (قل)، واللسان، والتاجك (قلل).

٧٨- ينظر على سبيل المثال: "تهذيب اللغة": النصيع(نصع)، اللخج (لخج)، الموق والماق(مأق). و"المحكم": الطلح"ح ط ن"، واق (ق أ و)، الغينة(غ ي ن). واللسان: أقرب قوارب(قرب)، بناء "فعلل" (جدح)، اسبكرت عينه(سبكر). والتاج: زاد زيدانً (شنأ)، يهب بالضم(هب)، الفلج(فلج)، تذكير الكف (كعف).

٧٩- المحكم، اللسان: حذف نون التثنية(خ ذ و)، المحكـم: يـا أيهـا الرجـلَ (الهمـزة واليـاء)، التـاج: كذبكَ الحجَّ (كذب)،

٨٠- ينظر: المحكم: الردف (ح د)، واللسان (حدد).

٨١- ينظر: المحكم: (ت ل ف). اللسان (فتل).

٨٢- ينظر: التاج زهرة في (زهر).

٨٣- ينظر: مقدمة "قواعد المطارحة في النحو"، إبن إياز البغدادي، تحقيق: علـي الحمـد، وياسـين أبـو الهيجاء، وشريف النجار، دار الأمل، إربد، الأردن، ط١، ٢٠١٠م.

٨٤- البغدادي، قدامة ين جعفـر الكاتـب، جـواهر الألفـاظ، البغـدادي، تحقيـق محمـد محـي الـدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٩٧٩م، ٣٧٦.

٨٥- أساس البلاغة: (طرح).

٨٦- الصحاح: (طرح).

٨٧- الحميري، نشوان بن سعيد (ت٥٧٣هـ)شمس العلوم ودواء داء العـرب مـن الكلـوم، تحقيـق حسين العمري وآخرين، دار الفكـر المعاصـر، بـيروت، ودار الفكـر، دمشـق، ط١، ١٩٩٩م، ٧/ ٤١٠٢.

٨٨- اللسان: "طرح".

٨٩- القاموس المحيط: "طرح".

٩٠- تاج العروس:" طرح".

٩١- ينظر: الشرتوني، سعيد، ذيل أقرب الموارد، "طرح". ودوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربيـة، ترجمة محمد سليم النعيمي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٢م: ٧/ ٣١. والمعجم الوسيط (طرح).

٩٢- العين: "خنن".

٩٣- الجمهرة: "خنن".

٩٤- الصحاح: "خنن".

٩٥- المحكم: "خ ن".

٩٦- المخصص، ١/ ١٠٥.

٩٧- لسان العرب: "خنن".

٩٨- القاموس: "خنن".

٩٩- تاج العروس: "خنن"

١٠٠- الصولي، أبو بكر، محمد بن يحيى، أدب الكتاب، تحقيق: محمد بهجة الأثري، المكتبة السلفية، ١٣٤١هـ، ٤٧.

١٠١- المرزوقي، أبو علي، أحمد بن محمد، الأمالي، تحقيق: يحيى الجبوري، ١٩٩٥، ١٥٧.

١٠٢- الأصفهاني، أبو الفرج، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢، ٥/ ٩

١٠٣- المسعودي، أبو الحسن على بن الحسين، التنبيه والإشراف، ١/ ١٤٤.

١٠٤- العسكري، أبو هلال، الأوائل، تحقيق: وليد قصاب وزميله، دار العلوم، الرياض، ط١، ١٩٨٠، ١/ ٢١٧.

١٠٥- المحيط في اللغة: "خنن"، والأزمنة والأمكنة: ١/ ٥٠٩.

١٠٦- المحكم: (وشل).

١٠٧- ينظر: الزمخشري، الأمكنة والمياه والجبال للزمخشري، تحقيق إبراهيم السامرائي، النجف: ١٩٦٨م، ٢٦١

١٠٨- البكري، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣، ٤/ ١٢٧٦.

١٠٩- اللسان: "وشل".

١١٠- القاموس المحيط: "وشل".

١١١- تاج العروس: "وشل".

١١٢- الجمهرة: (س غ ل).

١١٣- وفي ديوانه:" فقدِ نرْتَعي سَبتاً ولسنا بجيرةٍ".

١١٤- لسان العرب: (غسل).

١١٥- تاج العروس: (غسل).

١١٦- الحموي، ياقوت، معجم البلدان: الميم والواو، ٥/ ٢١٩.

١١٧- نفسه.

١١٨- القاموس المحيط: (غسل).

١١٩- دوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربية، تعليق محمد النعيمي، جمال الخياط، وزارة الإعـلام العراقية، ط١ ١٩٧٩-٢٠٠٠.

١٢٠- مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، استانبول.

١٢١- عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٨م.

١٢٢- مسعود، جبران، معجم "الرائد"، دار العلم للملايين، ط١، ٢٠٠٣م.

١٢٣- أبو العزم، معجم الغني.

١٢٤- البستاني، بطرس، محيط المحيط، اعتناء محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

١٢٥- الشرتوني، سعيد، أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد، منشورات آيات الله النجفي.

١٢٦- معلوف، لويس، المنجد في اللغة والأعلام.

١٢٧- رضا، أحمد رشيد، معجم متن اللغة، مكتبة الحياة، ١٩٦٠م.

١٢٨- المعجم الكبير، مجمع اللغة العربية، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠م.

١٢٩- نفسه: (حمص).

١٣٠- نفسه: (حمة).

١٣١- نفسه: شبوط. وينظر الألفاظ الآتية، ومداخلها: جوز الزنم، أرجيقن، باهت، حمص، دبّ، سنجة، شبّين، قمقوم، قنطس، كعك، كمكام، منصورية، نيدا، هذيلتة...

١٣٢- مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، استانبول، تركيا، ١٩٨٩م (باب السين).

١٣٣- نفسه: باب السين.

١٣٤- نفسه: باب الفاء. وينظر: "الحدّة"، وحمار الزرد"، و"السيف"، و"الكيس"، "اللواء"و"المصطكا"و"الصاد"، و"المعايرة، و"النسر الطائر".

١٣٥- معجم اللغة العربية المعاصرة، ٢٠.

١٣٦- نفسه: (أبو).

١٣٧- نفسه: (بور).

١٣٨- نفسه: (عرقسوس). وينظر: محجل (حجل)، و"حمار الوحش"، و"خروع"، و" أخصائي، و"أبو فصادة"، و"مصطكا"، و"سبح"، و"كونغ فو"و "النسر الطائر.

١٣٩- معجم الرائد: (ازدرخت).

١٤٠- نفسه: (فستق).

١٤١- نفسه: دبكة". وينظر: ثعلب، دارة، رجرج، رسمان، زغلول، طبرخي، ملوخية.

١٤٢- أبو العزم، عبد الغني، معجم الغني.

١٤٣- معجم الغني: "أبي".

١٤٤- نفسه "معن".

١٤٥- نفسه: "أنق"، وينظر هذا النمط في المداخل الموالية على سبيل المثال: وجه، جهد، برز، دين، خفف، درب، سكن، سمت، سمع، شهر، صدر، ظهر...".

١٤٦- نفسه: "أرز".

١٤٧- نفسه: زئبق.

١٤٨- نفسه: "سرو".

١٤٩- محيط المحيط: (أسد).

١٥٠- نفسه: (جري).

١٥١- نفسه: (شاه كار)، وينظر: و(الإجاص)، و(الأرغنون)، و(الخروع)، و(والطبار).

١٥٢- ينظر على سبيل المثال: (البادروج)، و(الباذنجان)، و(البارسطون)، و(الببغا)، و(البرفير)، و(الباندوري)، و(البنديكستي)، و(البارود)، و(البناء).

١٥٣- أقرب الموارد، المقدمة، ٩.

١٥٤- ينظر على سبيل المثال: الأرز، والمنخر، والبصل، والبلقاء، والبنادوري، داء الثعلب، الثمانية، الصّبير، ضيّات، طبخة، العهد، النحاس، واليونان، والحبة السوداء، الحمر، خبز الغراب، الخدّ، الخرّوب، الخرشوف، الخروع، الربو، الرختم، الرخم، السطل، الشقدف، الشمس، شاه بلوط....

١٥٥- معجم متن اللغة: (أرز).

١٥٦- نفسه: أكر.

١٥٧- نفسه: (أكسيد).

١٥٨- نفسه: (أقافيا).

١٥٩- نفسه: (يحمور). وينظر: على سبيل المثال لا الحصر، على الموالاة:الأردبة، الرز، أكسيد الرصاص الأحمر، وأكسيد الزئبق، آكل النحل، البرّاءة، المبراة، البطيخ، الثور، البقيع، البنيت، الباري والبوري، الترمومتر، الجري، الجمع، الختام، والخنزير، الدجاج، حبينة وأم حبين، الريال، سبرة، السمسم، سفرجل، السليجة، الإسماعيلية، الفنان، الكُرّ، الكمثرى، النعنع....

١٦٠- المنجد: (الدوخة).

١٦١- نفسه: (أرشيمندريت)

١٦٢- نفسه: (الزيتون).

١٦٣- نفسه: (الشاويش)، وينظر: (أرز)، و(دلب)، و(الدوار)، (الزهم)، و(السمنة)، و(السوقاء)، و(الموركس).

١٦٤- نفسه: (التبغ)،

١٦٥- نفسه: (الحبق).

١٦٦- نفسه: نفسه (دوم). وينظر على سبيل المثال: (أسطر الصين)، و(الزنبرك)، و(السرموجة)، و(السانية)، و(المسيعة)، و(الفيلجة)، و(تلابيب)، و(المعجمات)، و(اللولب).

١٦٧- المعجم الكبير: (الأزاذ).

١٦٨- نفسه: (الأسل).

١٦٩- نفسه: (بقلة). وينظر: (أبّة: مدينة).

١٧٠- نفسه: ينظر على سبيل المثال: (أبريم)، و(أترجّ)، و(آذان الشاة)، و(آذان الفأر)، و(آذان الجدي)، و(الأرناؤوط)، و(أشتوم)، و(ثاقبات الأذن).

المراجــــع

- الأزهري، أبو منصور، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السـلام هـارون، الـدار المصـرية للتأليف والنشر.
- الأصفهاني، أبو الفرج، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢.
- ابن إياز البغدادي، قواعد المطارحة في النحو، تحقيق: الحمـد، علـي، وآخـران، دار الأمـل، إربـد، الأردنّ، ط٢، ٢٠١٠م.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصِّحاح، تحقيق: أحمـد عبـد الغفـور عطـار، دار الكتـاب العربـي، مصر.
- البستاني، بطرس، محيط المحيط، اعتناء محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.
- البغدادي، قدامة بن جعفر الكاتـب، جـواهر الألفـاظ، البغـدادي، تحقيـق محمـد محـي الـدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٩٧٩م.
- البكري، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، معجـم مـا اسـتعجم، تحقيـق: مصـطفى السـقا، عـالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ.
- الجيلالي، حلام، تقنيات التعريف في المعاجم المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العـرب، ١٩٩٩م، دمشق.
- الحمـزاوي رشـاد، المعجـم العربـي إشـكاليات ومقاربـات، المؤسسـة الوطنيـة للترجمـة التحقيـق والدراسات، بيت الحكمة، ط١، تونس.
- الحموي، ياقوت، معجم البلدان.
- الحميري، نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء داء العرب من الكلـوم، تحقيـق حسـين العمـري وآخرين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٩م.
- دوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعيمي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٢م.

- رضا، أحمد رشيد، معجم متن اللغة، مكتبة الحياة، ١٩٦٠م.

- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، وزارة الإعلام، الكويت.

- الزَّمَخشري، أبو القاسم، محمود بن عمر، أساس البلاغة، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٦م.

- الأمكنة والمياه والجبال للزمخشري، تحقيق إبراهيم السامرائي، النجف: ١٩٦٨.

- ابن سيدة، علي بن إسماعيل، المخصّص، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، بيروت.

- والسيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة، في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

- الشرتوني، سعيد، أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد، منشورات آيات الله النجفي.

- الشرتوني، سعيد، ذيل أقرب الموارد، مطبعة مُرْسلي اليسوعية، بيروت، ١٨٨٩م.

- الصُّولي، أبو بكر، محمد بن يحيى، أدب الكتاب، تحقيق: محمد بهجة الأثري، المكتبة السلفية، ١٣٤١هـ.

- العسكري، أبو هلال، الأوائل، تحقيق: وليد قصاب وزميله، دار العلوم، الرياض، ط١، ١٩٨٠م.

- عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٨م.

- العواضي حميد، المعاجم اللغوية المعاصرة، مؤسسة العفبف الثقافية، ط١، ١٩٩٩م.

- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، معجم العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الهلال.

- الفهري، عبد القادر الفاسي، المعجم العربي"نماذج تحليلية جديدة"، دار توبقال، الدار البيضاء، ط٣، ١٩٩٣م.

- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.

- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق: محمد المصري، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت، ط١، ١٤٠٧هـ.

- محمود، زكي نجيب، المنطق الوضعي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، ١٩٦٥م.
- المرزوقي، أبو علي، أحمد بن محمد، الأمالي، تحقيق: يحيى الجبوري، ١٩٩٥م.
- مسعود، جبران، معجم "الرائد"، دار العلم للملايين، ط١، ٢٠٠٣م.
- المسعودي، أبو الحسن على بن الحسين، التنبيه والإشراف.
- مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، استانبول، تركيا، ١٩٨٩م.
- المعتوق، أحمد، المعجم اللغوي، المجمع الثقافي، أبو ظبي.
- معلوف، لويس، المنجد في اللغة والأعلام.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
- النصراوي، الحبيب، التعريف القاموسي، مركز النشر الجامعي، تونس، ٢٠٠٩م.
- ابن دريد، أبو بكر، محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي بعلبكي، ط١، ١٩٨٧م.
- المعجم الكبير، مجمع اللغة العربية، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠م.

دوائر الزمن في سيرة " المغزول "
لعبدالعزيز مشري "دراسة نقدية"

د. كوثر محمد القاضي
أستاذ مساعد الأدب الحديث والسعودي
كلية اللغة العربية / جامعة أم القرى

ورد البحث في ١٨/ ٨/ ١٤٣٥هـ وقُبل للنشر في ١/ ١١/ ١٤٣٥هـ

دوائر الزمن في سيرة " المغزول " لعبدالعزيز مشري "دراسة نقدية"

د. كوثر محمد القاضي

ملخص البحث

تعدّ السيرة الذاتية من أكثر فروع السرد متعةً وإثارة لأن الباحث يستطيع أن يجد فيها كثيراً من ألوان السرد المتداخلة، فالمذكرات تتداخل باليومي، والمعتاد يحيل على المدهش الغريب من قصص تثير المتلقي العادي، ويتوق المتخصص للبحث في ثناياها عن تقنيات وأساليب جديدة لا يلبث أن يجدها؛ لأنها ثرية بالتفاصيل والدقائق الصغيرة، كما قد يرتبط فيها التاريخي بالشخصي الحميم.

وتعدّ سيرة عبدالعزيز مشري الروائي والقاص الذي عاش المرض المزمن منذ طفولته، وقضى معظم مراحل حياته ضيفاً دائماً على المستشفيات، من أكثر هذه السير ثراءً وخصوبة؛ فهو يوثّق فيها سيرة روح عليلة، وجسد أنهكه المرض حتى حُمِل مبتور الأطراف إلى قبره، يعاني الوجعين: النفسي قبل الجسدي.

ولا يجد القارئ أكثر إحساساً بالزمن ووطأته من رجل عاش معظم فترات حياته يتنقّل بين المستشفيات، لا يعرف نهاره من ليله، إلا بتبادل المرضين لنوباتهم الليلية والنهارية، والانتظار ديدنه الذي يعيش حياته يراقب دقائقه التي تتحوّل في وعيه إلى ساعاتٍ من القلق من الآتي.

ويأتي هذا البحث بعد قراءة متأنية لجميع أعمال المشري القصصية، حتى تكوّنت لدى الباحثة فكرة كاملة عن "المغزول" هذه السيرة الحياتية الأدبية التي صاغ

زمنها المشري على هيئة جيوب ودوائر، جعلت الباحثة تقترح منهجاً في القراءة مماثلاً لما انتهجه الكاتب، فأخذت تـدور معـه في اسـترجاعاته الزمنيـة حتـى تلتقـي البدايـة بالنهاية، وحتى ترسم تداعيات زمن الغيبوبة والهذيان كلمة النهاية، التي أدركتـه قبـل أن يكمل كتابة سيرته.

Time Circles in " Almaghzoul" Autobiography book by Abdul Aziz Mashri

Dr. Kawthar alqadhi

ABSTRACT

Autobiographies are considered the most exciting and enjoyable branches of narration as the researcher can find in them a number of interlinked narration colors. Memoirs are replete with them as what is taking place daily and what is considered normal stories turn into amazing queer ones that arouse the common receiver. Moreover, the specialized researcher craves to delve into the midst of the novels for spotting new techniques and technologies, which he takes no long time to find as they are rich with details and various aspects of minuteness. Furthermore, at such stories the historical aspects are linked to intimate personal ones.

Furthermore, the autobiography of Abdul Aziz Mashri, the novelist and storyteller, who accustomed to live with illness since childhood, and spent most portion of his life as guest lying on the beds of hospitals, is considered the richest and most fertile one. In fact, he documents in it the story of his ailing spirit, his feeble body which was emaciated chronic illness till he was eventually carried limbless to his grave suffering two types of painfulness; the psychological before physical .

The reader will find no more feeling with the passage time and its severity like the case of such an individual who lived most part of life span being transferred from one hospital to another; and who was not able distinguishing day from night only with change of the nurses for their day and night shifts; and who was adopted waiting as habit living his life observing its minutes that change in his awareness to weary lengthy hours of anxiety of what to come.

This research comes after a slow and assimilative reading for the story works of Abdul Aziz Mashri. This helped inculcate in the mind of the researcher a comprehensive and complete idea about his unique book titled " Almaghzoul " a local Arabic word South region meaning sarcastically the one suffering a genius madness)book, which represents a literary life novel and autobiography whose time was formulated by Abdul Aziz Mashri in the shapes of pockets and circles that made the researcher propose a method in reading similar to the one adopted by the writer himself; hence it remained revolving with him in his time retrieval incidents till the beginning meets the end, and till the consequences of the time of coma and hallucination draw the word of end, which took hold of him before he completed his autobiography book

مدخل في السيرة الذاتية وسيرية المغزول:

ذهب بعض الباحثين إلى أن إطلاق كلمة "سيرة" كانت أولاً على ما كُتب من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم اتسعوا في مدلولها فأطلقوها على حياة بعض الأشخاص، فانتقل المعنى من الخاص إلى العام، فإذا انتقلنا إلى الحقل الأدبي وجدنا السيرة في معناها الواسع: نوعاً أدبياً يكون فيه ملتقى الحقل الفني بالحقل التاريخي، ويراد بها: درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته(١).

وأدب السيرة هو حياة إنسان أو بعضٌ منها، مدونة بقلمه. وهو اقتحامٌ للذات؛ لكشف حركة النفس الباطنية ومستوى وعيها، وتتطلب جرأة حقيقية، كما قد تكون بوحاً مريحاً يعيد الثقة للأشخاص الذين يفقدون تدريجياً يقينهم بهويتهم في عالم اليوم شديد التبدل، وعرف أدب السيرة أشكالاً مختلفة كاليوميات والمذكرات والرسائل والسيرة الذاتية، وبالنظر إلى هذه الأنماط رأى النقاد أنها تختلف في: نسبة المادي إلى العقلي، أي في نسبة المرئيات والأحداث والأشخاص مقابل الأفكار والمشاعر، وفي التنوع والسعة تبعاً للفرص والتجارب التي عرفها الكاتب ولمستوى اهتمامه وفكره، وفي مقدار توافر العوامل الأخلاقية فيها، كقوة الذاكرة وأمانتها وصدق الكاتب، وفي المستوى الفني الناشئ من اختلاف مهارة الكتّاب في اختيار ألفاظهم، وتنسيق موادهم، وإقامة العلاقة بين السبب والنتيجة واستخلاص صورة موّحدة لحالات متكررة(٢).

إذاً فلكل سيرة ذاتية خصوصية معينة ترتبط بنفسية الكاتب والبيئة المحيطة به، ولا يمكن أن يجد القارئ أكثر خصوصية من سيرة قاص وروائي هدّه المرض حتى حمله أصدقاؤه كحشرة بلا قدمين إلى القبر !

فـ"المغزول" [٣] ترجمة ذاتية فنية بامتياز؛ بداية بالعنوان الذي لم يتضمن معنى السرد والقص[٤] بل جاء صفة غامضة وجاذبة في الوقت نفسه للقارئ لتتبّع حياة هذه الشخصية[٥].

والسيرة الذاتية -كما يقول أحد الدارسين عن السيرة الفنية- ليست تلك التي يكتبها صاحبها على شكل مذكرات تعني بتصوير الأحداث التاريخية أكثر من عنايتها بتصوير واقعه الذاتي، وليست هي التي تُكتب على صورة ذكريات يعني فيها صاحبها بتصوير البيئة والمجتمع والمشاهدات أكثر من عنايته بتصوير ذاته، وليست هي المكتوبة على شكل يوميات تبدو فيها الأحداث على نحو متقطع غير رتيب، وليست في آخر الأمر اعترافات يخرج فيها صاحبها على نهج الاعتراف الصحيح،كما أنها ليست الرواية الفنية التي تعتمد في أحداثها ومواقفها على الحياة الخاصة لكاتبها، فكل هذه الأشكال فيها ملامح من الترجمة الذاتية، وليست هي لأنها تفتقر إلى كثير من الأسس التي تعتمد عليها الترجمة الذاتية الفنية[٦].

فـ"المغزول" والحالة هذه تتطابق مع تعريف السيرة أو الترجمة الذاتية، ولا يمكن بحال أن نعدها رواية، وقد ذهب كثير من الدارسين إلى أنها رواية ! [٧].

وإذا تجاوزنا هذا التعريف التقليدي للسيرة الذاتية؛ سنجد أن أحدث التعريفات للسيرة يكمن في أن السيرة عصيّة على التعريف، وأنها خطاب سردي مفتوح يتداخل مع الأنواع الأدبية والمعرفية والمعيشية الأخرى، ويتأثر بها ويتماهى معها؛ فيكتسب بذلك هوياتها المفتوحة [٨].

وبذلك يمكن القول إن أدبية السيرة الذاتية لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال روائيتها؛ وإذا كان معظم كتّاب الرواية السعوديين يميلون إلى أن يمتحوا من سيرتهم

الذاتية في رواياتهم الأولى وهذا ما يفسر وجود رواية واحدة لكثير من الروائيين، لأنه بمجرد أن تنتهي التجربة الحياتية التي استقى منها في روايته الأولى تنضب الكتابة الإبداعية الروائية لديه [٩]؛ فإن عبدالعزيز مشري أنهى حياته بكتابة سيرته الذاتية التي أنجز مسوداتها الأولى في مايو عام ٢٠٠٠ م؛ إلا أن ظروف المرض حالت دون إكمالها ومن ثَمّ نشرها [١٠].

ولا يخفى إن فشل الكتّاب والقراء معاً الواضح والمستمر في التفرقة بين " حقيقة " في عقل الكاتب و" الحقيقة " الواقعية الموضوعية، ليس أمراً جديداً في تاريخ الأدب الحديث، إنها إشكالية ترجع لقضايا لم تُحسم عندما بدأت السيرة الذاتية والرواية في البزوغ بأشكالها المعاصرة مطلع القرن الثامن عشر[١١].

مؤشرات الميثاق السِّيري في "المغزول":

كان المرض المزمن هو المحرّك الرئيس لإبداع عبدالعزيز مشري الأدبي كله؛ حيث يظهر فضاء المستشفيات وضغط المكان النفسي وحصاره له في مجمل أعماله، وقد أبدع –رحمه الله– في وصف الحالة الشعورية التي تحاصر المريض المحاصر أصلاً في الزمان والمكان؛ ولذا لا نعدم هذا الميثاق الظاهر لسيرية "المغزول" وإن كان الكاتب قد أجاد الانتقاء من هذه الحياة المزدحمة بالآلام إلى الدرجات القصوى من هذه المعاناة، وأعني بها عمليات البتر الأخيرة للساقين التي أودت به في النهاية.

وهناك ميثاق آخر واضح وصريح من متن النص نفسه، فهاهو يعترف بنقل مذكرات المرافق وهو شقيقه: أحمد مشري:

نُقلت هذه المذكرات من مفكرة المرافق أحمد مشري، كما وردت في نصها الأصلي، وكان يكني "زاهر المعلول" بلقب "الوزير" على إثر حادثة خاصة جرت لهما...[١٢].

وتبدو هذه اليوميات التي كتبها أحمد مشري على حالتها الأصلية من عدم التنقيح والتصحيح؛ فترد فيها بعض الأخطاء النحوية واللغوية والكلمات العامية [(١٣)] وهذا ميثاق ثالث، والدلائل كثيرة سيرد بعضها خلال الدراسة التحليلية.

السيرة الذاتية وقناع الرواية :

جاءت "المغزول" في صورة رواية تسرد بضمير الغائب غالباً الذي يتداخل أحياناً بضمير المخاطب؛ فالدراسة النقدية لذلك ستأتي متخفية كذلك خلف تقنيات الكتابة الروائية واللغة الراقية، أما بالنسبة للسرد بضمير الغائب، فقد أعاد الدكتور معجب الزهراني سبب عدم استخدام كتّاب السيرة الذاتية السعوديين لضمير المتكلم إلى عوامل عديدة منها ما يرتبط بالثقافة المجتمعية، فإن الكتابة عن الذات الفردية من المنظور الثقافي – الانثروبولوجي ليس سهلاً أو جاذباً في إطار مجتمعنا التقليدي الذي يعتبر الخروج عن ثقافته السائدة عقوقاً، وكذلك المنظور الديني الذي يعد الحديث المباشر عن الأنا تعالياً سلطوياً تتمثّل نماذجه العليا في إبليس[(١٤)] .

وأرى أن الكتابة بضمير الغائب تكمل لعبة التخفي؛ فالسارد لا يحكي قصة حياته هو، فبالتالي يستطيع التبرؤ لاحقاً مما قد يكون في هذه السيرة من تجاوزات أياً كان نوعها هذا بشكل عام؛ أما بالنسبة للمغزول؛ فأعتقد أن لها خصوصية هي خصوصية أعمال المشري كلها؛ فقد وزّع عبدالعزيز مشري ذاته – إن جاز التعبير– على مجموعاته القصصية القصيرة ورواياته، وكتاب " مكاشفات السيف والوردة "[(١٥)] الذي ذهب بعض النقاد إلى أنه سيرته الذاتية [(١٦)]مع أنه لا يعدو أن يكون "سيرته الكتابية" كما أن الأسلوب يختلف تماماً عن الأسلوب الأدبي في روايات مشري وقصصه القصيرة؛ كما أن السيرة التي تُروى بضمير المتكلم تتبع غالباً التتابع الزمني من الولادة فالطفولة فالشباب إلى الكهولة، ومشري يبدو هنا انتقائياً كما أسلفت.

وذهب الدكتور صالح معيض الغامدي إلى أن مشري في سرده سيرته بضمير الغائب كان يقلّد طه حسين في "الأيام" بل إن المغزول كلها عبارة عن تناص سيرذاتي على مستوى الأسلوب والمضمون مع أيام طه حسين(١٧).

وهذا لا يمنع ما ذهبتُ إليه، كما أن السرد يأتي أحياناً بضمير المخاطب الذي لو تتبعنا مواضع التغيّر من الغائب إليه، لوجدنا أن ذلك لا يأتي إلا في حالتين، أولاهما: زجر زاهر الذي يتحلى بقدر كبير من الحساسية والترفع وعزة النفس، يقول:

"كيف يا زاهر المغزول.. ألست تتعمّد القساوة على نفسك.. كيف تهرب من سريرك عائداً في سفر ليليّ إلى منزلك بالمدينة الشرقية.. أليس هذا جنوناً، أو أنه توجّس الغزلان –يامغزول- حين يكون أرهف ما بذهنها أن تعابث بانطلاقتها سباق الريح.. يا لك من مغزول..." (١٨).

ويقول:

"زوجة صديقه الممرضة تمنحه كامل رعايتها ووصاياها لزميلاتها، فيما بعد، تجيء ومعها من البيت حساء العدس المهروس بلحم الدجاج المقدد... يرفض الأكل من يدها، بدعوى أنها مشفقة –يا زاهر.. يا مغزول.. كفى غزلة وترفعاً في غير محله!!"(١٩).

وكأن معنى المغزول اتخذ أبعاداً أخرى لديه وخاصة إذا وبّخ نفسه، فيأتي بمعنى حب الحياة ومعاندة القسوة والركض وراء الجمال، وعزة النفس المتناهية والترفّع حتى عن الطعام الذي كان يعده للحيوانات فقط، وإن كان يعيد هذا الترفّع أحياناً إلى العادات البدوية، يقول:

"... فلم تجرِ عوائده القروية البدوية على عرض الحاجة أمام من لا يرى فيه التقبّل" (٢٠) والأخرى حين يتعاظم الألم الجسدي والنفسي بزاهر المعلول حتى يبلغ مداه؛ فيكون هذا الانتقال بمثابة تعزية تنطلق من الخارج / الغائب إلى الداخل / المخاطَب. يقول على سبيل المثال:

"العادة في مثل حالتك يا ابن المغزول.. بعد إنقاذك من غيبوبتك السكرية، أن تمتثل لما يقوله طبيبك لمدة قد لا تزيد على العشرة أيام، عبرها سيتم فحص الآثار المرافقة، وتنظيم مستوى السكر في الدم.. هي ليست بـ "اختراع صاروخ" كما يُقال..." (٢١).

ويقول عندما فوجئ بعملية البتر الثانية:

"قل ما تبغي.. ليس إلا ما يراه الطبيب.. فماذا تذكر! موسيقى جنائزية تتكرر، كأنما هي بكبر دوران الأرض... مئات الجنائز تمر بوسط عينيك: كثير منها يبقى بذهنك لأشخاص في الغالب ذهبوا محمولين إلى حيث أبدية الدفن..." (٢٢).

أهمية الموضوع ومنهج الدراسة:

أذهل عبدالعزيز أمر الزمن ووتيرة الحياة السريعة، وأرعبته النهاية؛ فكان يؤخرها دائماً ويعود بالسرد أدراجه، وقد رغب أخيراً أن يخفّف من سُعار الزمن وإلحاحه؛ فلجأ إلى الحبر والورق يسجّل رحلته، والمرض يتطامن مع الزمن في فجأته له بالموت وهو لم يتمّ الكتابة، وقد كان يدرك ذلك فكان يسابق الزمن ويكتب في أوج علته حتى سبقه الأجل.

لقد اهتم عبدالعزيز مشري في " المغزول " بالزمن اهتماماً كبيراً وجعله – بالإضافة لاستخدامه ضمير الغائب الذي تروى به الأحداث – وسيلته الفنية التي

حوّلت أحداث الحياة اليومية والوقائع الخارجية الحقيقية إلى واقعة فنية؛ فكوّن منه شبكة محكمة حول النص، حتى غدا النص دوائر من الاسترجاعات الداخلية والخارجية والاستباقات الزمنية القليلة، التي يجمع خيوطها القارئ ويتلذّذ بالاستمتاع بجمع الأحداث وترتيبها مرة أخرى، كما يتوسّل بالتكرار الذي يخالف الطبيعة التعاقبية للأحداث، والحدث المتكرر بالطبع له دلالاته التي لها أهمية كبرى في بناء النص، وصفتا التعاقبية أو التكرارية تفرضان نوع القراءة؛ فالتكرار يستلزم قراءة دائرية بدوران الزمن والأحداث، فالقارئ يجمع الأحداث والأزمنة وهو يقلّب الصفحات من البداية إلى المنتصف، ومن المنتصف إلى النهاية أو إلى البداية مرة أخرى، وأرى أن هذه الطريقة في السرد تناسب السيرة الذاتية كثيراً؛ لأن المادة في الحياة تتكرر لتتجدد، وتجددها مرهون بتكرارها، وعندما تنتهي حياة فإنها تفتح أفقاً لولادات جديدة وهذه هي نواميس الحياة منذ الأزل(٢٣).

وقد يؤخذ في الاعتبار عند القراءة أن أخاه أحمد هو من كان يدوّن هذه السيرة، وقد صرّح الدميني أن مشري هو من كتب السيرة وهو من كتب الأسطر باللون الأسود الغامق، وأنها مجموعة تداعيات مع أنها تستعصي على التصنيف! (٢٤).

المدى الزمني الذي تمتد عليه سيرة "المغزول":

بقراءة "المغزول" نجد أنها لم تشمل حياة الكاتب كلها من الولادة ومرحلة الطفولة والشباب بكل تفصيلاتها وأحداثها إلى الكهولة، وإن حضرت ذكريات الطفولة والشباب المبكر في كثير من الاسترجاعات؛ فقد اقتصرت على فترة زمنية معينة، هي فترة استشراء الداء في جسد زاهر المعلول إلى وفاته؛ ويبدأ السيرة بعملية بتر الرِّجل الأخيرة ليجعلها مفتتح الكتاب بتلك الصرخة: ".. (أين رجلي.. أعيدوا لي

رجلي) "(٢٥) ويكررها في الصفحة التالية بعد أن تذكّر أنه وقّع بالموافقة على بترها بعد عذاب تسعة أشهر كاملة (٢٦).

فزمن المرض يحدده السارد بربع قرن: "إن زمناً يقارب ربع قرن، ضرب فيه "زاهر" سفراً بعيداً من مصالحة المرض،كان آخرها جرح "الغرغرينا" الذي تفاوض معه منذ أشهر تسعة: لم يكن نهاية عثرات المكرمين، الألم حتى وإن كان مفاجئاً محفزاً لغضبة الوجع؛ لن يكون جديداً على خبرته"(٢٧).

وفي النص تداعيات كثيرة يمكن جمعها ووضعها تحت عنوان "فلسفة المرض" فالمرض أصبح صديقاً لزاهر وهي صداقة حتمية، ويحاول في كثير من هذه التداعيات أن يبعث رسالة للأصحاء مفادها أنهم هم المرضى ماداموا يتخوفون من المرض:

"لقد عرف تماماً أن المرض ليس قبيحاً إلى الحد الذي يصفه الناس بالوحش المخيف، أو أنه ذلك الذي لا يمكن قبوله أو توقعه... الحقيقة أن "زاهر" عرف وبتأكيد المجرّب.. أن الناس الأكثر تخوّفاً من المرض، هم أولئك الذين يرمون أنفسهم مسبقاً وباستعداد طريْ للشفقة، ولاستجداء عطف الناس..."مسكين مريض".. عرف "زاهر" في إطار محيطه الاجتماعي أن الناس لا يزيدون بزياراتهم أو سؤالهم بعضاً مع بعض عن المريض.. لا يزيدونه إلا خوفاً وتوجّساً من خطرٍ حائقٍ فتّاك... إنهم يدعمون المريض بوافرٍ من الاستعداد للموت والتهيؤ للضعف والاستسلام..."(٢٨).

وهو قد شُفي من ذلك تماماً؛ فحبه للناس حبٌّ طبيعي، لا يريد سوى الأُلفة التي تخرجه من الغربة العميقة الموحشة؛ فله فلسفة أخرى في قراءة الوجوه واستكناه ما يغيب عادة عن الناظر إليها!

وكثير من هذه الفلسفة الخاصة التي ستظهر في الأسطر القادمة خلال الدراسة.

أولاً- الزمن الماضي والاسترجاعات:

وهو الزمن الرئيس الأول الذي تعوّل عليه الاسترجاعات الكبيرة والصغيرة، الداخلية والخارجية التي تختلط بالترجيع.

١- الاسترجاعات الداخلية:

وهي الاستعادات الزمنية داخل زمن الحكاية (البتر) وهومنتمي إلى الحكاية؛ تكميلي يسد حذفاً أو نقصاً قد يكون حدثاً مفرداً في زمن الحكاية وقع مرة واحدة، "وهذا الاسترجاع الجزئي يغطي جزءاً محدداً من الماضي، معزولاً ومنقطعاً عما حوله ووظيفته تقديم معلومات محددة ضرورية لفهم الأحداث"[٢٩].

وهو إشارات القصة إلى ماضيها، كعودات قصيرة غالباً بقصد التذكير، وهذا التذكير عند مشري يأخذ شكل مقارنة بين الماضي القريب والماضي البعيد غالباً.

والحكاية كلها قائمة على الاسترجاعات التي تعاد وتكرر في شكل دوائر زمنية صغيرة أحياناً، وكبيرة متسعة في أحيان أخرى، ويبدو التحديد الزمني للبتر الأخير مهماً في تحديد أنواع الاسترجاعات.

يبدأ الحكاية كما أسلفتُ باكتشافه لرجله المبتورة، ويبدأ في تداعيات عديدة عن لعبة التوازن، ويستطرد في وصف نفسه وذكر زمن مرضه الطويل المرهق له بكثير من الاستطبابات.

وبعد قطع السرد كذلك بحلم غريب حدّث فيه قدمه المبتورة، يعود إلى زمن البتر: "كاد يختنق، وعندما فتح عينيه بعد جهد للخروج من الحلم.. كان فمه جافاً كباطن الكف، وأنفه مسدوداً بالدم المتجمّد، حاول أن ينقلب على أحد جنبيه فلم يستطع، فالألم يكاد يشل الرِّجل من الحوض إلى الركبة، بينما كانت يده اليسرى مقيّدة

بالأنبوب المغروس... احتاج أن يحكّ بعنف أصابع القدم اليمنى التي بلا قدم...بعد وقت حسبه ستين دقيقة منحوتة من الانتظار، دخلت الممرضة بهدوء، مدت يدها إلى جبينه ثم خرجت..." (٣٠).

يخرج من هذا الزمن مباشرة إلى استرجاع خارجي عن حادثتين لهروبه من المستشفيات، وانتقال آخر بينهما لأول زمن للتنويم في حياته قبل عشرين عاماً.

تسيطر عليه المشاعر الفلينية والخشبية وهو ينتظر تركيب طرف صناعي يعوّضه عن رِجله المفقودة (٣١).

"الغرفة التي تشبه في جدرانها وسقفها الفلين.. ظهرت كل الأشياء فلينية ناشفة وساكتة، النوافذ البعيدة في الواجهة الجنوبية للمستشفى الكبير.. جميعها مغلّفة ومشدودة بإطارات الألمنيوم الذي يشبه الفلين الشاحب... كل شيء شاحب وفليني حول الغرفة وداخلها... (يا للعذاب.. هل تحوّلت مشاعر الناس الطيبة إلى فلين؟

عندما دخل عليه هذا الصباح، خبير التدريب الطبيعي.. قال إنه ستصبح ذات يوم مثل الآخرين.. يقف ويمشي على اثنتين... بتركيب طرف صناعي... لعله يكون أيضاً من الفلين الشاحب، أو الصلب غير القابل للكسر" (٣٢).

وهنا تتداخل جيوب سردية صغيرة، داخل زمن غير محدد من أزمنة التنويم، ولكنني خمنتُ أنه بعد البتر، حين يتأمل حالتين مرضيتين تحيطان به من الجانبين، حالة لسيدة سبيعينية، وأخرى لطفل صغير(٣٣)، ثم يخرج إلى استرجاع بعيد إلى زمن الطفولة.

يتأخر الطبيب ويأتي الطعام الذي يرفضه عادة، ويستدعي المثل القروي الذي يقول: "ما يأكل إلا العافية" "لتتحوّل الرغبة في الأكل لديه إلى كره شديد، يتصوّر أنه

كالبقرة عندما يقعد متفرّغاً من أجل أن يأكل" (٣٤) ويخرج لاسترجاع قريب بعد حدوث جلطة له.

وباسترجاع داخلي مؤثّر يتداخل فيه حديث النفس مع وخزات ألم جرح القدم وجروح داخلية أخرى كثيرة، يعود إلى غرفته بعد عملية البتر:

"أيام تمضي في الغرفة الفلينية كما يمضي الوجع في الضرس، "زاهر" يهيئ لسانه ليسأل طبيبه عن اليوم والساعة التي سيكتب له فيها الخروج... أحسّ يوماً بأن عليه أن يكون أول المتأقلمين مع حالته الراهنة، التي تعني بالضبط (لا تتذمر من وضع الرِّجل، أو تذمّر كما تشاء.. الحال واقع، ومكان البتر ليس في الرّجل، إنه في قلبك وشعورك، رضيت أم أبيت؛ فاشرب ماء المحيطات الأجاج أو سُفّ رمل الصحاري حتى تترع) " (٣٥).

إنه يسرد مرات كثيرة ما يحدث مرة واحدة، بأشكال وتأثرات شعورية عديدة.

ومن الاسترجاعات التي جاءت بعد عدة تداعيات عن المرض ووجوه الناس، التي جمعت بين تعاظم الشعور بالألم والوحدة والغربة:

" "زاهر" يجذب اللحاف الأبيض على السرير، ويلملم أطرافه الناقصة كقبضة النحيل، يكاد لو يتوهّم أن الناس جميعاً؛ وبتساوٍ يعومون بودٍّ ودفء حوله تحت لحافه... توقف تحت دفء اللحاف، وكان لا يزال يفتّش في الوجوه عن أُلفة ترتُق وحشته..." (٣٦).

ويستدعي هذا الاسترجاع دائرة زمنية صغيرة تتكوّن من أربعة أسطر يعود بها إلى ذاكرة القرية وزمن الطفولة.

وهنا استرجاع لحادثة بتر قدمه مرة أخرى بعد وصف طويل:

"يذكر "زاهر" وللمرة الأولى في حياته المرضية، أنه حين نزل من على ظهر السرير بعد فترة البيات العلاجي لبتر ساقه؛ تعرّض لطقس نفسي مُعتم بالخوف واللامبالاة، أو ما يصفه النفسيّون بـ "الكآبة" فبماذا يصفون مريض النقاهة الذي تطلّع إلى رصيف المُشاة، أو حتى إلى دورة المياه بمنزله، فوجد أن رِجله وموقع ارتكازه ونقل بدنه مفقود..." (٣٧).

ثم يأتي تداعي ثم عود إلى الطفولة فقطع وصفيّ، فتداعي لزمن السليك بن السّلكة.

بعد استرجاعات بعيدة كثيرة يعود زاهر إلى غرفته الفلينية، ويؤكد عودته هذه بوصف طويل ومسهب لها:

"الغرفة الفلينية الجدران والحواف، تزداد ضيقاً، وكأن هواءً خلف جلدها الأبيض البرتقالي.. يضغط من الداخل؛ أو كأن سائلاً مركباً بالملح... لقد تشبّع الفلين بالضجر والتكرارية؛ وهو يحيط بسرير المريض..." (٣٨).

ويخرج من هذا الوصف إلى تداعي طويل عن فلسفة المرض المزمن ووطأته عليه (٣٩).

ثم إلى دائرة زمنية صغيرة في زمن ماضٍ بمدينة جدة عند طبيب أفريقي.

ثم يعود إلى الأيام التي يقضيها يبكي رِجله التي فُصلت عنه:

"قلنا..

إن "زاهر" لازال يقضي أيامه وتقضيه على بياض السرير؛ في فترة جديدة تختلف عن كل أصناف الآلام التي مرّ بها من قبل، وضمن حوض زمني تمرّغ في قصباته بين

حالٍ وحال... الآن يفقد رِجله: لقد اُجتزت اليمنى وقُذف بها في كيس المهملات، في مكانٍ تجمع فيه مخلفات الورق، وبقايا الطعام، وكمامات التمريض، وأعقاب السجائر. أُلقيت رِجل إنسان؛ حملته منذ أربعين عاماً[٤٠].

وبعد رثاء طويل لرِجله المبتورة، يخرج لجلسة من جلسات "الديلزة"[٤١] ثم تداعي قصير للسليك بن السّلَكّة الذي تحوّل من عدّاء لا يُلحق إلى مبتور الساق في معركة حربيّة متخيّلة[٤٢].

ثم يعود ليعزّي نفسه، ويخاطب "زاهر" المحب للحياة والحب والجمال، الذي يعني بمواسم المطر والزرع والحصاد، ويحب الشمس الدافئة، ويتفاءل بالربيع، لينهي الفصل الرابع وما قبل الأخير[٤٣].

يبدأ الفصل الأخير بعودته إلى المستشفى بعد عام من بتر ساقه اليمنى، جاء بساق صناعية من الرّكبة إلى موضع الأصابع، جاء بجرح جديد لا يعرف ماذا سيرى الطبيب فيه؛ وبعد الفحوصات المعتادة لمريض السّكر، تأتيه المفاجأة على لسان نفس الطبيب الذي قضى قبل عام ببتر قدمه اليمنى بضرورة إجراء عملية لبتر الساق الثانية![٤٤].

وتبدأ التداعيات ترسم معالم المأساة التي وجد نفسه فيها بلا موعد، ويبدو السّليك وهو يهمز جواده الذي يمشي ولا يمشي؛ فهو لا يبرح مكانه، ويسمع صوت موسيقى جنائزية، ويدخل في لُفافة الليل ليستيقظ بلا قدمين!

تبدو هذه الاسترجاعات أكثر من غيرها ألماً؛ لقربها من حادثة البتر التي شكّل السليك بن السّلكة كثيراً من تداعياتها التي حاولت أن أفصلها في جزئية خاصة عن الوقفات الزمنية، لكنها تندمج كثيراً في الحدث، بحيث لا يمكن وصف السيرورة الزمنية المتداخلة والمختلطة إلا بطريقة القراءة الدائرية هذه.

٢ – الاسترجاعات الخارجية:

وهو ذلك النوع من الاسترجاع الذي يعالج أحداثاً تنتظم في سلسلة سردية، تبدأ وتنتهي قبل نقطة البداية المفترضة للحكاية الأولى[٤٥].

والسرد يستعيد أحداثاً قبل زمن الحكاية (بتر القدم) وينقسم هذا الزمن إلى فترات زمنية بعضها قريب: قبل زمن البتر مباشرة، وبعضها بعيد يمتد إلى زمن الطفولة، وتتكامل هذه الأزمنة في سرد قصة حياة "زاهر المعلول".

ومن الاسترجاعات القريبة من هذا الزمن (زمن البتر) عندما لم يجد الطبيب علاجاً للغرغرينا سوى قطع الرّجل، ومن هنا تبدأ مأساة "مريضنا" التي بدأ يهرب من سردها مرة بالاسترجاعات وأخرى بالاستشرافات:

"الطبيب في مروره اليوم على "زاهر" قال: إنه لم يجد خياراً غير عملية "البتر" وكانت هذه الكلمة تعني للمريض معنى صعباً لا يليق بحال من يقيم محبة مع الأمل"[٤٦].

فيستعيد أحداث هروبين له من المستشفيات:

"لم يكن زاهر يحب المستشفيات التي توجب حالته أن يقيم بها... حدث في حالتين صعبتين وفي أوقات متباعدة أن هرب بملابس التنويم دون أن يراه أحد... وفي مرات عديدة، رفض روتينية النظام التقليدي الصحي، فاكتفوا بأخذ توقيعه واعترافه بمسئوليته التامة عن خروجه الاختياري الملح"[٤٧].

وقبل عام حدثت له حادثة بدأ سردها بجملة كررها كثيراً:

"لم يحب "زاهر" المستشفيات، فمع أنها مربوطة بضرورة وضعه الصحي كالقدر المحتوم، وبالرغم من تكرار الحالات المتزايدة، التي من الطبيعي بحكم العادة والحاجة.. أن يكون قد تآلف مع أجوائها، إلا أنه يجد في ضلوعه نفوراً دائماً.

قبل عام وفي مثل هذا الفصل من السنة الماضية.. سيق بضغوط الألم والسهر وفتور المهدئات المتنوعة في بدنه.. بسبب جرح لا يعلم كيف بُعث تحت بنصر يده اليسرى... كان "زاهر" يحمل قطعة من الجمر في يده معصوبة بالشاش الأبيض، وكانت الجمرة المتأججة المسماة بإصبع الخاتم الزوجي؛ تتغذى من وجع حاملها فينة ففينة... خُلع الإصبع من مضرب جذوره ولم ينتبه له مثلما تنبه لفقد رِجله بين عشيّة وصبحها"[٤٨].

أما الحادثة التي وقعت قبل عامين والتي استرجعها بعد هذه الحادثة، فهي حادثة جرح القدم الذي قضى به في المستشفى مدة ثلاثة أشهر.

ثم يستذكر السارد بعض يوميات طفولته المرضية لتفضي به إلى استرجاع قريب حين دخل المستشفى العسكري:

وبعد أن أخبروه بقرب تركيب طرف صناعي له، وبعد عدة تداعيات يشعر باحتقان مثانته التي تكاد تنفجر كرصاصة وبعد استدعاء الممرضة لعمل القسطرة، ترجعه هذه الحالة إلى حادثة قديمة من جلسات "الديلزة"[٤٩] وتبدو المفارقة:

"يا لصدف الحالات، كان قبل عامين مضنتا على زرع كلية صحيحة.. يتمنى أمنية المستحيل، لو يخلص جسمه من زيادة السوائل التي تتوزع في الصدر والبطن والأطراف، حتى تنقطع أنفاسه..."[٥٠] هذه دائرة زمنية صغيرة عن عمليات الديلزة يغلقها.

وبعد حكايتين صغيرتين يسردهما عن سيدة سبعينية، وطفل صغير في زمن غير معلوم، يعانيان من آلام الغسيل الكلوي، استعادة بعيدة لحادثة في زمن الطفولة، وكأن دموع الطفل بندر وصرخاته المستمرة قد أثارت هذه الذكريات:

"يتذكر "زاهر إذ أودعته أمه مع خاله المقيم بشرق البلاد...بعد أيام أخذه خاله إلى المستشفى المركزي، فرأى الطبيب أن يبقيه فترة في عنبر المستشفى، كان رأي الطبيب يزلزل ضلوع المريض الذي يكره حبس الغرف الزجاجية..." (٥١).

ثم يعود ويرسم دائرة زمنية أخرى عن عمليات الديلزة ليكمل بها كلامه هذا بين جدران الفلين والإسمنت والألمنيوم التي تسهم في انقضاض الزمن عليه:

"الألمنيوم..."!

لم يكن "زاهر المعلول" يعلم أن ذلك المعدن الرافض للتأكسد، والذي يبدو هشّاً خفيفاً، يكمن في تركيب البدن البشري، إلا حين تعب الأطباء في تفسير حالة الهذيان التي استعمرت ذهنه ولسانه ورعشة أعصابه.. لم يتخلّف يوماً عن الحضور في موعد الديلزة.. ثلاثة أيام في الأسبوع يلعب به الدوار فيُدير رأسه جانباً.. ويتقيأ، يتقيأ أي شيء.. أغشية البطن المجلفنة باللعاب؛ الهواء..التصورات القديمة منذ طفولة القرية.. المسام ومنابت الشعر.. الأظافر المنقوشة كالأهلة... لاشيء يبقى في الجسم.. لم يخف عليه أمر "الديلزة" الموكلة حتى بامتصاص العِظام" (٥٢).

يبدو وصفه للمواد التي يتقيأها مؤلماً وجارحاً مع سخرية موجعة تتطامن مع تكاثف المكان/ المستشفى مع الزمان/ زمن المستشفى غالباً في رسم لوحة متكاملة لمعاناة الغسيل الكلوي؛ فالزمن في المستشفى كأنه خارج الزمن، فالحركة فيه دائمة لا تعني بسواد الوقت أو بياضه،والأطقم العاملة فيه تقيس وقتها بدوران الساعة، ففوجٌ يغادر وفوجٌ يستلم هكذا، وليمت من يمت.

ثم يعود إلى زمن البتر ويكمل بجملة مكررة يربط بها الزمن السابق إلى هذا الزمن:

"كان الأطباء قد اختلفوا في أمر الهذيان وثقل اللسان" (٥٣).

وهنا دائرة زمنية صغيرة، داخل الزمن الخارجي، حيث يعود إلى مسببات حادثة البتر:

"قبل دخوله مستشفى العاصمة التخصصي، كان قد نُقل بالتحويل من مستشفى المدينة الساحلية... كان جرح القدم صغيراً فترعرع وحفره الطبيب إلى أن ظهر العظم ولم يلتئم... كان "زاهر" شديد الثقة بأطبائه، وكان يستبعد أن يرى نهاية الحلول في قدمه الاستئصال" (٥٤).

ومن أهم أحداث مرضه وتنقّله بين المستشفيات، دخوله إلى مستشفى العاصمة، بعد أن أصابه الجفاف:

"دخل "زاهر" المستشفى بالعاصمة، بعد أن ابتلع ركاماً من الزفير المكتوم، جعلوه على السرير ووجهه نحو السقف ودلقوا في شرايينه العطشى كرماً مائياً ما كان ليحلم به قليلاً... لقد كان الانخفاض في قلة السوائل، وليس نقصان الملح" (٥٥).

ثم يخرج إلى وصف الليل والمرافق الأليف، ثم تداعي طويل لحادث هروب في الماضي البعيد من المستشفى، إلى هروب أبعد في مرحلة المراهقة من المدرسة مع زميل له(٥٦).

ثم تأتي دائرة زمنية صغيرة لا يعرف القارئ عنها إلا أنها في الزمن البعيد:

"أُدخل -الطوارئ- أحس بالتعب بعد سهر ثلاث ليالٍ متتاليات لحالة غرام كيدية.. لم يتناول عبرها حقنة "الأنسولين"..مساءً كان الوقت، عاد بسيارته.. كان يرى الطرق غير التي يعرفها... علّق بوعي متباطئ في واجهة الباب، ورقة: "أنا متعب أحتاج إلى مساعدة"" (٥٧) ثم يدخل في غيبوبة تكثر فيها التداعيات المفككة.

ثم دائرة زمنية صغيرة كذلك تنتمي إلى زمن ما قبل البتر:

"قلنا..

إن "زاهر" كان يسكن وحيداً، وهي رغبة اختيارية حرة، ارتبطت ظروفها بعدد من المواصفات... وبقي صاحبنا في عمله بذات الجريدة الشرقية، محرراً متعاوناً.." (٥٨)

ومن هذه الدوائر الصغيرة التي خرج إليها من غرفته الفلينية:

"ذات عام..

أُخذ إلى طبيب من "أفريقيا" بالمدينة الساحلية الغربية.. شيع أنه عالج بالوصف والقراءات؛ مريضاً من الطبقة الأولى كان مصاباً بمثل مرضه ومقعداً، جاء إليه مريضنا فأقعده على الأرض جانبه، تطلّع فيه فقرأ كل شعرة فيه حتى حاجبيه، ثم نفخ في يديه" (٥٩).

ثم وصف له دواءً شعبياً لم يفد مع علته المزمنة، ثم يرفض العودة إليه، ثم يعود إلى غرفته يعاني آلام البتر النفسي لروحه التي تعبث فيها الآلام.

هذه الاسترجاعات الخارجية قريبة الحدوث من البتر، تشكّل إطاراً للاسترجاعات السابقة، إنه يهيلها على الحدث القريب، ثم يهرب منه إليها، خاصة حين يسترجع كثيراً من الاستشفاءات التي لجأ إليها سابقاً، وكأنه يريد أن يتخذ لنفسه العذر في أنه لم يدّخر وسعاً لطلب العلاج؛ فلا ذنب له في هذا الجرح الذي أودى بساقيه في النهاية.

ومن الاسترجاعات الخارجية البعيدة إلى زمن الطفولة، استرجاع أثاره حادث هروبه من المستشفى في زمن سابق من أزمنة التنويم الكثيرة، يقول:

"لا ينسى "زاهر" أول ظرف استوجب منه الإقامة في مستشفى، كان ذلك منذ ما يزيد على عشرين عاماً، حين أخذه جدّه محمولاً كالجرادة المنهكة من القرية البعيدة إلى المدينة الساحلية، وما أن كشف الأطباء مرضه المزمن في بدايته حتى بكى جدّه وفرح هو لأنه سيغيب عن المدرسة..."(٦٠).

ويستطرد إلى تفاصيل كثيرة لآثار مرضه المزمن على مستواه الدراسي، ثم يخرج من هذه الدائرة الزمنية الصغيرة إلى دائرة أخرى وحادثة أخرى وقعت قبل عام، ثم يعود إلى الزمن الحاضر، ثم يخرج إلى دائرة زمنية أخرى وحادثة وقعت قبل عامين، ثم يعود إلى الحاضر وهكذا.

والحادثة التي وقعت قبل عام كانت بتر بنصر يده اليسرى، أما الحادثة التي وقعت قبل عامين والتي استرجعها بعد هذه الحادثة، فهي حادثة جرح القدم الذي قضى به في المستشفى مدة ثلاثة أشهر.

ويعود إلى زمن الطفولة، ويستذكر بعض يوميات مرضه:

"يتذكر "زاهر" إذ أودعته أمه مع خاله المقيم بشرق البلاد ثلاثة أيام عبر الطريق البري بسيارة الأجرة... بعد أيام أخذه خاله إلى المستشفى المركزي، فرأى الطبيب أن يبقيه فترة في عنبر المستشفى، كان رأي الطبيب يزلزل ضلوع المريض الذي يكره حبس الغرف العلاجية... نحيلاً مصفرّ البشرة وساكناً كعصفور منتوف الريش.. اشترى له الخال ملابس داخلية بيضاء، وحلق له الحلاّق رأسه، أخذ معه كاساً للشرب وملعقة، ومنشفة، مثلما يفعل المرضى، ودخل مُثقلاً بالهم لا بالمرض"(٦١).

ثم عودة إلى زمن البتر وزيارة صديقة قديمة له، ثم استرجاع خارجي قريب حين دخوله المستشفى العسكري بالعاصمة بسبب جلطة:

"كان الشتاء يصبّ شراسة البرودة في عظامه، وكان عاد إلى المستشفى العسكري بالعاصمة... كان جنبه الأيسر مشلولاً، حتى نصف لسانه ووجهه، الطبيب شخّص الحالة دون تردد بأن جلطة مفاجئة استقرت دون الرقبة..." (٦٢).

ويتداعى هذا الحدث إلى حوار داخلي ساخر يتضح فيه فلسفة السارد عن المرض والحياة والموت، إلى عودة إلى زمن البتر (٦٣).

ومن الدوائر الزمنية الصغيرة جداً، ما جاء منها بعد استرجاع داخلي سابق؛ حيث يعود عودة سريعة جداً إلى زمن الطفولة:

" قريته التي نقض الاستهلاك الجديد صوف غنمها من مغزل أمه،وأيبس الحقول والأشجار وجلود البقر والحمير، وغدا الفلاّح غير فالح، والجمّال بلا جمل، وتجردت الجبال من أسمائها، وولاء وقايتها للرعود المخيفة وحماية الملتجئ" (٦٤).

ويغلق هذه الدائرة مباشرة ليخرج إلى وصف جارته في المرض، وهي طفلة صغيرة ترعاها أمها، ويصف أجواء المرض وضغطه على صدر هذه الصغيرة المكشوف، حتى يكتب الطبيب شيئاً ما في ملفّها المعلق في سريرها قبل أن يغطي عينيها لتغفو في نومة أبدية.

وأبعد الاسترجاعات زمناً ماعاد فيه السارد إلى زمن ولادة "زاهر" حين تتداعى الصباحات الحليبية البيضاء إلى صباحات القرية البعيدة، ومساءات الجوع والظلمة التي يعيشها في المستشفى إلى مساءات القرى الباردة:

"كان الصبح يصبّ بواكير نوره في مثانة الليل، وكان الشتاء يتنفّس بارداً من مفاصل المعلول في القرية الجبلية البعيدة، وُلِد "زاهر" في يوم جديد بلا وجع، لم يكن في حاجة إلى تذكّر ليل البارحة الفائض بالسهر والجوع والظلمة.

السهر في الشتاء القروي البارد؛ لا يعني غير المرض أو الجوع أو طول الليل البارد، و"زاهر" الذي يرفع يديه مسلّماً بتقاليد البيت في الأكل والشرب وحدود العادات، يأكل من أكل الجميع في البيت (سبعة أطفال لزوجتيّ الأب؛ وجدّ وجدّة)... تُقفل أبواب الدار، وينام الكلّ بعد الخبز أو اللبن أو السمن (لا يصلح مثل هذا الأكل لزاهر) يقول الطبيب (هذا أكلنا المعتاد) يقول الجدّ للطبيب، وكأن الطبيب سيراعي عادات الطعام التي أوجدتْ نوعها "حسب الموجود"... "[٦٥].

ويخرج السرد إلى وصف طويل للقرى وعاداتها في المأكل، ثم يعود إلى صباح زاهر القروي، ثم ينتقل إلى أول تنويم له وهو صبيٌّ صغير في الطائف، ثم يعود مرة أخرى إلى حادثة بتر قدمه!!

إنه يسرد ما حدث مرة، مرات كثيرة ويكررها ولو لاحظنا ما يكرره كل مرة لحادثة بتر قدمه، لا نجد اختلافاً كبيراً يذكر؛ وهذا التواتر التكراري يذكّر المتلقي بالتكرارات الكثيرة في أيام طه حسين؛ وهذا يرتبط بالطبع بالحالة المرضية التي يعانيها المشري، والتي تُدخله في إغماءات متعددة بعد عمليات البتر الأخيرة قبل وفاته، وحالة فقْد البصر عند طه حسين[٦٦].

وبعد عملية البتر الثانية للساق اليسرى كانت العودة للقرية الجبلية، وللطفل الصغير مؤلمة كثيراً، يقول:

"هل صحيح أن ثمّة أشياء تحدث دون أن يكون لنا يدّ فيها أو إصبع، وهل صحيح أن كل الذي حدث في الغيبوبة لم يبق منه غير بيتنا القروي الأول، وتلك الساحات البرحة والمزروعة باللوز المتفرق على مساحات لا تتعدى ركضة الطفل العجول..."[٦٧].

إنه يقطع الرحلة من ذلك الوقت إلى اللحظة الراهنة، ويقيس المسافات بدرجة حرارة الجو ووجوه الأشخاص:

"وما هو حجم الآن، هل امتدت من الطفولة الأولى.. أعني إلى الآن، وكم من مساحة الأرض والزمان تفصل بين هذه الحجرة البيضاء، في وسط هذا المستشفى الأمريكي البارد كرموش النساء فيه، وكالقبعات الأمامية البيضاء فوق رؤوسهن قرب الأسرّة وفي الدهاليز،ووسط أدوات الطب وعجائن القطن اللفافات الثلجية..." (٦٨).

الزمن هنا يمتد، فلم تعد ثمّة عودات، إنه يمتدّ من الماضي إلى الحاضر، وكأنه هنا يختزل حياته كلها من زمن الطفولة حتى الآن في هذه الغرفة الباردة في بلد بارد غريب، والزمن لا يكاد يميّزه بعد أن أصبح بلا معالم، مجرد قطعة رخوة بلا معالم تمتدّ على سرير !

ثانياً- توقف الزمن وتعطيل السرد:

وأما تعطيل السرد فيظهر في الاستراحات الكثيرة، فهي وقفات زمنية على نقيض الحذف. وتظهر في التوقف في مسار السرد، حيث يلجأ السارد إلى الوصف الذي يقتضي انقطاع السيرورة الزمنية وتعطيل حركتها، فيظل زمن القصة يراوح مكانه بانتظار فراغ الوصف من مهمته(٦٩).

وحيث ينقطع سير الأحداث، يتوقف السارد هذه الوقفات الوصفية أو الاسترجاعية الكثيرة، لكنها طريقته في القص ولها أهداف سردية؛ فهي تضيء الحدث القادم، ويظهر فيها أسلوب مشري الروائي، ويستعرض أحياناً ثقافته في كثير من التداعيات.

١- الوقفات الوصفية:

وتبدو استراحات بامتياز؛ فالسارد يخرج من ضغط المكان ووطأة زمن المستشفى الثقيل إلى الوصف الضافي الدقيق.

ومن القطع الوصفي، قطعة في وصف زاهر المعلول تقدّم إضاءة ضرورية للقارئ، يقول:

""زاهر" كثير الفكاهة.. يقتنص نوادر الضحكات ويعبث ببعضها، أو يملحها كما يُقال، لكنه حين ينكفئ مع أوجاعه وحيداً..حيث الصحة لا تُعار، فإنه لا يحاسب أي سبب خارجي بما في ذلك مضاعفات ونوعيات المرض، وإنما يعيد الأمور إلى التزاماته التلقائية بفعل التكرار في حرصه على تطبيق نصائح وجداول المقتضى الطبي... لقد أصبح من البديهي أن يهتم بعلاجاته أكثر مما يهتم الناس بمأكلهم ومواعيد عملهم ونومهم، وليس سهلاً عليه أن يفرش أسنانه بقدر ما هو سهل أن يوخز نفسه بإبرة الصباح والمساء" (٧٠).

ومن القطع الوصفي الطويل ماجاء بعد استرجاع خارجي طويل أيضاً لزمن الطفولة، ومنه هذا المقتبس:

"في الصباحات الجميلة، تلك التي تنبعثُ من نسيج الخلايا، ومن ألياف الأعصاب الدقيقة كالشعر الأبيض المذهب، ومن البياض المعلّق فوق السرير، والقطن والشاش، والضماد، ومن الزهور البيضاء، وابتسامات الأطباء والممرضات وملابسهم، ومن أسنان العاملين وأظافرهم، الصباحات التي ترى فيها أرض الغرفة وسقفها وجدرانها، وحبال الستائر، وصوت جرس الاستدعاء، وخراطيم السماعات في رقاب حامليها، وراقصات الباليه في الموسيقى المتقنة كغابات الثلج وأنابيب البلاستيك البيضاء الشفّافة، التي توردإلى العروق في الجسم الآدمي محاليلها..." (٧١).

وبعد هذا الوصف الطويل يعود إلى زمن بتر قدمه!

هذا التداخل الذي يميّز هذه الذكريات والاسترجاعات؛ فالسرد الآني يراوح محله، بينما تتنقل الذاكرة بين أزمنة كثيرة، والوصف يطول لوصف الأطباء والمرضى، وهو وإن كان وصفاً خالصاً، لكنه يشكّل صورة المكان، بُعداً عمودياً يضاف إلى البُعد الأفقي الذي يشكّله السرد، ويأتلفان لتأثيث فضاء هذه السيرة الخاصة.

٢-وقفات التداعي الحر:

وهي وقفات يغلفها الحزن والضغط النفسي الكبير، وهي أهم من الوقفات الوصفية؛ حيث تتضح فيها وطأة الزمن الثقيل، ولاهتمام السارد بها فإنه يكتب بعضها بالخط الأسود الغامق(٧٢).

قبل زمن البتر، وبعد مرور الطبيب الذي لم يجد خياراً غير عملية البتر، يقطع السارد زمن السرد بتداع حر وبالخط الأسود الغامق:

"مساكين.. تعلموا في أكاديمياتهم أن يواسوا مرضاهم، أو يضيفوا إلى نفسياتهم بهارات من التزوّد بالصبر والاستسلام كالوقوف الحائر أمام موصدات الأبواب.

يا للغباء.. مم يخاف أولئك الذين يرون الموت يعابث عروقهم، ويخاطبهم على أكفهم منذراً بالتهديد بين غمضة وغمضة؟!..." (٧٣).

ويتميّز أحد هذه التداعيات بحوار داخلي طويل وساخر سخرية مريرة، عندما خضع للتنويم إثر جلطة أصابته:

"في الغد.. الغد القريب كامتداد اليد في الضباب، سيدخل مرحلة لا يعلم نهايتها، ولا يدري.. كم تحتاج من طاقة الذهن والتكيّف، ولا كيف تُغسل أو تُكوى أو تُجفف الدماء... تنقية الدم من الشوائب، والسوائل، الشوائب!

- شوائب ماذا؟

- شوائب ما يزيد في الدم من سموم.

- لم يتعاط السموم؛ لا مأكلاً ولا مشرباً؛ ولا فكراً.

لا تخلط أفعال زيد بأفكار عمرو.. قلنا سموم تحتاج إلى تنقية، ولا بد من خضخضة الدم.. قطرة.. قطرة وإلا..

- اسمعني جيداً.. أنتم تجيدون التنظير، وترون أن بهجة الحياة وجمالها خُلقت لكم أيها الأصحاء، لكنكم تخافون من وخزة بعوضة، تخافون منظر الدم... "(٧٤).

السارد يحتوي المرض، ويعايشه، ويحاوره، ويقاسمه الألم والسخرية، إنه يحتوي التجربة ويدوّن آلامها وعناءها، ليصبح المرض لديه وثيقة انتصار يشهرها أمام من يدّعون أنهم أصّحاء:

- "كأنك تتحدّى يا مريض!

- ألم أقل.. إنك مسكين، كل أمر لديكم يعني التحدي أو الاستسلام مقياس خاطئ.. أنت تخاف، تدعو الله ألا يجعلك في مكاني، أتعلم لماذا؟ لأنك جاهز للاستسلام"(٧٥)

ومن التداعيات الطويلة التي تنتهي إلى نتائج غريبة، ما جاء عند دخول عامل إيصال الوجبات في المستشفى:

"... وجبات المرضى مهما اختلفت أصنافها إلا أنها شهية وتبثّ روائح طيبة.. (هل يضعُ العامل عينيه دون تردد على هذا الصحن الدائري الموزّع بأنواع الطعام المقننة.. كم عدد المرات التي يقمع فيها رغبته كي لا تمتدُّ يده إلى ثمرة فاكهة أو قطعة لحم مشوية... ربما بعدد الأطباق.. بعدد المرضى.. بعدد ساعات المجاعة الهائمة في بطون منتظري معونات البلاد الصناعية.. حين تقدّمها مشفوعة بالثناء والدعاء

والأكف الممدودة والأزلام المجوّفة الفارغة.. تصحّر.. احتباس نزول المطر في القارة السوداء، امنحوهم أقل من الدعاية بثلاثة أرباع حجم الصورة الإخبارية... انثروا فوقهم البقر الهولندي "نيدو" سريع الذوبان.. يجعل رضعهم " يكبرو.. يكبرو" القشدة ذات التاج الذهبي تقلب لون جلودهم بيضاء بشعر طريّ لامع يتخصّل فوق جباههم.. "دلّل نفسك مع زبدة البقر التي يركبها مالك الأبقار كأعزّ معشوقة في سيارة رولز رويس" الله.. الله، هللو.. يا، مصنع السكر في السودان لا ينتج... وحتى مصانع السكر في كوبا مغفلون، ليس بالسكر وحده يحيا الإنسان... لا أظنكم راضون عن حمّى الملاريا، تهشّم دماء الأفارقة..." (٧٦).

وبعد هذه الوقفة يعود إلى العامل الذي نصحه بتناول الأكل قبل أن يبرد!

قد تبدو هذه التداعيات متخبطة لأنها تتداعى إلى أحداث غير مؤتلفة أو متفقة مع موقفه الحالي؛ أحداث الفقر والجوع والرأسمالية في العالم كله من غربه إلى شرقه، لكن قارئ مشري، يعرف أن هذه طريقة من طرق السرد لديه؛ التي يحاول من خلالها أن يقدم قضيته الكبرى، عن طريق التداعيات المختلطة التي يستخدم فيها الصورة الإشهارية، والإعلانات التليفزيونية التي تختزل كثيراً من الجُمل التي يمكن أن تعبّر عن نقمته من السيطرة العالمية على الدول الصغرى والفقيرة؛ فهنا يستخدم وصلة إعلانية قديمة في التليفزيون عن حليب نيدو الذي يأتي من المزارع الهولندية، ويقتبس أنشودة دعائية "يكبروا.. يكبروا" ويتبعها بصورة أخرى من إعلان للزبدة الدنماركية، حين يفاجأ المشاهد بالبقرة تركب سيارة الرولز رويس الفخمة، هذه الصورة – كما يقول سعيد بنكراد– "تعادل ألف كلمة؛ فهذه الصورة بالغة الأهمية؛ فهي الأساس الذي تقوم عليه الوصلة الإعلانية؛ إنها أداة الإقناع والتأثير والتوجيه داخلها" (٧٧) وهذه الصورة تشبه صورة أخرى في إحدى قصصه القصيرة:

"في الصحف: الموقف صعب، شديد.. معقد!

في القلب: الموقف صامت، مخجل.. يستفز.

ثمّة أخبار تتحاشد على "ترويسات" الصحف

ثمّة حركة تتدفق بقساوة من أجهزة (وكالات الأنباء الغربية)

وفي التليفزيون: (وقد خرج أكثر من خمسة وعشرين ألف متظاهر يحملون لافتات الصمود)

في الإذاعة: "طلعنا عليهم طلوع المنون فصاروا هباءً وصاروا سُدى"

أغانٍ عاطفية في العيون السود..

مسلسلات إذاعية غرامية جديدة.

أمي في البيت قالت، تشير بكفيها نحو صفحة "التليفزيون": "الله ينصرنا على الكفار والنصارى..."

-: يا عالم ظلمتمونا في كأس العالم لكرة القدم" (٧٨).

هذه السيرورة التواصلية في الميدان الإشهاري تخضع في حالات السلوك اليومي لقصد مسبق، لا يمكن فصله عن غاياته التي يريدها السارد؛ وبذا فإن مردوديتها وثيقة الصلة بالانسجام الممكن بين الإرساليات اللفظية السابقة وبين الصورة، ولهذا الانسجام وظيفة مهمة داخل الصورة، وهو الضمانة على جودة التلقي، وجودة الفهم(٧٩)، وهذا ما أراه هنا، وفي المقتبس السابق.

لم يزره أحد في عشرين يوماً مضت، ويأتي التداعي هنا طويلاً يستطرد إلى الصحراء العربية وأحد صعاليكها:

" (يا للخجل.. انفض ذاكرتك يا...)

(محظوظ بصدفة الأصدقاء الذين يدخلون من هذا الباب العريض.. لا يكاد يهدأ صريره.

الله؛

إن كان الصخر لا يخجل من حبوب الماء ساعة المطر.

الله..

إن كانت قافلة في صحراء "النفوذ" لا تحثّ السير على أمل في لقاء واحة قريبة.

الله؛

إن كان الصعلوك "سليك بن سلكة" قد غشيت عيناه فضل بوصلته ليهتدي.. في ليل مغيم بنجمة "الطارق" وقد أغار خفية على قطيع لـ "زرقاء اليمامة"..." (٨٠).

و "سليك بن السلكة" له مع مشري في سيرته هذه وقفات عديدة كما أسلفت، وهنا مع "زرقاء اليمامة" ويبدو الجامع بين الثلاثة واحد؛ النفي والتغريب وعدم التصديق:

" إن الأشجار لا تمشي، لكن عين زرقاء لا تكذب ولو كذّب قوم اليمامة نفاذ بصرها.

الله؛

إن كنت يا ابن سلّكة قد سقت جرباء الإبل إلى فقير "بني تميم" حفيد الطائي.. فأطعمك عشاء فروخه وشكر لك منحتك السّلّكّية؛ دون عيب في عطيّتك... وقعت عليها يدك في ظلمة غابت فيها القمراء، فكانت عند التميميّ أغلى ما يناله الفقير المترب..." (٨١).

ويعود بعد هذه الوقفة إلى النقطة التي انطلق منها، باب الزيارة في المستشفى.

وتتوالى التداعيات إلى السّليك بن السّلكة كثيراً[٨٢].

ثالثاً- زمن الترجيع:

الترجيع أن يتضمن النص جزءاً يرجّع أي يكرر مضمون الكل، ويشكّل نوعاً من رجع الصوت بالصدى، أو نوعاً من صورة المرآة المحدّبة التي تختصر فضاء الرواية الواسع في إطار صغير محدود يستوعبه القارئ مباشرة [٨٣].

وهو عبارة عن دوائر زمنية صغيرة، يحدد مبتدأها من منتهاها، وتأتي اختزالات أحياناً لأزمنة طويلة سابقة امتدت لصفحات من زمن السرد، وتأتي غالباً في فقرات قصيرة موزعة بين الدوائر السردية المتلاحقة، ومنها ماجاء بعد أن أخبره الطبيب بأنه سيركب له طرفاً صناعياً:

"قبل دخوله مستشفى العاصمة التخصصي، كان قد نُقل بالتحويل من مستشفى المدينة الساحلية قضى به شهوراً ثلاثة، كان جرح القدم صغيراً فترعرع وحفره الطبيب إلى أن ظهر العظم، ولم يلتئم.. كان الطبيب ودوداً حميماً، ونشأت بينهما صداقة... كان يدخّن قرب السرير ويشرب الشاي ويتبادل معه الآراء..." [٨٤].

ينهي هذا الترجيع بعودة إلى زمن الطفولة.

وقد يتضمن النص جزءاً يرجع أو يكرر مضمون الكل، كما أن في المغزول بعض من مضمون قصصه القصيرة، فهو يعد ترجيعاً بسيطاً يقوم على تشابه بسيط، وهو ترجيع متكرر يقدم ترجيعات متشابهة يتداخل الواحد منها في الذي يليه.

ومن الترجيعات التي تكرر الحكاية كلها قوله بداية الفصل الثاني:

"لماذا تأخذ الوجوه في ذاكرة المريض بعد صراعه المباغت لـه مـع حالتـه شـكلاً أليفاً؟

سؤال كان يطارح "زاهر" طويلاً، وفي امتداد شبه مستمر، ويهجـم عليـه أحيانـاً، على هيئة حميمية، عندما ينقطع مع ذاته، وهو يستريح من الانصراف إلى مقارعة الألم.

لقد عرف تماماً أن المرض ليس قبيحاً، إلى الحد الـذي يصـفه النـاس بـالوحش المخيف...

الحقيقة أن "زاهر" عرف وبتأكيد المجرّب أن الناس الأكثر تخوّفاً من المـرض، هـم أولئك الذين يرمـون أنفسـهم مسـبقاً وباسـتعداد طـريّ للشـفقة ولاسـتجداء رعايـة الناس"(٨٥)

ومثله بعد استرجاع على سرير المرض:

"توقف تحت دفء اللحاف ...أورد في أطرافه الباردة انتشاءً مبهماً فاختار قلبـه حميم الحجر والطين ونفح الأرض بعدما تتأهب بعد شوي الشـمس للقطـر، ويكـون لاختلاط حبات المطر بالتراب رائحة ... قريته التي نقض الاستهلاك الجديـد صـوف غنمها من مغزل أمه، وأيبسَ الحقول والأشجار وجلود البقر والحمير، وغـدا الفـلاّح غير فالح، والجمّال بلا جمل، وتجـردت الجبـال مـن أسمائهـا وولاء وقايتهـا للرعـود المخيفة وحماية الملتجئ" (٨٦).

هي أربعة أسطر، لكنها تختزل حياة القرية بعد دخول المدنية عليها.

وهذا الاقتباس يرجّع كثيراً مما ورد في الفصل الأول كله ويلخّصه.

ومن الترجيعات الكبيرة المتكررة التي تعيد الحكاية من بداية البتر، قوله:

"قلنا:

إن الطبيب الذي رافق "زاهر" في مرحلة بتر قدمه بمستشفى العاصمة.. لم يكن على علاقة حسنة بمريضه، مع أنه تقاسم معه ذكرى وميضه حول المدرسة الإعدادية التي درسا بها دون ملاقاة... يودّ "زاهر" أن يقول شيئاً... لم يجد مجالاً للقول فآثر أن يعابث قوله فيما بين منخريه وبلعومه دون إخراج، وكان الطبيب قد وضع عن يده "الطبليّة" على طرف من مساحة السرير، وكأنما ينفح بها عن وجه الماء... بعد وقت لا يزيد عن فرقعة الأصابع، اندفع نحو الملف، فتحه بعصبية:

"اسمع يا "زاهر".. يا أخي أتعبتني معك.. السكر عندك مش مضبوط!!" (٨٧).

ومن الترجيعات المكررة والتي تكرر أيضاً جملاً بعينها، حتى يكاد المتلقي لا يكاد يعرف هل يقرأ شيئاً جديداً، أم أن هناك خطأً طباعياً ما يعيده إلى الصفحة نفسها، لولا عبارة "قلنا":

"قلنا..

إن الصباحات النقيّة كالحليب..

الحليب النقي الذي لم يعرف بعد الشاي والقهوة، ولم يكن قد تعرّض لأي اختلاط يعكّر بياضه الطازج، حين يكون متماسكاً كضفائر لا تراها عين الشارب... ذلك الصباح الحليبيّ الصادق.. كان "زاهر" الوحيد في هذه القلعة الصحيّة... الوحيد الذي دخل من الباب الاستثنائي... وبقي حظيظاً منعّماً بوقت ربما تجاوز فيه الزمن ذاته، أو تجاوزه الزمن، الزمن بساعات أربع، يزدن أو ينقصن قليلاً –على ذّمة الحي– وربما خلع نفسه، أو أُخلعتْ خارج حركة الزمن، الزمن حين يبقى محتجزاً بالمكان وبحركة الناس... الزمن.. لا يمكن أن يُقال إنه كان جامداً في ذاكرة "زاهر"" (٨٨).

ويبدو في هذا المقطع الإحساس الشديد بوطأة الزمن الضاغط عليه، والذي يحاصره في غرفة صغيرة، ليس لها إلا مدخل استثنائي واحد هو مدخل الطوارئ.

تتكرر دوائر زمنية صغيرة داخل دوائر كبيرة، تحف الحدث الوحيد، وبعضها كما أسلفت من قصصه القصيرة، وكأن "المغزول" تكثيف لكل تجربته القصصية.

رابعاً- أزمنة خارج الزمن (زمن الهذيان و زمن الغيبوبة):

والأحلام تكون غير محدودة بحدود الزمن بقدر ما يكون اللاشعور مهيمنا عليها؛ فاللاشعور غير خاضع للزمن أو لقوانينه، كما أنه ليس به إحساس بالزمن، والعمليات اللاشعورية غير مرتبة زمانياً فهي لا تتأثر بانقضاء الزمن، وليس لها إحالة إلى الزمن نهائيا، ولزمن الحلم نصيب من الأزمنة التي تضغط بثقلها على نفس السارد؛ فالليلة ليست يتيمة دهرها في عمر "زاهر" فقد زحفت بساعاتها الطويلة على عينيه المنفرجتين، حتى لكأنهما لم تطرفا، فقد تكالبت أوجاع لم يعرفها من قبل، مع أحلام تنازع المتعب في غفوات الثواني:

"رأى أنه يُحاصر في غرفة مظلمة، يضيق نَفَسه في مكعب لا نافذة بحدوده الستة ولا باب، فجأة يتأرجح قرب قعدته جمر بأحجام كبيرة على شكل جماجم قديمة تكشّر أسنانها في قدمه المفصولة... قليلاً تحرّكت القدم المفصولة وراحت تقترب منه، حمراء تقطر بالدم وبسائل أبيض يشبه الحليب أحياناً... ثم برزت أمامه صورة قديمة رسمتها يدٌ ماهرة، امتلأت منها عيناه ووجدانه في طفولته... الوحيدة في كل جدران البيت، وكأن الدم الذي يقطر متخثراً من فخذ الفارس وهو على فرسه.. يكاد يسيل من أسفل الصورة إلى قاع الأرض، وقد كُتب فوق رأس الفارس وهو يحمل رِجله المقطوعة... كان الدم من الصورة يقطر، ويسيل ممتداً إلى الجماجم المتوقدة أمام مقعده

بالغرفة، يحاول أن يبحث عن فتحة ينفذ منها فلا يجد قدمه المفصولة تتحرك وتحدثه بصوت يشبه وقع الخُطى على البلاط.. تؤنبه على موافقته للأطباء ببترها..." (٨٩).

إن الطريقة التي يُعامل بها الزمن في الحلم تبدو لا منطقية، لكن المهتمين المعاصرين بالتحليل النفسي يؤكدون أن هذه الطبيعة اللازمانية إنما هي أمر نسبى وليس مقصوداً منها حذف الزمن كخبرة أو مفهوم سواء بالنسبة للأحلام أم بالنسبة للاشعور؛ فاللاشعور لا يطبق تماماً على الأحلام وهذا لأن عملية الحلم تأخذ مجراها فيما بين الوعي واللاوعي، كما أن الحالم أثناء تذكره للحلم غير الخاضع للزمن غالباً لا يستطيع أن يرتبط بأفعال الشعور أو الوعي، فإن الحلم يجب أن يدرك في سياق الزمن حيث إن عليه أن يصل إلى الشعور أو الوعي (٩٠).

إذاً فهناك زمن آخر مهيمن على الأحلام أو سائد فيها، زمن تختلف قوانينه عن قوانين الزمن المهيمن أثناء اليقظة، فالزمن ضروري للوعي؛ والزمن في هذا الحلم ظهرت فيه كل الاحتمالات.

وعبدالعزيز مشري في سيرته يعوّل على الأحلام، ويقيمها أحياناً واقعاً مستقلاً وفاعلاً في حياته التي قضاها متنقلاً بين المستشفيات؛ فصوّرها وكأنها كابوس اعتاد على التفنن للهروب منه!

يقول:

"لماذا يكون الهروب جميلاً في المستشفيات عند "زاهر"؟ لماذا يكون كالعِتق المؤجل، أو الانفكاك الموهوم بعدم العودة أبداً؟

الهروب عند "زاهر" لم يكن مبرراً بـ "لماذا وكيف" وأخواتهما.. لقد كان يعني بالدقة: الحرية" (٩١).

أما زمن الغيبوبة، فهو زمن عجيب، يختلط فيه الواقع بالتهويمات، وتتداخل فيه الأزمنة، ويستغرب القارئ كيف استطاع السارد أن يحكي ما يراه ويشعر به في هذه الحالة!

ويدخل السرد الغيبوبي ضمن هذه الوقفات السردية، بل هو أكثرها إبداعاً وتفلّتاً من حدود الزمان والمكان، ومع كل ذلك فهو أقربها للمرض بالطبع، بل هو قلب الأزمة المرضية، بعد إجراء البتر، نتخيّر من هذه الوقفات أكثرها تنوعاً في التداعيات وحميميّة:

"يسميها أهل الطب "غيبوبة سكّرية" ليسموها كما يحلو لهم أو يملح أو يمرّ.. لا خلاف، لقد كانت تعني عند "زاهر" أن كل المتحركات فيما يحيط به، من قريب أو من بعيد جداً.. النفي خارج دوران الزمن... إنه في مكانه بطوارئ مستشفى بشارع ما.. بمدينة ما.. على سرير أبيض ما.. لم يحرك رمشاً.. ولا طرفاً.. لا لساناً أو حنجرة.. في لحظة لا تتقدّم قيد ذرّة ولا تتأخر.. جميع أشلاء المحيط، وغاب غياباً غير الذي قال عنه "نيتشة" حلم جميل، ليس جميلاً ولا قبيحاً، ولا وردة ولا سكيناً، كان خارج كل ذلك.. خارج كل الميتافيزيقيات، خارج تصورات حضور المحاسبين والوكلاء ومعددي الأخطاء والحسنات.. حيث لا شيء، ولا شيء يأتي بشيء، العدم ليس "أزرقاً" كما يؤكد إمام الفلاسفة "حسن سعيد" الصديق المنسي.

لقد أصبح العدم عدماً معدوماً لا يمكن وصفه، ولا التنبؤ بما يؤكد له أية صفة.

الصباح كان حليبياً في اللون والطعم والرائحة المماثلة لرائحة أنوف البقر.. تلك التي ركبوها في المعامل؛ لكي يعززوا بذباب البقر الأفريقي كل الكائنات الأفريقية؛ يرونها مريضة ومضرة بالدماء الزرقاء، وأولها الكائنات البشرية !

"زاهر" حيث تبدأ ذاكرته تستيقظ خلاياها كالنبات المصوّر بالحركة البطيئة بمصورات العلماء المتحركة، تستيقظ بادئة بحاسة السمع، التصوير السمعي، يسمع الأصوات فيرده بحلم إلى مصادرها المعرفية لديه... تبدو الأشياء حليبية صافية، أو كما لو أنها جميعاً تحت شرشف أبيض كبير، يسيل خفيفاً قرب نافذة مشمسة.

ما أبهج الأشياء !..." (٩٢).

تبدو الغيبوبة لديه هنا على درجات، وتتناسب مع حالة الاستمرار في التأمل دون انقطاع، لتتحقّق لا محدودية الزمان والمكان؛ وعندما يبدأ السارد بالاستيقاظ، وبين الغيبوبة واليقظة يبدأ بحاسة السمع التي تعدّ آخر حاسة يفقدها الإنسان عند النوم أو بعد الموت؛ ليلتقط بها أصوات من حوله:

"صحي؟ زاهر.. زاهر.. يا زاهر..أتعرفني من أنا؟"

يرد بصوت متباطئ متردد وهو يرى الطبيب بلباس حليبي:

- "أنت قِربة حليب.. قِربة شفّافة ممتلِئة بالحليب"

- حليب!

"زاهر" يتفتّق بالصحو، يضحك في داخله، الأشياء تأخذ صبغة الحليب؛ جميل، يودّ لو تبقى جميع الأشياء تحت شرشف كبير كالنهار؛ تقوم تحته الثوابت والمتحرّكات.

يحرّك جفنيه.. تتحرّك أصابع يديه.. يمسح على شاربيه العريضين.. ثم يتجرّد بكفاءة من قيوده الاجتماعية والجنسية ومن الوصايا والمحاذير وضوابط العيب والحرام:

- "اسمحوا لي.. هل رأيتم غزالة عارية؛ مغطاة بالحليب تمر من هنا؟! "(٩٣).

تبدو ردود فعل السارد متفقة مع مشاعره، وغير متوافقة مع العقل والعرف؛ فالروح المتوثّبة المحبة للحياة تظل كما هي، وتملي على العقل رغباتها، وهو يصنّف الأصوات كما تتناهى إلى أذنيه، ويعبّر عنها كما يحلو له، وهل من يهتم بما تمثّله لشعوره؟ لا أحد بالطبع يهمه ألمه وهو يقاسي ما يقاسي من آلام الغسيل الكلوي، لا يهمه ما يستعر في أعماقه من صور غريبة، يقول عنها:

"... يعنيك أنك ترى ما يراه الحالم النابه الغائب المختلط بالنّعاس الدائم بالغيبوبة المسترخية في القلق والخوف والاغتراب والهلوسة.

قطارات شديدة السرعة والضخامة، تمر بعجلاتها الحديدية فوق الضلوع، لا إنها خيول كثيرة بسنابك عليها أهلّة حديديّة.. بل مدافع في فتوحاتهم الإسلامية.. ما أول الخيط؟ هذا الضجيج الطويل الذي تكثر في تفسيره المخيّلات" (٩٤).

إنه يخشى هذا الزمن، الذي لا يعرف له بداية ولا نهاية ولا يحدّه حدٌّ معلوم، يقول:

"يحتلّه خوف بعد أن يقضي زمناً لا يعرف له قياس، يصرخ بلا صوت؛ لقد انطمس صوته كما انطمس بصره في هذه البئر الأفقية المظلمة، لا حياة في الصوت؛ لا حياة لأية حركة من أحد.

ليل بعمق دخان أسود... هدوء قاتل يُسمع فيه أنْفَاس السرير المضغوط بأكياس الهواء... الصعوبة في معرفة نهاية الزمن المظلم الذي يقع في عمق لفافته السوداء.. الزمن هذا ما يشكوه الآن، الزمن..." (٩٥).

هذا الزمن الثقيل التي يريد الهروب منه يبدو متداخلاً مع أصوات التلفاز والأغاني التي كانت ربما بعض خيالات:

"مالنا ولهذه السينما التي نسمع هدير أصوات ممثليها ولا نراها... أصوات متداخلة لممثلة معروفة تتقايض مع رجل له صوت ضخم حول تجارة المخدرات!

صوت سلسلة غليظة الحلقات، ترتطم فوق صلابة الأرض، شاحنة عسكرية تحمل جنوداً يرفعون بنادقهم، ويهتفون بحدّة "فري دووم.. دووم..دووم" ما هذا؟ إننا في زنزانة تضيق بأنفاسنا!

حقن برؤوس طويلة.. خوازيق.. سواطير.. صوت فيروز ينبعث في صحراء بعيدة "راحوا يرعوا غنمهم.. والعشب على ضلوعي" ينقطع الصوت.. عيناه تدمعان "فيه باب مهجور.. أهله منسيين" عيناه، ما الجديد.."قالوا لي إني عشقان"، "أتاري الصبح عالي"..."[٩٦]

هنا تتداخل الأغنية بالقصائد بالسينما بكل ما يفرحه في عالم الأصحاء، بهذه السويعات التي يقضيها بين اليقظة والإغماءة، هذه اللحظات المنفية من الزمن التي لا يسمع فيها إلا هدير أجهزة الغسيل وهي تعبث بدمه، أراد أن تختلط بأصواته المحببة التي ربما كانت تتناهى إلى سمعه وهو في هذه الحالة لتبعث فيه شيئاً من حياة!

إلا أن أحلامه الهاربة بين الغيبوبة والصحو تبدو واقعية في وعيه، فهي لم تكن من فراغ؛ فالصور التي يراها من طفولته وشبابه غزلها وعيه سابقاً، يقول:

"يا رب الطفولات:

لماذا لا تأتي فتافيت الطفولة والصبا الطازج إلا عندما تبدأ تنسلُّ على بطء من رحِم الغيبوبات؟ وكأنك موعود بلا وعد مع فيلم عريض بين الفوسفوري والظلام وقتما تغتال يقظتك الغيابات الذهنية الطويلة والقصيرة."[٩٧]

وتبدو الغيبوبة التي تلت عملية البتر الثانية للساق اليسرى محمّلة بكثير من الألم و كثير من التداعيات المبكية التي لم يغب عنها السُّليك بن السُّلُكة الذي اتخذه دليله للصحو الارتجاعي، وتتنوّع هذه الغيبوبة بين الإدراك لما يدور حوله، وبين الغفوة المدركة، يقول: "كان "زاهر" يسبح بلا قدمين بين الإغماءة الحالمة والإغفاءة المُدْركة أحياناً... تثرثر الخيالات في الغفأة المخدّرة، ويلتقي "زاهر" بأناس عرايا يقهقهون ويغنّون بأغان لا يفهمها.. بعضهم يقضم أطراف الآخر.. رجل سمين يقايض زاهراً؛ لا يدري على ماذا...

يا رب.. يستجدي زاهر.. اسقوني.. اسقوني!

تقول الممرضة: ممنوع!

يفهمها فالماء لا يليق بحالته، وهو مقيّد بالشحوب، والشحوب يخشّب بلاعمه، وبلاعمه مستبدلة بالبلاستيك، والبلاستيك ليس إلا أنابيب صغيرة وُضعت للطعام القليل السائل!

يا رب الغائبين، ورب الغيبوبيين، ورب الغرباء والمعالجين والموتى، ورب العاريين والمستترين!

كان زاهر يحلم ويفجع ولا يدري إن كان في الغيبوبة أو الصحو.. يصرخ مفجوعاً.. ويظن صوته واصلاً.. فيطلب الماء " (٩٨).

وتتلو هذه الغيبوبة الطويلة كثيرٌ من التداعيات، لكن طريقة سردها هنا بَدَت مفككة في لغة متشظية هي أقرب ما تكون للغة الأحلام والتأملات الشاردة، وهذا أمر طبيعي والحالة هذه، يقول:

"الله.. الله، قُلْ للجميلة في الشيلة السوداء لا تتشرشفي.

إنّ البِساس لأنجاس ملاعين.

ما لك يا ابن البلاد تخلط أوزان الشعر بأكيالها، وحنطتها بشعيرها.. ما لك تئنّ بين غمدة سيف النّهار وإغمادها ليلها.. الله!

تلمّس الآن وجهها النّهاري بين أصابعك الصغيرة.. أنظر الآن "مديحة كامل" هي بلحمها ودهن شحمها وصوتها الأجشّ الدافئ تلج في حلمك، تقول بالصوت المستعرض "عايزة مكيِّف في الخيمة"" (٩٩).

هو يعي هنا أنه يحلم، وللغيبوبة عنده فلسفة معيّنة، وهي على أنواع أولها الغيبوبة بعد عمليات البتر، حين يكون تحت تأثير المخدّر، وهي التي جاءت سابقاً، تليها الغيبوبة السّكرية التي عندما تمتدّ في الزمن تتحوّل تدريجيّاً إلى الموت، يقول:

"ليس جميلاً أن ترى نفسك حيّاً بعد أن تكون قد سجّيت، ونودي بأمّك لتحملك إلى مقبرة البيت الذي أنشأتك فيه، الموت لا يمزح، ولا يمكنه أن يفاوض دماغك؛ فكيف تتخيّل أنك ميّت.. هل بلغت بك الغيبوبة الطويلة حدّاً جعلك تجد نفسك ميّتاً؟

عجباً.. غيبوباتك السّكريّة عديدة أغلبها جاء على تلافيف دماغك لنقص شديد في "الجلوكوز" وأنت عنيد في التصالح مع الغذاء... تستأهل غيبوباتك متكررة ثم تلف في الذاكرة... لا تقل أنك تتصوّر الأكالين كالبقر.. الجوع كافر لا يعرف الحلال... الغذاء إذا كان سينقذك من السقوط في غيبوبة فلماذا لا تتقيها؟!" (١٠٠).

هو هنا يلوم "غَزْلته" التي طالما أوْدت به إلى المهالك؛ فهو يعرف مرضه وعلاجه، لكنه لا يهادنه ولا يستجيب له؛ فهو لا يعرف إلا حبه للأُلفة والاقتراب من البشر في حالات مرضه، إنه يريد أن يكون بشراً، لا بهيمة –برأيه- لا همّ لها إلا الأكل!

والنوع الثالث غيبوبة يعيشها بدون عيش –على حد تعبيره- غيبوبة غياب مختلطة بامتزاجات لا قرابة لها بالوعي، هل يجرّب الحي كيف هو الموت ثم يعود إلى الحياة؟ لقد حدث ذلك لزاهر المعلول.

يقول:

"لم يرَ شيئاً ولا يدري عن شيء.. إنه نهاية يهرب منها كلّ النّاس، مع أنها تعني "اللاشيء".. تلك النقطة التي لا وجود لها في الذاكرة... الموت نهاية حتمية تقييمها يأتي في مفهوم الحياة قبل أوان نهايته..."زاهر" أدرك ذلك دون اعتماد، هل قال كلمته؟

ليس بعد.. إنه يحب الحياة بآلامها وغيبوباتها، لكنه لا يخاف الموت. لكنها تحوم في الذاكرة، اختلاطات ملأى بالصور المتناقضة، غير أنه لا يسلم كل مساحة ذاكرته لها، وذلك لنجاته الواعية أخيراً" (١٠١).

إن "زاهر" لا يخشى الموت؛ فهو النهاية الحتمية للأحياء، لكن ما يهم القارئ هنا هو هذه الاختلاطات المتناقضة التي يرى أنه يقع أسيراً لها، فهو يخشاها أكثر من الموت نفسه.

ويشرع زاهر المعلول الباب لغيبوبته ليتحدث بلسانها واعياً عن تراكمات سياسية واجتماعية في الوطن، فهو يقرر أن يقول بذاكرة الغيبوبة ما لم يستطع قوله وهو بكامل وعيه، يقول:

"ليتحدّث "زاهر" بذاكرة الغيبوبة وليس له في ذلك جرم.

هل أكل الرجل المرأة في أمريكا لأنه يراها ويخلو بها في شتى أمور الحياة؟!

"زاهر" لم ير ذلك أبداً.. فأين الخطأ في هذا الزمان، هل هو في الازدواجية، وما ذنب الناس المتعلّقين خلف الأستار؟!

لندع "زاهر" وأحواله، فقد قال في ذاكرة هلوسته.

يا رب.. هل جعلت العقل والسؤال في أناس دون آخرين؟!

"إن الحق لا يرضى بالظلم، وهو الحق" لماذا لا يكون لـ"زاهر" أن يقول بعض ما في ذاكرته الغيبوبية؟

اليوم هو زمن السؤال؟!

أمور يناقشها عقل وذاكرة "زاهر" بمرجعية الغيبوبة، وسأل:

هل كرامة المرأة وإنسانيتها تكمن في لُفافة؟

حكّ "زاهر" ذاكرته وتساءل:

كم من الأغلاط تمارس باسم الإنسان؟!

"زاهر" يتساءل ببراءة:

ما مصير الأطفال في الخارطة العربية؟!

إنه لا يحب أن يسأل ذاكرته المهلوّسة عن مجازر الجزائر... سؤال من ذاكرة "زاهر" الغيبوبية:

والفلسطينيون.. هل يذهبون إلى محتكم كـ"الشيخ شعراوي"

- هذا ليس شأنك.

* والعراقيون يا سيدي؟

- ليس لك شأن بهم يا "زاهر" !

* والسودان سيدي العقل؟!

- ليس لك شأن بهم !

* والأطفال الفقراء بـ"مصر" و"لبنان" و"هنا"؟

- هـذا شـأن لا يعنيـك.. و "هيئـة الأمـم متكلّفـة، كُـلْ إفـراغ أمعائـك واصمت!..."(١٠٢).

لا يفتأ يذكّر القارئ أنه يهلوّس حتى لا يؤخذ عليه الكلام الـذي يهـذي بـه، ويذكّر بأن الزمن عنده زمنٌ افتراضيّ والمكان كذلك؛ لذلك فهـو شـاء أم أبـى لـيس موجوداً حقيقة، فوجوده محض افتراض:

"إن الزمن ليس بياض نهار وسواد ليل فقط.. إنه مقدار كثافة الحسّ به... وأما المكان.. فلم يجد لـ "زاهر" معرفة تعيينية له.. لم يعد يعلم إن كـان في غرفـة، لا يـدري عن موقع بابها ونافذتها الوحيدة، في ولاية، في مدينة، في بلـد بعيـد يـراه في الخـوارط الجغرافية والسياسية، أهو في أمريكا أو في الرياض عاصمة بلده، أو في الظهران، أو في جدة، أو في الجنوب، بقريته الجبلية!

لقد كان فيها جميعاً وفي غيرها من الأماكن..." (١٠٣).

هذه الهلوسة التي أنهى بهـا رحلتـه العلاجيـة ورحلـة الحيـاة، استشـرف فيهـا مستقبل الأمة وما نحن عليه الآن من صراعات، وكأنه يعيش بيننا، يرى نفسه يشـاهد أحداث فيلم سينمائي طويل، هو الفيلم الذي نعيشه الآن في زمن الثورات العربية:

"... رأى أنه في "مدينة إسلامية فاضلة" لـيس فيهـا عنـف أو تصـفيات فكريـة أو جسدية، لم ير فيها بنادق ولا فؤوس ولا سيوف ولا عصي ولا متفجرات، ولا ثيـاب قصيرة ولا لحى ولا حملات تحطيمية.. لم ير إخواناً باسـم الإسـلام... لم يـر في "مدينـة الإسلام الفاضلة" عمارات تسقط عياناً نهاراً "الريـاض" و "الخـبر" تحـت عبـوات الـتفجير القوية..." (١٠٤).

هو يصبو إلى هذه المدينة الفاضلة التي تخلو من كل ما ذكر، وفي كل ذلك نجد أنه ينبئ عن الغيب!

يقول: "رأى "زاهر" في هلوسته العلاجية التي ضيّع فيها الزمان والمكان.. أن الكائن الحيواني حين يتألم يصرخ: "آه" وأن الكلب المُترع بالنِّعَم يحتاج أن ينبح في السكون والغيبوبة والنسيان والطمس وعدم الإحساس بالزمن الراكض الذي لا يستطيع أن يحيا بدونه فصرخ: آه؛ "هَوْ" ! "(١٠٥).

إنه على درجة عالية جداً من الوعي مع أنه يدّعي عكس ذلك، هذا الوعي الذي شكّل كل أحداث الماضي وآلامه، ورسم به معالم المستقبل، ويقرر ذلك آخر سيرته، فكانت آخر سطور ختم بها الحكاية:

"وكان آخر ما أغمض عليه عينيه.. أنه كومة وعي في إنسان يقع في جمجمة وجسم بلا أطراف؛ وأنه يستند إلى فخذين يتحركان قليلاً، ويتعلّقان بأطراف السرير فسكت؛ أو لا يدري أنه سكت... لم يكن أحد قد منحه أدنى المسامع؛ وكان يصرخ، وعندما جفّت بلاعمه وشحُب صوته، جاءه ممرض النوبة الليلية غاضباً... ثم حمله كحشرة بلا قدمين ووضعه في السرير (١٠٦)".

إن عبدالعزيز كان يدرك أن الغيبوبة وإن كانت غياباً كاملاً عن المدركات، لكن الدماغ لا يتوقّف عن القيام بمهمته في الإشراف على بقية أعضاء الجسد؛ وأنه إن كان قد رأى أنه في حلم لذيذ؛ فهذا لم يكن يعني تمتّعه بالحلم وقت فِعل الغيبوبة، لقد كان الاستمتاع بعد الإفاقة، كما لا يهمه تفسير العلم والطب؛ فإن ما كان يهمه بالضرورة الكشف عن مؤثرات التجربة بمقياسه الخاص المرتبط بمنظور الكتابة مع المرض(١٠٧).

الخاتمة

قامت هذه السيرة الذاتية على الزمن النفسي الداخلي؛ مع كلف عبدالعزيز مشري بتصوير وطأة الزمن الثقيل على أحزانه وآلامه؛ إلا أن العمل اعتمد على الحوار الداخلي والتداعيات النفسية الكثيرة التي تميّز هذه السيرة الخاصة جداً؛ فهي – كما يبدو للقارئ- لا يمكن سردها بالطريقة التقليدية الأفقية، ولا يمكن –كما أسلفت- إغفال ضمير الغائب الذي رُويت به السيرة، وتداعيات الوعي الذاكري، وتوارد الخواطر والشعر، ومحاولة ربط بعضها ببعض، أما تأثير الفن التشكيلي الذي برع فيه مشري فيبدو في كتابة بعض التداعيات المنتقاة بالخط الأسود الغامق، والاعتناء برسم الجمل وكيفية وضع النقاط في مواضع بذاتها، كما يبدو تأثير الموسيقى في سرعة الإيقاع الجُمَلي الذي يوازي التداعي السريع للأفكار أحياناً، ويأتي توظيف الأغنيات بإيرادها نصاً في هذه التداعيات.

أما الزمن الماضي الاسترجاعي، فهو ما قام عليه العمل وهذا البحث بالتالي؛ فهو صلب السيرة، ويبدو الريتم الإيقاعي فيها مختلفاً؛ فهناك استرجاعات طويلة، وأخرى قصيرة، وعودة إلى زمن الطفولة والقرية، وفترات زمنية قصيرة أسميتها بالدوائر، لا يعرف القارئ أحياناً بداية لها، أو مكاناً، هل هي في المنطقة الشرقية، أو جدة أو أمريكا.

وهي أزمنة هروبية في مجملها من المكان المعادي المنفي فيه زاهر على السرير الأبيض، في مستشفى ما في مدينة ما!

يلتبس النهار بالليل غالباً على زاهر المقيم في المستشفى، لكنه يعيش صباحاته الحليبية البيضاء، إنه يصنع زمنه الخاص به، بعد كل هذه الدوائر المغلقة التي يبدو

للمتلقي بالدوران فيها هو الآخر، أنه يركب دولاباً ويعدو في قفص محكـم الإغـلاق، لكنه يعود إلى وعيه أخيراً في نهاية السيرة، لينسج متعمّداً، عبر ذاكرة الغيبوبـة خيـوط المستقبل الذي يرجو أن يختلف عن الحاضر عبر رسم معالم المدينة الإسلامية الفاضلة.

الهوامش والتعليقات:

(١) انظر: آل مريّع، أحمد بن علي، السيرة الذاتية مقاربة الحد والمفهوم، ص ١٧-٢٠. وأورد كثيراً من الأنواع والفروق بين السّيَر والمذكرات واليوميات وغيرها.

(٢) انظر: زيتوني، لطيف، معجم مصطلحات نقد الرواية، ص ١٣ -١٤

(٣) مشري، عبدالعزيز، المغزول.

(٤) العنوان عبارة عن كلمة واحدة مفردة لكن معناها يحتوي صفات كثيرة.

(٥) المغزول في لهجة غامد في الأصل هو المجنون، والغُزَال: ممارسة الجنون، حتى أصبح متغازل معه كالنسيج، وغَزْلَتُك: تهورك، تُستخدم للإنسان المتهّور في تصرفاته. مصدر هذا المعنى المؤرخ: محمد بن ربيع الغامدي، مكالمة هاتفية.

(٦) انظر: عبدالدايم، يحيى إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث،ص ٣ وما بعدها.

(٧) على رأسهم علي الدميني في المقدمة التي كتبها للمغزول بعنوان "كتابة الألم وثقافة الأمل" مع أنه في المقدمة نفسها يناقض كلامه فيذكر ما يدل على أن "المغزول" سيرة ذاتية كاملة لعبدالعزيز مشري، الصفحات ٣-١٩ من الكتاب، و من هؤلاء: أحمد الدويحي، وعدد من الروائيين والنقاد منهم: محمد العبّاس.

(٨) انظر: المناصرة، حسين،روائية السيرة الذاتية- قراءة في نماذج سيرية سعودية، مجلة علامات في النقد، ص ٣٤٦.

(٩) انظر: المناصرة، حسين "السيرة الروائية" صحيفة الجزيرة، ٢٦/ ٤/ ١٩٩٨م.

(١٠) الغلاف الداخلي للكتاب.

(١١) انظر: مندليسون، وآخرون، نهاية الرواية وبداية السيرة الذاتية،ترجمة: حمد العيسى، ص ١٦١ وما بعدها.

(١٢) المغزول،ص ١٧٦.

(١٣) المصدر السابق، ص ١٧٦ – ١٨١.

(١٤) انظر: الزهراني، معجب سعيد، موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث- نصوص مختارة ودراسات،مقدمة مج٦ " السيرة الذاتية "،السعودية، دار المفردات، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ص ١٤ وما بعدها.

(١٥) مشري، عبدالعزيز " مكاشفات السيف والوردة" وهو كتاب يترجّم لحياة المشري الثقافية، ككتب كثيرة جاءت على هذه الشاكلة، ككتاب " أنا" و" حياة قلم " لعباس محمود العقاد و" قصة عقل " لزكي نجيب محمود، وبعض الكتب الأخرى ككتابي علي أحمد باكثير "فن المسرحية من تجاربي الشخصية" و "القصة من خلال تجاربي الذاتية " وإن كانت تأتي في درجة تالية من حيث الاهتمام بالموضوع.

(١٦) من هؤلاء الدكتور عبدالله الحيدري الذي وضعه ضمن كتابه "السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية-ببليوجرافيا" ط١، السعودية، النادي الأدبي بجدة، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

(١٧) انظر: الغامدي، صالح معيض،كتابة الذات- دراسات في السيرة الذاتية، ص ١٥٤ وفي تتبعه لإثبات سيرية المغزول يعدد دلائل العقد القرائي السيرذاتي وهي كثيرة ومعروفة للقارئ الذي يعرف شخصية عبدالعزيز مشري وتجربته مع المرض وكلها متصلة بالنص نفسه لا بالعنوان الداخلي الذي وضعه أصدقاء الإبداع وينص على أن " المغزول "الرواية الأخيرة للكاتب، ولا بالمقدمة التي حرص فيها علي الدميني أن يثبت روائية " المغزول".

(١٨) المغزول، ص ١١٩.

(١٩) المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٢٠) المصدر السابق، ص٢٦.

(٢١) المصدر السابق، ص ١٣٠.

(٢٢) المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٢٣) انظر: شلق، علي، الزمان في الفكر العربي والعالمي، ص ١١ وما بعدها.

(٢٤) مكالمة هاتفية مع علي الدميني بتاريخ ٥/ ١/ ١٤٣٥هـ.

(٢٥) المغزول، ص ٢٣.

(٢٦) المصدر السابق، ص٢٤.

(٢٧) المصدر السابق، ص٢٩.

(٢٨) المصدر السابق، ص٧١-٧٢.

(٢٩) زيتوني، عبداللطيف، معجم مصطلحات نقد الرواية، مرجع سابق، ص٢٠.

(٣٠) المغزول، ص٣٦-٣٧.

(٣١) أكثر عبدالعزيز مشري من هذه الأوصاف التي تنتمي إلى حقل عناصر المواد الطبيعية أو الجمادات، كالفلين والخشب والألمنيوم والبلاستيك والصدأ والرصاص وغيرها، وكان الفلين والخشب أكثرها استخداماً، وقد قمت بحصرها، فوجدتها تمتد في كل صفحات الكتاب تقريباً!

(٣٢) المغزول، ص٤٢-٤٣.

(٣٣) انظر المصدر السابق، ص٤٨-٥١.

(٣٤) المصدر السابق، ص٥٤.

(٣٥) المصدر السابق، ص٦٠.

(٣٦) المصدر السابق، ص٧٤-٧٥.

(٣٧) المصدر السابق، ص٨٩.

(٣٨) المصدر السابق، ص١٣٩-٤٠.

(٣٩) انظر: المصدر السابق، ص١٤١-١٤٥.

(٤٠) المصدر السابق، ص١٤٩.

(٤١) انظر: المصدر السابق، ص١٥١-١٥٥.

(٤٢) انظر: المصدر السابق، ص١٥٥-١٥٧.

(٤٣) انظر: المصدر السابق، ص١٥٨.

(٤٤) انظر: المرجع السابق، ص١٦١-١٦٣.

(٤٥) علي، هيثم الحاج، الزمن النوعي وإشكاليات النوع السردي،ص٦٣.

(٤٦) "المغزول" ص٣١.

(٤٧) المصدر السابق، ص٣٨.

(٤٨) المصدر السابق، ص٤١-٤٢.

(٤٩) هي عملية الغسيل الكلوي، بأن يكرر الدم عبر أنابيب وآلات كهربائية معقدة التركيب. المعلومة استفدتها من المجموعات القصصية لعبدالعزيز مشري.

(٥٠) المغزول، ص٤٤.

(٥١) المصدر السابق، ص٥١-٥٤.

(٥٢) المصدر السابق، ص٦٢.

(٥٣) نفسه.

(٥٤) المصدر السابق، ص٤٦-٤٧.

(٥٥) المصدر السابق، ص١١٩.

(٥٦) انظر: المصدر السابق،ص١٢٠-١٢٥.

(٥٧) المصدر السابق، ص١٢٦.

(٥٨) المصدر السابق،١٣٣-١٣٤.

(٥٩) المصدر السابق، ص١٤٥.

(٦٠) المصدر السابق، ص٣٧.

(٦١) المصدر السابق، ص٥٢-٥٣.

(٦٢) المصدر السابق، ص٥٧.

(٦٣) انظر: المصدر السابق، ص٥٨-٦٠.

(٦٤) المصدر السابق، ص٧٥.

(٦٥) المصدر السابق، ص٩٠-٩١وما بعدها.

(٦٦) انظر: حسين، طه، الأيام، ج٢،ص ١٠وص٧٢وص٧٤وغيرها.

(٦٧) المصدر السابق، ص١٨١.

(٦٨) المصدر السابق، ص١٨٢.

(٦٩) انظر: لحمداني، حميد، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص٧٥ وما بعدها.

(٧٠) المغزول، ص٣٣.

(٧١) المصدر السابق، ص٨٧-٨٨.

(٧٢) وقفتُ كثيراً أمام هذه الفقرات المكتوبة بالخط الأسود الغامق، وعجزت عن تصنيفها، فبعضها تداعيات وبعضها استرجاعات، فلجأت للشاعر: علي الدميني الذي أكّد أنه تداعيات وأن من كتبها هكذا هو مشري نفسه!

(٧٣) المصدر السابق، ص٣١-٣٢.

(٧٤) المصدر السابق، ص٥٨-٥٩.

(٧٥) المصدر السابق، ص٥٩-٦٠.

(٧٦) المصدر السابق، ص٨٠-٨١.

(٧٧) بنكراد، سعيد، الصورة الإشهارية-آليات الإقناع والدلالة، ص١٤٦وما بعدها.

(٧٨) مشري، عبدالعزيز، المجموعات القصصية، مج١،قصة "يرحلون" من مجموعة "أسفار السروي" ص١٠٣-١٠٨.

(٧٩) انظر: بنكراد، سعيد، الصورة الإشهارية، مرجع سابق، ص١٤٨ومابعدها.

(٨٠) مشري، عبدالعزيز، المغزول، ص٩٧-٩٩.

(٨١) المصدر السابق، ص٩٩.

(٨٢) انظر: المصدر السابق، الصفحات: ١٥٥و١٦٩و١٩٣وغيرها.

(٨٣) انظر: زيتوني، عبداللطيف، معجم مصطلحات الرواية، مرجع سابق، ص ٥١.

(٨٤) المغزول، ص٤٦.

(٨٥) المصدر السابق، ص٧١ وما بعدها.

(٨٦) المصدر السابق، ص٧٥

(٨٧) المصدر السابق، ص٩٥-٩٦.

(٨٨) المصدر السابق، ص١٠٤-١٠٥.

(٨٩) المصدر السابق، ص٣٥-٣٦.

(٩٠) انظر: فرويد، سيجموند، الهذيان والأحلام في الفن، ترجمة: جورج طرابيشي، ص ٦٨وما بعدها.

(٩١) المغزول، ص ١٢٠-١٢٢.

(٩٢) المصدر السابق، ص١٠٦-١٠٧.

(٩٣) المصدر السابق، ص١٠٨-١٠٩.

(٩٤) المصدر السابق، ص١٧١.

(٩٥) المصدر السابق، ص١٧١-١٧٢.

(٩٦) المصدر السابق، ص١٧٢-١٧٣.

(٩٧) المصدر السابق، ص١٩١.

(٩٨) المصدر السابق، ص١٩٥-١٩٧.

(٩٩) المصدر السابق، ص١٩٧-١٩٨.

(١٠٠) المصدر السابق، ص٢٠٣-٢٠٤.

(١٠١) المصدر السابق، ص٢٠٦-٢٠٧.

(١٠٢) المصدر السابق، ص٢١٤-٢١٧وما بعدها.

(١٠٣) المصدر السابق، ص٢١٨-٢١٩.

(١٠٤) المصدر السابق، ص٢٢٠

(١٠٥) المصدر السابق، ص٢٢١.

(١٠٦) المصدر السابق، ص٢٢٢.

(١٠٧) انظر: مشري، عبدالعزيز، مكاشفات السيف والوردة، مصدر سابق، ص٥٢-٥٥.

المصادروالمراجع

١- المصادر:

١) مشري، عبدالعزيز، المغزول، لبنان، دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٦م.

٢) مشري، عبدالعزيز،مكاشفات السيف والوردة، الآثار الكاملة، المجلد٢،ج١ (بدون دار نشر) ١٤٢٣هـ.

٣) مشري، عبدالعزيز، المجموعات القصصية، مج١، سلسلة الآثار الكاملة، السعودية،مطابع الإيمان، (د.ت)

٢- المراجع:

١) آل مريّع، أحمد بن علي، السيرة الذاتية مقاربة الحد والمفهوم، ط٢، السعودية، نادي أبها الأدبي، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٢) بنكراد، سعيد، الصورة الإشهارية-آليات الإقناع والدلالة، المغرب، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٩م.

٣) حسين، طه، الأيام، ج٢، ط٣٤، مصر: دار المعارف، ١٩٩١م.

٤) زيتوني، لطيف، معجم مصطلحات نقد الرواية، لبنان مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٢م.

٥) شلق، علي، الزمان في الفكر العربي والعالمي، لبنان، دار ومكتبة الهلال، ٢٠٠٦ م.

٦) عبدالدايم، يحيى إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، لبنان: دار النهضة العربية (د.ت).

٧) عزام، محمد، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة دراسة في نقد النقد، سوريا- دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٣م.

٨) علي، هيثم الحاج، الزمن النوعي وإشكاليات النوع السردي، لبنان، دار الانتشار العربي، ٢٠٠٨م.

٩) الغامدي، صالح معيض، كتابة الـذات- دراسـات في السـيرة الذاتيـة، المغـرب، المركـز الثقـافي العربي، ٢٠١٣م.

١٠) فرويد، سيجموند، الهـذيان والأحـلام في الفـن، ترجمـة: جـورج طرابيشـي،لبنان، دار الطليعـة للطباعة والنشر،١٩٧٨م.

١١) لحمداني، حميد، بنية النص السـردي مـن منظـور النقـد الأدبـي"، ط٢، المغـرب، المركـز الثقـافي العربي، ١٩٩٣م.

١٢) منديلسون، وآخرون، نهاية الرواية وبدايـة السـيرة الذاتيـة، ترجمـة: حمـد العيسـى،لبنان، الـدار العربية للعلوم ناشرون، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٣- الدوريات:

١) المناصرة، حسين، السيرة الروائية، صحيفة الجزيرة، ٢٦/ ٤/ ١٩٩٨م.

٢) المناصرة، حسين، روائية السيرة الذاتية- قراءة في نماذج سيرية سعودية، مجلة علامات في النقـد، مج ١٧، ج٦٦، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م.

٤- مكالمات هاتفية:

١) مكالمة هاتفية مع علي الدميني بتاريخ ٥/ ١/ ١٤٣٥هـ.

٢) مكالمة هاتفية مع المؤرخ محمد بن ربيع الغامدي بتاريخ ٢٤/ ٤/ ١٤٣٥هـ.

علم لغة النص

(الإرهاصات الأولى وبدايات النّشأة)

د. عزمي محمد "عيال سلمان"
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية – كلية العلوم والآداب –
جامعة نجران – المملكة العربيّة السعوديّة

ورد البحث في ١١/ ٣/ ١٤٣٥هـ   وقُبل للنشر في ٢٨/ ٦/ ١٤٣٥هـ

علم لغة النص
(الإرهاصات الأولى وبدايات النّشأة)

د. عزمي محمد "عيال سلمان"

ملخص البحث

في نهاية ستينات القرن الماضي أوْلَت فئة من الباحثين عناية خاصة بالنصوص والخطابات باعتبارها الوحدة الفعلية التي تتحقق من خلالها اللغة. وهم بذلك يتجاوزون الأعراف والتقاليد المُتَّبَعة في تلك الآونة في دراسة اللغة، والتي كانت تتموضع حول الجملة ونظامها، باعتبارها أكبر وحدة يمكن أن تطالها أدوات الوصف اللغوي وتصوّراته. ومن ذلك الحين بدأت أصوات تظهر منادية باستقلال (علم لغة النص) ليكون من أحدث فروع اللسانيات المعاصرة. وكانت أولى مُهمّات هذه الفئة من الباحثين المؤسِّسة لـ(علم لغة النص) في تلك المرحلة هي تتبّع التصوّرات النصيّة في جميع المعارف والعلوم، الحديثة منها والقديمة. وتبيّن لها بعد البحث والتتبّع أن هنالك علوماً كثيرة تضمنت مثل هذه التصورات، إلا أنَّ أغناها في هذا الباب هي: البلاغة الكلاسيكيّة، والأسلوبيّة، والدراسات الأدبيّة، واللسانيات الحديثة ممثلة بعلمَيْ اللغة: (البنيوي) و(التوليدي التحويلي)، وقد تكفَّلت هذه الدِّراسة بالوقوف على العلم الأخير منها (اللسانيات الحديثة)، وبيان مدى إسهامه في نشأة علم لغة النص. وقد وجد الباحثون أنَّ كثيراً من النتائج التي توصّلت إليها اللسانيات الحديثة والعلوم المجاورة لها فيما يتعلق بنظرية النص تتفوّق في كثير من نواحيها على ما توصلت إليه أغلب الاتجاهات الحديثة في علم لغة النص. وإنْ كان من عيب منهجي يمكن أن يسِم تلك التصوّرات النصيّة السابقة لمرحلة التأسيس، فهو مجيئها متناثرة معزولة عن بعضها في تلك الحقول المعرفيّة المتباينة؛ لهذا دعت الحاجة إلى جمعها وتصنيفها من قبل علماء لغة النص لتُشكِّل اللبنة الأولى في بناء هذا العلم.

Linguistic Text Science

(the pre-establishing steps and start)

Dr. Azmi Mohammad Hmoud (Eyal Salman)

Assistant professor in Arabic Language Department

Faculty of Arts& Sciences- Najran University

Abstract

By the end of the 1960s, a group of researchers deeply concentrate on the texts as they represent the actual unit of language. The researchers overcome the traditional conventions of studying language that is concentrated on the sentence as it is the largest unit to apply the linguistics tools on. Then, several voices appeal to study the linguistic texts as an independent and new field of contemporary linguistic studies. The first and main task of these researchers is to follow the textual conceives in all ancient and modern science fields. As a result, they arrived to recognize that such conceives are included in other several science fields as they are richly discussed in the classic rhetoric, stylistic, literary studies, and the modern linguistic, Structuralism and generative syntax. This study is going to deal only with the linguistic studies to show its contributions in the linguistic text science start. The researchers of the linguistic texts found that the just-mentioned sciences' results, regarding the linguistic text science, have been reached, in many aspects, are better than the modern tendencies reached results. The notable methodological deficiency could be observed in the previous linguistic studies is the way the textual conceives were incoherent. This what urges the researchers of the linguistic text to collect and classify them to form the first step in establishing this science.

مُقدِّمـة

إنَّ اللسانيات الحديثة في بواكير نشأتها قد اشتغلت بمجال محدود للغاية ينحصر في استكشاف الوحدات الصغرى، ووصفها بالنسبة لكلّ مستوى من مستويات اللغة، وأدّى عزل هذه المكونـات الصـغرى المُستكشَـفة، وعـدم الاسـتعداد لتجـاوز حـدود الجملة إلى صرف الاهتمام عن الواقع الفعليّ للغة، وأثّر هذا البحـث المُتصـدِّر (نحـو الجملة) – وكثيراً ما كان الوحيد – سلباً في تطور مسيرة علـم اللغـة عـبر عقـود مـن الزمن، واستُبعدت من البحث اللغوي جوانب جوهرية ما كان يمكن الوقـوف عليهـا إلا بالانطلاق من نصوص اللغة وخطاباتها، وبجعلها المحور الأساس الذي تدور حوله بحوث اللغة ودراساتها. وقد أفضى هذا التقليد الـذي أرسـاه (دي سوسـير)، وتبعتـه بإحكام معظم المدارس، والاتجاهات البنيويّة والتوليديّة تقريبـاً إلى مجـال بـالغ الضـيق والانعزال، لم يُعثر فيه على بحوث حول النظـام اللغـويّ في واقعـه الفعلـيّ في مجتمـع معيّن في أيّ مكان. وإن وُجدت بحوث من هذا النوع – وذلك نادر – فإنّها ظلت بلا صدى إلى حدّ بعيد.

وأدّى تجاهل اللسانيات الحديثة، في بواكيرها، للواقـع الفعلـيّ للنظـام اللغـويّ المُنبثِق من نصوص اللغة وخطاباتها إلى عدم اكتمال المشروع الفكريّ الذي اضطلعت به مدارسها واتجاهاتهـا، ويـذهب (فـان دايـك) إلى أنَّ أحـد الأسـباب الرئيسـة لهـذا التجاهل هو أنَّ البنى الكبرى لا تزال أجساماً غريبة في النظريّة النحويّة، أي لا تـزال بنى تحتاج إلى تفسير مختلف عن بنى معنى الجمل أو العلاقة بين الجمل. والحقيقة أننـا لا يمكننا أن نتصوّر وصفاً للبنى (السرديّة) أو (الحِجاجيّة) أو (المُحادثيّـة) تقـوم علـى قواعد النحو وحـدها. وبهـذا المعنـى فـإنّ اللسـانيات الحديثـة نفسـها لم تطـوّر علـى

الإطلاق في اتجاهها السائد نظريّة حقيقيّة لاستعمال اللغة تقوم على الخطاب؛ ذلك أنَّ النماذج النحويّة في اللسانيات الحديثة ظلّت في جوهرها نماذج نحويّة تتابعيّة أو خاصّة بالجمل، وينطبق الأمر نفسه على جزء كبير من اللسانيات النفسيّة واللسانيات الاجتماعيّة، وهذا سبب آخر من الأسباب التي تُفسِّر لماذا أصبح تحليل الخطاب علماً بَيْنِيّاً، يتقاطع مع العديد من فروع علم اللغة بدلاً من أن يكون تخصصاً من التخصصات اللغويّة، ويكشف لنا هذا التطوّر أيضاً كيف أنَّ نتائج أحد العلوم (الفرعيّة) قد تتطلّب عقوداً من الزمن قبل أن تدخل إلى علم (فرعي) آخر، وتُقبل فيه، بل وربما لا تدخل إليه أصلاً لكونها أجساماً غريبة عن هذا العلم[١].

وانبعثت دوافع للاهتمام المتزايد ببحث النصوص ومبادئ بنائها، من اللسانيات الحديثة نفسها، ومن علوم متاخمة أيضاً، وجعلت هذه العلوم من الجوانب النصيّة التي تناولتها إشارات متناثرة تكتنفها عزلة شديدة داخل الحقل المعرفيّ الواحد، بَلْه الحقول المعرفيّة المتجاورة؛ ومن هنا دعت الحاجة إلى وجود علم شامل يجمع شتات ما تفرّق من هذه الإشارات في الحقل المعرفيّ الواحد، وفي غيره من الحقول المعرفيّة التي أعطت للنص أهميّة ضمنيّة، وهذا ما وقع بالفعل عند ما ظهر (علم لغة النص) فرعاً حديثاً من فروع علم اللغة.

ومن هنا تنبثق أمام الباحث مجموعة من الأسئلة التي تتعلق بالإرهاصات الأولى لهذا العلم، وبدايات نشأته، ولعلّ من أبرزها: هل كانت هنالك علوم ومعارف مُتضمِّنة لتصوّرات نصيّة قبل ظهور (علم لغة النص) بوصفه علماً جديداً ومستقلاً بداية سبعينات القرن الماضي؟ وما هي القيمة العلميّة التي يوليها علم لغة النص لمثل هذه التصوّرات القديمة؟ وهل ارتبط علم لغة النص في نشأته ببلد محدّد أو اتجاه معيّن؟ وهل هنالك علاقة بين هذا العلم الجديد وبين اللسانيات المعاصرة؟ وما هي

طبيعة هذه العلاقة إنْ وجدت؟ وهل تجاوز علم لغة النص الاتجاهات الحديثة للسانيات في تلك المرحلة المبكّرة، أم هو تطوير وامتداد لها؟ وما هو موقف أبرز علماء اللغة المعاصرين من قضيّة تجاوز نحو الجملة؟ وهل كانت لبعضهم إسهامات في نشأة علم لغة النص وتطويره؟ تسعى هذه الدراسة للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها لاستجلاء بعض جوانب النشأة الأولى لهذا العلم.

١- العلوم المُؤسِّسة لـ(علم لغة النص):

لقد جعل علماء لغة النص أولى مهمّاتهم في مرحلة التأسيس لهذا العلم هي التتبُّع التأريخيّ للمعارف والعلوم التي تناولت جوانب من نظريّة النص والخطاب، وبعد الاستقصاء والتتبُّع، وجد هؤلاء الباحثون أنَّ تلك الجوانب قد تقسّمتها تخصصات متنوّعة، وكُلّ شيء يوحي بأنَّ هناك فرقاً وتعدّداً في هذه الاختصاصات المتعلّقة بالنص والخطاب، ويُلاحَظ أنَّ هذه المعارف لم تظهر في الحقبة نفسها، فبعضها يبدو عريقاً، والبعض الآخر حديث النشأة (مائة سنة). فقد تجاورت البلاغة والنحو في الألفي سنة ضمن الحقل المعرفيّ الذي يُسمّى الثلاثي (Trivium): (النحو، والمنطق، والبلاغة). أما الأسلوبيّة واللسانيات - على سبيل المثال - فيرجع تاريخ ظهورهما إلى القرنين الماضيين.

ويبدو أنَّ الاختصاصات المتّصلة بالنص متجاورة في الحقل الإمبريقي نفسه، لكنها تختلف إنْ على مستوى الوضع الإبستمولوجيّ - الأكاديميّ أو الأهداف والمناهج وإجراءات التصديق، وأخيراً فهي تختلف على مستوى تطوّر النص الذي تدرسه وتتحدّث عنه، فلا يوجد مجال معرفيّ يمكن أن يدَّعي الهيمنة، واللسانيات ليست أكثر حظّاً من الحقول المعرفيّة الأخرى، فالعلاقة غير المباشرة التي تربط

النصوص بالميادين الموضوعيّة المختلفة لا تؤدّي إلى استنتاج قد يفيد بأن اللسانيات تتبوّأ مكانة العلم الكُلّي(٢). ويرى الباحثون الغربيّون أنَّ القدر الأوفر من الدراسات المهمّة المتعلّقة بالنص قد أجري خارج نطاق اللسانيات، خاصّة في علوم مثل: الأنثروبولوجيا (دراسة الإنسان)، والاجتماع، والخطابة، والآداب، فضلاً عن البلاغة الجديدة والشعريّة.

ثُمَّ التفت علم الأنثروبولوجيا أخيراً من خلال أنموذج مثالي إلى دراسة الثقافة الماديّة للشعوب البدائيّة؛ مما أغنى (إثنوجرافيا الكلام)، فدرس الأنماط المختلفة للخطابات المستعملة في الثقافات المتباينة مثل: القَصّ والروايات والألغاز واللعب بالكلمات والسباب وغيرها، واعتنى بنظريّة السَّرد في تحليل الأسطورة. أما علم الاجتماع في صورته: (منهجيّة دراسة الشعوب)، فقد تركّزت بحوثه في مجال التحليل المستفيض للحوارات اليوميّة، وقواعد متتاليات الجمل، وأفعال الحديث ومحتواه المتعلّق بالمعتقدات، وأنماط سلوك الأفراد في المجتمع، خاصّة في إطار تحليل الرسائل في وسائل الاتصال الجماعيّ. وأما علم النفس الاجتماعيّ، فاهتمامه بالتحليل المنظم للخطاب كان أقلّ من اهتمامه بالآثار المترتبة عن الخطاب ومن مضمونه على اعتقادات الأفراد وسلوكهم في المجتمع، وخاصّة في إطار تحليل وسائل الإعلام وضروب أقاويلها الخطبية المرسلة(٣).

ونحن نرغب هنا في هذا البحث الذي نُقدِّمه أن نتتبَّع الإشارات التأريخيّة التي تناولت الإرهاصات الأولى وبدايات النشأة المتعلّقة بـ(علم لغة النص) داخل حدود اللسانيات الحديثة. فنحن وإنْ كنّا قد استطعنا أن نرى ظهور عدد من الكتب المُختصَّة في مجال علم النص في الدراسات العربيّة فإنَّه لا يوجد فيما نعلم سوى عدد محدود من المداخل الجيدة التي وقفت على ومضات يسيرة فيما يتعلق بهذا الجانب من

جوانب بحث علم لغة النص، وما احتفاء روّاد هذا العلم في الغرب بهذا التتبُّع البعيد للنشأة الأولى إلا لأنهم (أوّلاً): يرغبون عن البدء من الصفر المنهجيّ؛ حتى لا يتمّ إهدار نتاج متميّز لقرون تطاول عليها العمر، وهم بهذا التتبُّع (ثانياً) يعيدون الحياة إلى هذه المساهمات باعتبار أنَّ فيها نظرات صائبة لا تقل أهميّة وخصوبة عما قُدِّم في علم لغة النص في الآونة الأخيرة. وقد وجد هؤلاء العلماء بعد الاستقصاء أنَّ كثيراً من النتائج التي توصَّلت إليها الدراسات النصيّة الكلاسيكيّة تتفوّق في كثير من نواحيها على ما توصَّلت إليه الدراسات النصيّة المعاصرة، والاختلاف بين الدرسين النصيين القديم والمعاصر يُشْبه إلى حد كبير – وفقاً لدي بوجراند – الاختلاف بين الألسنيّة الحديثة والدراسات اللغويّة القديمة، وهو اختلاف في منهجيّة البحث ومجال التركيز أكثر من كونه اختلافاً في النتائج[٤]، وهم (أخيراً) بهذا التتبُّع يقارنون بين حصاد البحوث النصيّة القديمة وبين أحدث ما آلت إليه البحوث النصيّة في عصرنا، لا لتغليب الثانية على الأولى، وإنما لتصحيح النظرة التأريخيّة إلى مثل هذه الجهود.

وتعتمد مثل هذه الدراسة الرّاصِدة التي نقوم بها اعتماداً كُلّياً على ما أنجز من بحوث ودراسات متخصصة ودقيقة جعلت من صلب اهتماماتها تتبُّع التصوّرات النصيّة التي وجدت ضمناً في كلّ علم من العلوم القديمة والحديثة حتى منتصف ستينات القرن الماضي. وقد وجد الباحث أنَّ هذا الجانب من جوانب تاريخ علم لغة النص المُتعلِّق بالتراث العربيّ لا يزال مُعتِماً لندرة الدراسات والبحوث التي أنجزت بهذا الشأن، فالنظريات الأدبيّة واللسانيّة العربيّة الحديثة لم تُؤسَّس على قاعدة علميّة تؤمن بالتراكم المعرفيّ والانطلاق من تراث الأجداد، لذلك لم يكن بدّ من أنْ يتّخذ حديثنا عن تاريخ علم لغة النص طابعاً براجمياً يستقي مُحدِّداته من جهود علماء غربيين استفرغوا وسعهم في تسليط الضوء على هذا الجانب، فالتراث الغربيّ من هذه

الناحية يُعدّ موفور الحظ بما أُتيح له من دراسات مُفصَّلة شاركت في إنجازها جميع المدارس اللسانيّة الحديثة وغيرها أيضاً من العلوم المعاصرة، لذلك تَكُون مهمَّة الباحث الذي يَرُوم وضع إطار نظريّ لأيّ جانب من جوانب التراث الغربيّ أيسر حالاً، مقارنة بالباحث العربيّ الذي تبدو مهمّته أكثر تعقيداً؛ ذلك أنَّ تراث أُمّته الغنيّ والخالد لا يزال بحاجة ماسّة إلى أنْ يُعاد ترتيبه وتصنيفه من جديد، فهو جدير بأنْ يضيف أشياء كثيرة إلى المقترحات الغربيّة فيما يتعلّق بعلم لغة النص، وغيره من العلوم والمعارف الحديثة.

وبعدَ أن أجال الباحث النّظر طويلاً فيما وقع عليه من بحوث ودراسات وجد أنَّ معظم العلماء في حديثهم عن نشأة علم لغة النص يربطون هذه النشأة بعلوم وفنون كثيرة، وتكاد تتّفق كلمتهم على أربعة منها كان لها دور كبير في هذا الباب، وهي: البلاغة الكلاسيكيّة، والأسلوبيّة، والدراسات الأدبيّة، واللسانيات الحديثة. وكلّ علم من هذه العلوم بحاجة إلى تخصيص دراسة مستقلة لتتبُّع هذا الجانب المتعلّق بالإرهاصات الأولى وبدايات النشأة لعلم لغة النص. وقد خُصِّص هذا البحث لتناول هذه المسألة في العلم الأخير منها، وهو (اللسانيات الحديثة) ممثلة باللسانيات البنيويّة واللسانيات التوليديّة التحويليّة.

٢- اللسانيات الحديثة ودورها في نشأة (علم لغة النص):

إنَّ اللغة الإنسانيّة على درجة من التركيب في نظامها والاختلاف في تجلّياتها، تجعل علم اللسان دائم التطوّر؛ فاللغويّ يواجه وفرة عظيمة من مادة البحث تمتدّ بين ما يدرك بالملاحظة من التخاطب المباشر وبين العويص من التأملات الرياضيّة والفلسفيّة في اللغة، ولقد اضطرّت اللسانيات في مراحلها الأولى إلى أن تكون انتقائيّة

واختزاليّة Reductive في نظرتها إلى حدّ بعيد، ونحن نقترب الآن من زمن يمكن فيه للسانيات أن تستطيع باتّساع آفاق البحث أن تفي بالمطالب التي يفرضها عليها المجتمع(٥). فاللغة تعمل منذ نشأ الاجتماع البشريّ. وتطوّرت علوم تدرسها كانت وسيلة لغيرها من العلوم، متشابكة معها، ثُمَّ استقلَّت شيئاً فشيئاً إلى أن نشأ علم مستقل جامع لها هو (اللسانيات)، فهو أقدم العلوم موضوعاً وأحدثها نشأة، إذا ربطنا النشأة بالاستقلال. Selective

واعترى الدرسَ اللسانيَّ مع مطالع القرن العشرين عزوفٌ عن المعالجة الفيلولوجيّة للغة النصوص القديمة المدوّنة، وتَمَّ الالتفات عنها إلى الوظيفة الاجتماعيّة للغة، وإلى الدور التواصلي الذي هو جوهر وظيفة اللغة في العمليات الاجتماعيّة، وقد تبع ذلك قيام اللسانيات بدور الرائد لكثير من العلوم الإنسانيّة؛ مما ألقى عليها تبعات منهجيّة كبيرة، ومن هناك أدرك علماء اللسان أنَّ اجتزاء الجمل يُحيل اللغة الحيّة فتاتاً وتفاريق من الجمل المصنوعة المجفّفة أو المجمّدة(٦). ولا يقتصر الأمر في دراسة اللغة على الوقوف عند مدى معرفة المتحدِّث باللغة، من خلال استعراض الجمل المعزولة والمنبتّة عن سياقها، وإنما يجب أن يتجاوز ذلك إلى البحث في قدرة المتكلِّم على استعمال اللغة في مواقف حقيقيّة من مواقف الاتصال العامّة في حياة الناس.

وألمح باختين Bajtin قُبيل انتهاء النصف الأوّل من القرن العشرين إلى أنَّ الدراسات اللسانيّة لم تكشف بعد عن خفايا الأشكال اللغويّة الكبرى، كالكلام المُطوّل في الحياة اليوميّة، والحوارات، والخطابات، والمؤلفات، والروايات... إلخ، ومثل هذه الأشكال اللغويّة يجب أن تُدرس هي أيضاً باعتبارها جانباً من جوانب النظريّة اللغويّة، فتركيبة الأشكال اللغويّة الكبرى لا تزال مجهولة تنتظر من يكشف

عنها، والدراسات اللسانيّة لم تتجاوز حدود الجملة المركّبة باعتبارها أكبر الظواهر اللغويّة التي تَمَّ تناولها تناولاً علمياً[٧]. و(باختين) في هذا ينطلق من أيدولوجيّة فكريّة ترى أنّه حيث لا يوجد نصّ فليس ثَمَّة موضوع للبحث والتفكير، فالنص عنده سواء كان مكتوباً أو شفاهياً يعتبر مادّة أوّلية تقوم بتحليلها الألسنيّة والفلسفة والنّقد الأدبيّ وغير ذلك من العلوم المجاورة، على أساس أنَّ النص هو تلك الواقعة المباشرة التي تتأسَّس عليها هذه العلوم وتدور حولها، سواء اصطبغت بالطابع الفكريّ أو العاطفي"[٨].

والنصوص تعمل منذ نشأ الاجتماع البشريّ؛ إذ لا يوجد كلام خارج ملفوظ منجز هو (نص)، وتطوّرت علوم تدرسه (علوم الأدب، والنّقد، والبلاغة، والأسلوبيّة، والتفسير...إلخ)، كانت وسيلة لغيرها من العلوم متشابكة معها، ثم استقلّ كلّ واحد منها بنفسه على موضوعه من حيث هو مدلول عليه، والتحق جزء مما كان يجب أن يكون موضوع علم يدرس (النص) من حيث هو نص بالجانب الهامشيّ من اللسانيات، وهو أمر حتّمته شفافيّة ما بين حدود النص وحدود الجملة، ولا يزال عائقاً أمام استقلال (لسانيات النص) بنفسها، ولعلّ هذا العلم الجديد أقدم العلوم موضوعاً مثل اللسانيات، وأحدثها على الإطلاق[٩].

والمُتصفِّح لعينات من مؤلفات النحو الغربيّ الكلاسيكيّ يجد أنَّ كلمة (نصّ) لم تستعمل فيها، لا من حيث هي مصطلح، ولا من حيث هي مفهوم تمّ التعبير عنه بتسميات أخرى، كما يلاحظ ضحالة المباحث المتناولة للظواهر اللغويّة المتجاوزة للجملة، والتي اعتبرت مجسمة لمظاهر الترابط والاتساق النصيّ، كمبحث العلاقات بين الجمل. أما المباحث التي من قبيل أدوات الربط أو مباحث التعريف والحذف والإضمار والتنقيط، فإنَّ تناولها كاد يقتصر على نطاق لا يتعدّى حدود الجملة

الواحدة[١٠]. ولهذا فقد ظلّت شرعيّة اللسانيات بخصوص تمديد الوصف إلى النصوص مصدر خلاف متعدِّد الوجوه، وهذا ما أكَّده (مولينو) حين شكّك في وجود علم أوحد يخصّ تباين النصوص، وسخر من العلم العجيب للنصوص[١١].

وإذا كانت هذه هي الحال التي آلت إليها دراسة النص في الغرب، فقد استدعى ذلك حاجة ماسّة إلى تضافر العلوم اللسانيّة والنقديّة على دراسة النص الأدبيّ دراسة علميّة. وإذ التقت تطلّعات المشتغلين باللسانيات وبغيرها من العلوم الإنسانيّة على ضرورة التوفّر على دراسة (النص) أو (الخطاب)، وآنس علماء اللسان في أنفسهم أنهم ربما كانوا أبرز المؤهلين للإسهام بنصيب متميِّز في هذا المجال – اتسع مفهوم الدرس اللسانيّ لما يُسمّى بمصطلح لويس هيلمسليف Louis Hjelmslev: (اللسانيات المُوسَّعة Extended linguistics)، التي هي في مذهبه: النظريّة الخاصّة بجميع التجليات الفعليّة أو الممكنة للغة الطبيعيّة. لقد فطن المشتغلون بعلوم اللسان إلى أن اللغة ليست مجرد نماذج وأنماط للجمل، ولكنّها مرآة وأداة وسلاح، ومن ثَمَّ فإن الفهم الحقّ لنظريتها لا يمكن أن يتحقّق باجتزاء الجمل من السلوك القوليّ في شموله وتكامله، والتزام حدود نحو الجملة[١٢].

وقد نشأ عن ذلك أنْ التفتت بعض الاتجاهات اللسانيّة إلى دراسة النصوص والخطابات العامّة، حتى تلك التي تجاهلت النصوص في بواكير نشأتها، وهي بذلك تعيد الاعتبار للنص الذي يمثّل بنية نحويّة تحقّق نمطاً اتصالياً تفتقر إليه الجمل وأجزاؤها، "فإنتاج النص لا يمكن علاجه إلا بواسطة علم اللغة الذي يختصّ بالتفعيل. ذلك أن المناهج اللغويّة الأسبق في الوجود والمهيّأة للتعرّف والتعميم والوصف كانت تحليلية خالصة على حين نرى علم اللغة المعنيّ بالتفسير وإعادة الصياغة والتوجيه كالذي نحتاج إليه في دراسة إنتاج النصوص يجب أن تكون له نظرة تركيبيّة"[١٣].

ويتّفق علماء لسانيات النص على أنّه توجد مداخل أولى داخل إطار الدراسات اللغويّة لتوسيع أنحاء الجملة (وأنحاء متجاوزة للجملة) قبل نشأة فرع علمي هو (علم النص) بزمن طويل، ويذهب (دي بوجراند) إلى أنَّ الاهتمام الأوّل بالدراسات النصية كان في مجال الدراسات الفيلولوجية التي سبقت الألسنيّة الحديثة، حيث تركّز الاهتمام على دراسة الأصوات والأشكال اللغويّة من المنظور التاريخيّ، إضافة إلى دراسة نظام ترتيب الكلمات في الجمل، ويرى أنَّ هنري ويل (Henery Weil 1844-1887) قد لحظ أنَّ علاقات الكلمات في الجمل لا تخضع فقط لقوانين النحو، وإنما تتبع قوانين نظم الأفكار، وهو المنحى نفسه الذي ذهبت إليه مدرسة براغ الوظيفيّة فيما بعد في النظريّة التي تعرف بـ(إطار الجملة الوظيفيّة)، وهي النظريّة التي ترى أنَّ الدور الوظيفيّ للجمل يتركّز على المعرفة الجديدة التي تحملها هذه الجمل داخل النص(١٤).

فطرائق التحليل اللغويّ للنص بناء على ذلك ترجع إلى أبعد مما افترض في عدد كبير من المؤلفات التي تحاول أن تقوم بتأريخ بداية البحوث اللغويّة النصيّة. ويبدو أنَّ هذه الأعمال لا تَعْرِف – كما يرى فيهفجر –"ذلك الإسهام في الوصف اللغويّ للنصوص وتحليل بنيةَ النص الذي أنجزه ما نشره (ف.م. جرمونسكي، ١٩٢١م) و(أ.م. بشكوفسكي، ١٩٢٧م) من أعمال، أُقيمتْ على أساسها في الدراسات الروسيّة في الاتحاد السوفيتيّ منذ الثلاثينات والأربعينات بحوث كثيرة، اندرجت تلك (البنية) في علم اللغة تحت مفاهيم مثل: وحدة نحويّة موسَّعة لدى (فيجوروفسكي)، وكُلّ نحويّ مُعقَّد لدى (بوسيلوف)، ووحدة الجملة العليا لدى (بولاشوفسكي)، وفقرة لدى (لوسيفا)، ومقطع نثريّ / فقرة نثريّة لدى (سولجانك) وآخرين. ولهذا ينبغي أن يوضَّح بأنَّ رصداً للأعمال اللغويّة النصيّة يظلّ حتى الآن

غير تامّ دون هذه الأبنية المفهوميّة، ويغفل نظرات جوهريّة في بناء نصوص لغويّة ووظيفتها[١٥].

وليس من قبيل المصادفة أنْ تتّفق الإيضاحات المبدئية الأولى، بأنّه من الضروريّ أن تحلّل كليّات النص – وليس الجمل أو مركّبات الجمل فقط – تحليلاً دقيقاً مع تلك التغييرات الجوهريّة في علم اللغة، تلك التي تندرج تحت مفهوم جامع هو (التحوّل الاتصالي _ البراجماتي)، ويفهم بشكل عامّ في إطار ذلك تحوّل النماذج من علم اللغة الذي يكاد يخلص للنظام اللغويّ (من دي سوسير حتى تشومسكي) إلى علم لغة يركّز على التوجّه الاتصاليّ والوظيفي"[١٦].

ولو أردنا أن نتتبع المنابع الأولى للدراسات النصيّة في اللسانيات الحديثة لوجدنا لها حظاً وافراً في (اللسانيات البنيويّة)، و(اللسانيات التحويليّة التوليديّة) خصوصاً لدى أتباع تشومسكي الذين اجتهدوا في تطوير نظريّته وتوسيعها لتشملَ ظواهر لغويّة تتجاوز حدود الجملة مُقارِبةً أفق النص وتجلياته. ومثل هذه الإشارات النصيّة يمكن أن تُشكّل المرحلة الأولى من نشأة علم لغة النص داخل إطار اللسانيات المعاصرة، وهذا ما سنقوم بإيضاحه وشيكاً.

فعلم لغة النص القائم على النظام اللغويّ يرجع هدفه في اكتشاف مبادئه العامّة ووصفها وصفاً منظّماً سواء من الناحية النظريّة – المفهوميّة أو المنهجيّة إلى حدّ بعيد إلى تحديدات علم لغة الجملة ذات الأصل البنيويّ أو التوليديّ – التحويليّ. ويعبّر عن هذا الترابط بوضوح خصوصاً في مفهوم النص، فيُعرِّف هذا الاتجاه القائم على النظام اللغويّ النصَّ بأنّه: تتابع متماسك من الجمل، غير أنَّ هذا يعني أنَّ الجملة كما كانت الحال من قبل يُنظر إليها على أنها مَعْلم رئيس في تدرّج وحدات لغوية،

أي تعدّ وحدة بناء النص، والنتيجة الأهمّ لهذا التصوّر هو أنَّ مفهوم التماسك النصيّ المركزيّ بالنسبة لعلم لغة النص قد فهم فهماً نحوياً محضاً، فهو لا يَسِمِ في هذا الاتجاه البحثيّ اللغويّ النصيّ إلا العلاقات النحويّة – الدلاليّة بين الجمل، أو بين عناصر لغويّة (مفردات وضمائم...إلخ) في جمل متعاقبة(١٧).

٢- ١ اللسانيات البنيويّة:

لن نسرد هنا تاريخ اللسانيات البنيويّة، فليس هذا مجال بحثنا، وإنما سنبيّن الدور الكبير الذي مارسته بعض الدراسات التي أُنجزت في تلك الآونة وكان لها تأثيرٌ واسع في لسانيات النص وتحليل الخطاب، فما زالت تلك الدراسات كما هي لم تفقد من قيمتها أيّ شيء، بل زاد الاهتمام بها وعرفت أهمّيتها العلميّة بعد أن نُشرت بعشرات السنين، وعلى الرغم من أنَّ هذه الأعمال المُضيئة قد قُلّدت وطوِّرت إلا أن هناك من الباحثين من ينكر قوّتها أو قوّة كُتَّابها بعد أن صارت لسانيات النص في العقود الأخيرة أشدّ تعقيداً بصورة لا تقبل المقارنة، وأكثر دقّة من الناحية التجريبيّة.

وجرت العادة أن يُؤرَّخ للبنيويّة انطلاقاً من دي سوسير (١٨٥٧ – ١٩١٣م) إلى حدّ حصر هذا التيار فيما تولَّد عن دروسه من اتجاهات، ومع أنَّ معظم الذين تناولوا (دي سوسير) بالدرس يرون أنَّه ينطلق في مباحثه اللغويّة من منظور عامّ سُمِّي بـ(البنيويّ)، إلا أنّه لم يستعمل مطلقاً هذه الكلمة، التي غالباً ما تُذكَر تعبيراً عن الانتهاء إلى نهجه في البحث، فالمفهوم الأساسيّ عنده هو مفهوم (النظام)، واللغة هي نظام لا يعرف سوى تنظيمه الخاص. أما مصطلح (البنيويّة)، فقد ظهر فيما بعد في أعمال (حلقة براغ اللسانيّة)، وهو يعني: جملة المناهج التي نتجت عن مفهوم اللغة نظاماً تُبرِّر صحته المبادئ التي طرحها دي سوسير: (يجب الانطلاق من الكلّ المتكامل

للتوصّل عن طريق التحليل إلى العناصر التي يتضمّنها)، ولكي نتفادى ما تعرَّض له مصطلح (البنيويّة) من تضخم لا يمكن السيطرة عليه، نرى أنّه من الأفضل التذكير بغرض البنيويّة كما حدّده كلود ليفي _ شتراوس Cl. Levi-Strauss: غرض العلوم البنيويّة هو كلّ ما يتّسم بطابع النظام(١٨).

ويُلخّص لنا (إميل بنفينيست) في مقالته (البنية في اللسانيات) تاريخ البنيويّة ومنهجها في بضعة أسطر، فيرى أنّه قد كان مفهوم اللسان كنسق مقبولاً من أولئك الذين تلقّوا تعاليم سوسير في النحو المقارن أوّلاً، ومن ثمّ في الألسنيّة العامّة ثانياً، إذا ما أضفنا إلى ذلك مبدأين آخرين، هما: أوّلاً: اللسان هو شكل وليس جوهراً، وثانياً: أنّه لا يمكن التعرّف على وحدات اللسان إلا عبر علاقاتها. فإنّنا بذلك نحدّد أسس المذهب الذي سيوضّح بعد عشر سنوات (بنية الأنساق اللغويّة). المبدأ الأساسيّ إذاً هو أنَّ اللسان يُشكّل نسقاً تتحد أجزاؤه ضمن علاقة من التضامن والارتباط، ويقوم هذا النسق بتنظيم وحدات، هي عبارة عن علامات متمفصلة تختلف عن بعضها وتحدّد بعضها بالتناوب. ويعلمنا المذهب البنيويّ بأنَّ النسق يسيطر على نظام العلامات، ويهدف إلى استخلاص البنية من خلال العلاقات القائمة بين العناصر، ويبيّن الطابع العضويّ للتبدّلات التي تطرأ على اللسان، فإذا استبدلنا (عمل أدبي) بكلمة (لسان)، فسنرى على الفور كيف يمكن تطبيق منهج من هذا النوع على الأدب لا سيّما إذا عرفنا بأنَّ العمل الأدبيّ هو لغة(١٩).

ويُعدّ التحليل الوظيفيّ أو الشكليّ المجال الامتيازيّ الذي أثبتت فيه النظريات البنيويّة قيمتها وإمكاناتها مما أهّلها لتكون منافساً قوياً للوجوديّة. ومع ذلك فالمنهج البنيويّ تقنيّة بحث لا فلسفة. ولا شكّ في أنَّ ذلك الجو من الحماس والافتتان الذي استطاع إثارته هذا المنهج منذ الستينات راجع إلى قدرته على التحليل والتركيب على

نحو سابق ومستقلّ عن كلّ قصد تأويليّ؛ فهو كإجراء تحليليّ يهتمّ بالأنساق المركّبة مثل القصة القصيرة والرواية والمحكيّ الشعبيّ والخرافات الواجب تصنيفها. وكإجراء تركيبيّ فهو يدرس الظواهر البنيويّة التكراريّة انطلاقاً من متون شفهيّة أو مكتوبة مختلفة. وتحدّد البنيويّة لنفسها غاية الكشف عن وحدات دالّة على أساس مبدأ واضح (هو إثبات لا فرضيّة)، وهو أنَّ موضوع التحليل غير قابل للاختزال إلى مجرّد مجموع أجزائه، وتطابق هذه الوحدات المكشوف عنها وظائف متميّزة، بحيث لا تكون ذات دلالة إلا باندراجها في نسق معيّن، وتُعدّ قواعد التركيب والتنظيم ما يحدّد قيمة هذه الوحدات وليس سماتها الذاتيّة(٢٠). ولهذا فالاتجاه العام للبنيويّة باعتبارها مناقضاً ومناهضاً للتفكير القائم على التجزئة والتفتيت، هو النظرة الكُلّيّة التي تبحث عن النظم الكامنة في الظواهر مجتمعة لا منفصلة، وتفسر لنا علاقاتها بعضها ببعض. ولهذا يمكن القول بأن الخطابات النقدية بعد دي سوسير قد انتعشت وتشكلت عن طريق النقاش حول البنيوية وانعكاساتها الأدبية(٢١).

والبنيويّة في أوربا جاءت بمثابة ردّ على المدرسة التاريخيّة وإعادة النظر في منطلقاتها المبدئيّة والمنهجيّة، وعلى الرغم من أن البنيويّة الفرنسيّة ليست بنيويّة لسانيّة، فإنّها تشتمل على نظريّة في الاتصال، وتُعدّ نظريّة دي سوسير اللغويّة جزءاً بارزاً في خلفيّة البنيويّة الفرنسيّة الشكليّة جاعلة (أي النظريّة) من استخدام المفاهيم اللسانيّة شيئاً أساسيّاً(٢٢). في حين نجد أنَّ البنيويَّة الأمريكيَّة ظهرت وازدهرت بمعزل عن التفكير السوسيريّ، وهي قد صدَرت أساساً عن مشاغل عمليّة متّصلة شديدة الاتصال بعلم الأجناس، وهذه المشاغل تتمثّل خاصّة في إيجاد منهج لدراسة لغات القبائل الهنديّة الأمريكيّة الرائجة في أمريكا الشماليّة، وتبيَّن أنَّها لغات لا يمكن دراستها باعتماد المقولات النحويّة الخاصة باللغات الهنديّة الأوربيّة.

ولكن مما لا ريب فيه أنَّه توجد وجوه شبه بين التيارين – البنيويّة الأمريكيّة والبنيويّة الأوربيّة – يمكن إيجازها في وجوب دراسة اللغة باعتبارها نظاماً تتحرّك به الألسنة بطريقة معيّنة لتتمكّن من التواصل، وعلى هذا الأساس يجب دراسة هذا النظام في ذاته ولذاته لتفهّم كيفيّة تحقيقه لهذه الغاية. ولذا لا يجدي المنهج التاريخيّ نفعاً في هذا المجال؛ لأنَّه لا يعدو أن يطلعنا على أكثر من تطور اللغة وتغيُّر شتات عناصرها عبر التاريخ، دون أن يمدَّنا بما نفهم به نظامها. فإذا كان العمل اللسانيّ هو دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، فإنه يقتضي أن نعتبر اللغة نظاماً لا يمكن أن يفصل عنصر من عناصره عن الآخر، ولا يمكن أن يُنظر إليه معزولاً؛ ذلك لأنّه لا دور له إلا من أجل علاقته ببقيّة العناصر، ولا تُحدّد قيمته إلا بغيره(٢٣).

ويذهب أحد كبار النّقاد البنيويين في القرن العشرين – رولان بارت – إلى أن البنيويّة على وعي حادّ بالطبيعة اللسانيّة للأعمال الإنسانيّة، ولمّا كانت هي كذلك فإنّها الوحيدة التي تستطيع اليوم أن تعيد فتح قضيّة المكانة اللسانيّة للعلم. وبما أن موضوعها هو اللغة – كلّ اللغات – فقد توصّلت سريعاً إلى تعريف نفسها بوصفها اللغة الواصفة لثقافتنا(٢٤).

ويبدو أنَّ بعض الاتجاهات البنيويّة المتمحورة حول الفكر السوسيريّ لم تهمل المستويات المتجاوزة للجملة، كإجالة النظر في النصوص والخطابات الأدبيّة وتحليلها بأدوات وصف علميّة، وهذا ما لم يحدث لتحليل الخطاب في عصور ما قبل البنيويّة إلا نادراً، وقد ألمح إلى ذلك (رولان بارت) مُبشّراً بميلاد علم جديد (لسانيات الخطاب) من رحم اللسانيات البنيويّة بقوله: "وبما أن البنيويّة ناتجة عن اللسانيات، فإنّها تجد في الأدب موضوعاً ناتجاً عن اللغة. وإذا كان هذا هكذا فإنّنا نفهم أنَّ البنيويَّة تستطيع أن ترغب في تأسيس علم للأدب، أو في تأسيس لسانيات للخطاب بصورة

أدق. ويكون موضوع هذا العلم (لغة) الأشكال الأدبية، أي الأشكال التي تَمَّ الوقوف عليها في مستويات عديدة. ويعدّ هذا الأمر مشروعاً جديداً جدّاً؛ لأنَّ الأدب حتى الآن لم يقارب علمياً إلا مقاربة هامشيّة للغاية. وقد قام بهذا تاريخ الأعمال والمؤلفين، أو قامت به المدارس أو مدارس النصوص (فقه اللغة)"[٢٥].

ولهذا فإنَّ النص بفضل البنيويّة تمتع بحياة ثانية؛ لأنَّه أصبح مفهوماً تقنياً عالياً وخصباً في النظريّة الثقافيّة الأكاديميّة، وهذا المنعطف اللغويّ يُميِّزه اهتمامٌ متزايد بالنصيّة Textuality، التي كانت تعني في بواكير القرن التاسع عشر شيئاً مثل الأسلوب الأدبيّ. ومن الناحية التاريخيّة دخل هذا الاستعمال التقني الجديد الحقول المتنوّعة والمتداخلة بتأثير من البنيويّة، حيث كانت بؤرة الدراسة تُركِّز على النص بوصفه صيغة مكتوبة أو منطوقة. وما كان يهم هو أن تُفهَم المظاهر النسقيّة للبنية النصيّة التي تسهل التماسك النصيّ، وتمكّن الاتصال النصيّ بالتفصيل اللغويّ الدقيق. واستند هذا العمل إلى نظريات اللغة والمعنى التي طوّرها مع بواكير القرن العشرين اللغويّ (دي سوسير)، وفي أواسط القرن العشرين الأنثروبولوجي (كلود ليفي شتراوس)، والأعمال الأولى للناقد الأدبيّ (رولان بارت). فقد رأى هؤلاء العلماء أنَّ الاستعمال اللغويّ يحكمه مبدأ أو منظومة من القواعد يستخدمها المتكلمون لا شعورياً، ولا يمكن أن تتغيَّر بحسب المشيئة. فهذا الاستعمال يريد إزاحة المؤلف ومفاهيم الابداع الفرديّ لصالح فهم الأنظمة المجرّدة التي جعلت إنتاج المعنى ممكناً. ويريد كذلك أن يَتحرَّر القارئ من أصل المؤلِّف الحاكم والعمل المؤلَّف، بحيث يصير بوسعه الآن أن يفاوض المعاني مباشرة مع النصوص. علاوة على ذلك ذهب ليفي شتراوس وبارت إلى أنَّ هذا المنظور يمكن تطبيقه بمعزل عن اللغة (بمعناها اللغويّ الضيِّق) على نطاق واسع من الأنظمة السيميائيّة[٢٦].

وعملت البنيويّة منذ ظهورها على النظر إلى النص بوصفه بنية مغلقة، وكان ذلك بهدف إنجاز وصف علميّ له تحت تأثير اللسانيات. وتمّ بذلك استبعاد كلّ ما هو خارج نصي؛ لأنَّه كان موضوع النقد الأدبيّ المتأثر بالعلوم الإنسانيّة (علم اجتماع الأدب، علم النفس الأدبيّ...)، وأتاح هذا التحديد معاينة النص من خلال التركيز على بنياته الداخليّة التي يتشكّل منها[٢٧]. ولهذا يمكن القول بأنَّ البنيويّة قد أعطت للنص بعده اللساني مركّزة على الاهتمام به من الداخل، وتبعاً لذلك انطلقت من كون قيمة النص لا تكمن في ما يُعبِّر عنه، ولكن في طريقة التعبير، وفي ما يدل عليه في حقبة أخرى.

وقد جاءت البنيويّة رد فعل على التصورات السائدة، ودعت إلى فهم مختلف وجديد للأدب والنص. وأدّى هذا التحول إلى معاينة النص من خلال السمات التالية:

أوّلاً: الانفتاح: لم يبق النص مع البنيويّة منتوجاً للمؤلف، ولكنّه صار عمليّة إنتاجيّة يتمّ التركيز فيها على الدال بدل المدلول، وأدّى التحليل الجزئيّ الذي انتهجته إلى التعامل مع مختلف عناصره ومكوناته ووحداته من أصغرها إلى أكبرها. ومن ثمّ سمح لها المستوى التحليليّ الذي تميّزت به إلى جعل النظام الخطيّ للنص موضع استفهام، وذلك على اعتبار أن دالاً ما يُحيل إلى آخر وفق سلسلة من التركيبات والوحدات الشذرية والمتشظية، وكان هذا المستوى يتيح إمكان النظر في احتمالات دلالية متعدّدة لم يكن يحلم بها الكاتب أو يتوقّعها، كما أنَّ القول باستقلالية الدال عن المدلول فتح آفاقاً جديدة للتفكير في النص في ضوء نصوص من أجناس مختلفة، ومن أنظمة علامات متعدّدة، الشيء الذي كشف عن مفهوم التداخل بين النصوص والعلاقات المتعدّدة التي تتخذها فيما بينها.

ثانياً: التعدّد: سمح القول بانفتاح النص بالكشف عن تعدّد دلالاته وتعدّد قراءاته، وليس على امتلاكه دلالة واحدة يختزنها، ومعنى ذلك أنَّ كلّ قراءة تتيح إمكان الكشف عن دلالة مختلفة. هذا التعدّد جعل القراءة إعادة إنتاج للنص، ولم تبقَ تبعاً لذلك استهلاكاً للنص. وبذلك مُحِيت الحدود التقليديّة بين القراءة والكتابة، وتجلى هذا التصوّر بجلاء في مثل هذه المقولات: (موت المؤلف)، و(التمييز بين الراوي والكاتب)، و(الشخصيات في الرواية ليست من لحم ودم)، وما شاكل هذه المقولات التي فهمت وقتها فهماً تبسيطياً واختزالياً.

ثالثاً: التناص: أدّى الوقوف على انفتاح النص وتعدّد دلالاته وقراءاته إلى الانتهاء إلى واحدة من أهمّ سماته التي سيكون لها دور كبير جداً في تطوير النظر إليه وإلى أهمّ خصوصياته، وهي (تفاعله) مع غيره من النصوص السابقة عليه أو المعاصرة له. إنَّ كلّ نص يتفاعل مع غيره من النصوص، بل يمكن الذهاب أبعد من ذلك بالقول: إن كل نص تناص. ومع تبلور السيميوطيقا اتسعت دائرة النص لتمتدّ إلى العلاقات غير اللسانية، فصار إلى جانب الملفوظ المسموع والمرئي. وبذلك تمّ التوصّل إلى أنَّ النص لا يتفاعل فقط مع نصوص شفاهيّة أو مكتوبة فقط، وإنّما أيضاً مع نصوص من أنظمة علامات أخرى غير لسانيّة، وأنَّ النص وهو يتفاعل معها يضمّنها نظامه اللسانيّ بواسطة عمليّة (التلفيظ)، بذلك صار النص لا نهائياً ومتعدّداً من زوايا مختلفة: دلاليّة وقرائيّة وعلاماتيّة. وبسبب هذا التعدّد لا يمكن لأيّ قراءة أن تستنفده؛ لأنّه مفتوح أبداً، كما أنّه لا يمكن لأيّ منهج ادّعاء أنّه الواحد الذي يمكنه الكشف عن دلالته. وكان هذا وراء تعدّد النظريات والمقاربات التي يحاول كلّ منها أن يحيط بجوانب محدّدة لا يتعدّاها إلى غيرها تاركاً المجال لغيره للنظر فيها من جوانب أخرى[٢٨].

إذن، يمكننا القول من خلال ما سبق: إنَّ علاقة (اللسانيات البنيويّة) بـ(تحليل الخطاب) أو بـ(اللسانيات النصيّة) يمكن أن تشكّل أولى مراحل النشأة لهذا العلم الجديد ضمن دائرة اللسانيات المعاصرة، ففي هذه المرحلة التي استمرت حتى منتصف الستينات نجد إشارات تلمح إلى أنَّه ينبغي للنص أو الخطاب أن يكون أساساً للدراسات اللسانيّة، كما تُجسِّد ذلك ملاحظات (شارل بالي) و(بوهلر) و(كيوم) و(هيلمسليف) و(هاريس) و(بنفينيست) و(بايك) و(هارتمان) و(فانرايخ Weinreich)، وغيرهم ممن تحدّثوا بكيفيّة ضمنيّة أو صريحة عن ضرورة الاهتمام بالنص أو الخطاب من خلال الحديث عن لسانيات الكلام، تكون موازية للسانيات اللسان السوسيريّة.

فعلى سبيل المثال يتميّز هيلمسليف (١٨٩٩ – ١٩٦٥م) بكونه من القلائل الذين لهم الفضل في طرح الفكرة القائلة بأنَّ نظرية اللغة هي نظريّة النص، فهو يرى أنَّه من المؤكَّد أنَّ تحليل النص يُعرَض على اللسانيّ كواجب لا مناص منه، فمعطيات اللسانيّ تتلخص في النص (في كلّيته القصوى وفي كونه غير محلل)، وهذا لديه لا يؤدي إلى افتراض أنَّه بذاته موضوع النظريّة، وبعبارة أخرى يمكن أن يكون موضوعاً إمبريقياً عرضياً، دون أن يكون موضوع معرفة، فالنظريّة الهيلمسليفيّة تفترض وصف اللغة وليس النص.

ويؤكّد هيلمسليف أنَّ هدف التحليل هو تعيين العلاقات التي تؤسّس لأجزاء الشيء وليس تعييناً لأجزاء شيء ما (وهو النص هنا)، بحيث إنَّ الكليّة لا تتكوّن من أشياء، ولكن من الارتباطات، إذا كان الأمر لا يقتصر فقط على علاقات وارتباطات بين الأجزاء، ولكن أيضاً بين الأجزاء والكلّ، فيتضح مع ذلك أنَّ كلّية الموضوع المدروس ليس إلا جمعاً له، وهذا ما يحدّد نوعاً من التأليفيّة البنيويّة، ويمنع من وصف تأثير المحليّ (العلامات) على الشموليّ (النص)، زد على ذلك أنّ العلاقات البنيويّة

الأساسيّة تتوطّد بين أجزاء الشيء، وليس بين الشيء وأجزائه. إجمالاً أخذ هيلمسليف بعين الاعتبار النص، ولكن الإجراءات التي طبقها عليه لا تقيم وزناً للنصيّة، فإذا كان التمييز بين النص بمفهوم الخط التركيبي والنص بمفهوم الوحدة، غير خاضع للإشكالية؛ فلأنَّ النظريّة لا تعالج النصيّة، ولا تستطيع تصوّرها، فالإجراءات الوصفيّة هي في الواقع أصناف صرفيّة – تركيبيّة، وتستعمل في درجة النص مفاهيم ومناهج تعود – بحسب تعبير راستيي – إلى الدرجة السفلى، أي درجة الجملة والكلمة(٢٩).

ونجد أيضاً بايك Pike يتناول النص أو الخطاب على أنّه مبنى فريد قائم برأسه، ولا يجوز النظر إليه على أنّه تتابع مسلسل من الجمل، ولهذا أوجب أن يتّسع مفهوم النحو ليصبح مكوّناً من مكوّنات نظريّة شاملة تفسّر السلوك الإنسانيّ، وكذلك أنكر (بايك) على اللسانيين انصرافهم عن دراسة النص الأدبيّ لصالح نقّاد الأدب مع ما للمعالجة اللسانيّة من أهميّة خاصّة في تقديم الأساس الموضوعيّ للأحكام النقديّة(٣٠).

وتُعدّ أفكار (ت.ك.فريز) استثاءً خاصّاً داخل اللسانيات البنيويّة لِمَا أبداه من إشارات ضمنيّة تنبئ عن التفاته إلى ظواهر نصيّة تسترعي الانتباه، ومن ذلك تأكيده أنّ "كلّ وحدات الجملة التي تتبع الأولى التي تبدأ محادثة تحتوي دائماً من الناحية العمليّة على شكل ما من إشارات التوالي. ولا تحتوي كلّ جمل التوالي داخل كلام متواصل لشخص ما على إشارات التوالي هذه فقط، بل تضمها أيضاً (منطوقات الإجابة) لمتكلم ثان مواصلاً المحادثة"(٣١).

وهذا الذي أتى به هؤلاء الباحثون – كما هي الحال لدى بعض معاصريهم من اللسانيين البنيويين – يتعلق بإشارات عابرة لم تعقبها أيّة اقتراحات حول معالجة نحويّة منظّمة للظواهر النصيّة؛ ولهذا لم تُؤثّر مثل هذه الملاحظات المتناثرة في مسيرة

اللسانيات المألوفة (لسانيات الجملة)؛ لأنَّ أصحاب المناهج المتداولة اتجهوا اتجاهاً معاكساً لا شكّ فيه، فالانهماك في النظر إلى الوحدات الصغرى والجمل المفردة أدّى بطبيعة الحال إلى الانصراف عن دراسة النص / الخطاب الكامل(٣٢).

ويبدو من خلال ما سبق أن اللغويين المحدثين الذين ينضوون تحت اللسانيات البنيويّة، قد اختلفت مواقفهم في مسألة مقاربة النص ودراسته، فهناك فريق لم يتبادر إلى ذهنه إثارة مثل هذه القضيّة، وركن في بحوثه إلى دراسة الجملة ومعطياتها، دونما خوض فيما يتجاوزها من النصوص والخطابات، وهذه الفئة في تناولها للغة تركّز دائماً على تحليل بنية الجملة ووصفها، ولا سيّما على تجزيء وحدات لغويّة وتصنيفها داخل مستوى الجملة، وهي بذلك تقوم بتفتيت أجزاء نماذجها باصطناع مستويات ووحدات صغرى تقوم بتفريعها من خلال التصنيف، أي بخطة لتوزيع العناصر بواسطة السمات المميزة، وإذا كان كلّ مستوى من مستويات الوحدات الصغرى يُعدّ نظاماً من التقابلات المتبادلة، فإنَّه ينبغي لحصيلة كلّ نظام أن تجمع بأكملها، ومن ذلك مثلاً: الصوتيات والصرف. أما العلاج الشامل للمعاني والمواقف، فقد وُجد مستحيلاً، فنُحِّيت هذه المجالات جانباً(٣٣).

وهؤلاء يمثلون الفئة الغالبة من اللسانيين البنيويين، الذين ساروا على خطى (سوسير) دون أن يطوروا في إجراءاتهم البحثيّة، قانعين بالجملة أكبر وحدة يمكن أن تطالها أدواتهم الواصفة، جاعلين من القضايا المُتعلّقة بالخطاب والحوار أموراً هامشيّة لا يتطرّقون إليها إلا بما يخدم غرضهم القريب، وهم بذلك لم يبتعدوا عن أستاذهم كثيراً، "فالنظام اللغويّ يقع دائماً بالنسبة إلى دي سوسير في بؤرة الاهتمام، غير أنّه ليس وظيفة للذات المُتحدِّثة، بل هو نتاج اجتماعي، ومن ثَمَّ لم تُعطَ الوظيفة الإبلاغيّة لديه إلا أهميّة ثانويّة، فهي تقع بالنسبة له في مجال الكلام - الحديث - الذي لا يكون

وثيق الصلة بالنسبة له إلا بمقدار ما يتيح له مدخلاً إلى اللغة، ولذلك لم يحلّل عمليّة الاتصال بين فردين إلا تحليلاً سطحياً للغاية؛ إذ قسَّمها بالنسبة للمتكلم إلى ثلاث مراحل: مرحلة نفسيّة، ومرحلة فسيولوجيّة، ومرحلة فيزيائيّة، تتكرر بالنسبة للسامع في تتابع عكسي»[٣٤].

وهناك فريق آخر، وخير من يُمثّله (بلومفيلد)، نَظرَ إلى مسألة تجاوز حدود الجملة وبنيتها اللغويّة، واتّخذ موقفاً رافضاً لإمكانيّة إدراج النص والخطاب ضمن دائرة اللسانيات، فالنص من وجهة نظرهم ليس إلا مظهراً من مظاهر الاستعمال اللغوي غير قابل للتحديد، وقد تركوا بذلك تناوله لأصحاب الدراسات النقديّة والنفسيّة والاجتماعيّة وغيرها من العلوم والمعارف التي تعطي للنص والخطاب أهميّة بالغة في مقارباتها.

وهناك فئة ثالثة راوحت في دراساتها بين الجملة والنص، رافضة الوقوف عند حدود الجملة التي افترضها كثير من اللسانيين أكبر وحدة للوصف القواعديّ، وقد ألمحنا إلى بعض من هؤلاء اللسانيين آنفاً، ونرغب هنا في الوقوف وقفة متأنّية عند عالمين لغويين من فئة الدارسين هذه، وهما: زيليج هاريس Zellig Harris ممثلاً للنموذج البنيوي الأمريكي، وإميل بنفينيست E.Benveniste ممثلاً للنموذج البنيوي الأوربي، لنقوم بإبراز دورهما الفاعل في هذا الجانب، فقد قدَّم هذان العالمان الكبيران دراسات متميّزة، ذات قيمة علميّة عالية في وقتها في دراسة النص وتحليل الخطاب، وكان لها شأن أكبر لدى علماء لغة النص في العقود اللاحقة، مما يجعلنا نعتقد أنَّ هذه الأعمال المبكِّرة التي قاما بها يمكن أن تعدّ تتويجاً للدراسات والبحوث التي تناولت النص في هذه المرحلة من مراحل النشأة الأولى للسانيات النص وتحليل الخطاب.

٢- ١- ١ زيليج هاريس:

تذهب فئة من الباحثين إلى أنَّ أجروميّة النص قد وُلدت من رحم البنيويّة الوصفيّة القائمة على أجروميّة الجملة في أمريكا، وتُعدّ أعمال هاريس (١٩٠٩ – ١٩٩٢م) - تلميذ بلومفيلد وأستاذ تشومسكي ثُمّ مريده فيما بعد – عن (تحليل الخطاب) من معالم الطريق في هذا الاتجاه(٣٥)، حيث قام بتقديم دراستين تحت عنوان: تحليل الخطاب Discourse Analysis عام (١٩٥٢م)، انطلق فيهما من ضربين من المسائل يمكن أن يُتصوّر أي تحليل للخطاب من خلالهما، إحداهما هي: العلاقة بين اللغة والثقافة والمجتمع، أي العلاقة بين السلوك اللغويّ والسلوك غير اللغويّ، حيث ذكر عزوف الدارسين عن الاهتمام بهذه العلاقة؛ لاعتبارهم السلوك من قبيل الظواهر الخارجة عن اللغة.

وأما المسألة الثانية فهي: توسيع حدود موضوع البحث اللسانيّ بجعله يتعدّى (الجملة) إلى (الخطاب)، فاللغة - وفقاً لهاريس - لا ترد في صورة كلمات أو جمل منعزلة، بل في نص مترابط، بدءاً من المنطوق المُكوَّن من كلمة واحدة حتى المؤلَّف المُكوَّن من عشرة مجلدات، من الحوار الفرديّ حتى المناظرة العامّة. ولذا ينبغي ألا تحلّل الجمل إلا في سياق نصوص دائماً، باعتبارها أجزاء من خطاب شامل(٣٦).

وتُعدّ مباحث هاريس في دراسته للخطاب مدخلاً منهجيّاً يصعد في التحليل من (الجملة) إلى (النص)، وذلك خلافاً لنهج كثير من علماء لغة النص اللاحقين الذين يرون ضرورة أن يهبط التحليل أساساً من النص، أي استنباط الجمل وكلّ الوحدات اللغويّة الأخرى من النص(٣٧)، ولذلك عُدّ الخطاب لدى هاريس متتالية من الجمل تُكوِّن مجموعة منغلقة، يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجيّة التوزيعيّة، وبشكل يجعلها في مجال لسانيّ محض. وبمقتضى هذا

التعريف يسعى هاريس إلى تطبيق تصوّره التوزيعيّ على الخطاب، والذي من خلاله تصبح كلّ العناصر أو متتاليات العناصر لا يلتقي بعضها ببعض بشكل اعتباطيّ، وفي مختلف مواطن النص؛ إذ إن التوزيعات التي تلتقي من خلالها هذه العناصر تعبّر عن انتظام معيّن يكشف عن بنية النص. ومحدد هذا الانتظام بين متتاليات الجملة يكمن فيما يسميه بالتوازي. ومن خلال بحثه عن طبقات التوازيات الموجودة بين العناصر (أجزاء النص، المورفيمات...) فيما بينها وبحسب الترابطات الموجودة بينها يضبط بنية النص، وذلك عن طريق تشكيل طبقات التوازي الحاصلة في لوحة ذات محورين أفقيّ وعموديّ. تظهر في المحور الأوّل العلاقات بين طبقات التوازي داخل كلّ جملة في النص. أما في المحور العموديّ فإنّنا نجد تتابع الجمل حسب ترتيبها كما هي عليه في النص المتن[٣٨].

لقد جاءت هذه النتائج التي أتى بها هاريس في دراسته مخالفة لما كان متوقَّعاً وسائداً في عصره، فجميع النتائج التي صدرت عن التحليل اللغويّ في تلك الآونة كانت تقع تقريباً ضمن امتداد لغويّ قصير نسبيّاً، يُسمَّى (الجملة)، ورأى هاريس أنّه "لم يكن هناك ما يدعو إلى الوقوف بمجال التحليل اللغويّ عند حدود الجملة، بل كان ذلك من قبيل العادة التي دأب عليها الدارسون؛ لأنّهم وجدوا في ما دون الجملة ما يفي بوصف جميع الظواهر اللغوية، فالغرض من الدراسة الوصفيّة هو وصف مختلف الاستعمالات التي تكون للوحدة اللغويّة في جميع الأقوال مهما كان طولها، لكنّ ذلك الوصف جرى في الغالب في حدود الجملة الواحدة دون أن يُقْلِقَ الدارسين؛ لأنهم وجدوا فيه ما يغني"[٣٩].

ومن الجدير بالذكر أنّ آراء هاريس في تحليل الخطاب - كما يرى (رايزر) – لم تُعرف في أوربا بسبب طغيان الدراسات الفيلولوجيّة، وتأثير مدرسة براغ على الدراسات الألسنيّة فيها، فمن خلال مدرسة براغ عرفت أوربا المداخل الأولى للولوج

إلى النصوص وعالمها في الدرس اللغويّ، فقد أشارت هذه المدرسة على سبيل المثال في موضوعاتها المنشورة سنة (١٩٢٩م) إلى أن الوظيفة الأساسيّة لكلّ نظام لغويّ تكمن في إنتاج منطوقات، أي نصوص ووحدات لغوية(٤٠). ولهذا فإن المبررات التي أعطيت أخيراً لظهور علم النص في أوربا كانت هي المبررات نفسها التي ساقها هاريس من قبل في أمريكا(٤١). ونحن هنا لا نستطيع أن نسحب هذا الأمر الذي يقرّره (رايزر) على لسانيات النص في مرحلة التأسيس والازدهار؛ إذ غزت بحوث هاريس ومقالاته أوربا بجميع لغاتها، وأصبح عُرفاً لدى معظم الباحثين الذين يضطلعون بالتأريخ لمراحل نشأة لسانيات النص وتحليل الخطاب التعرض لهاريس وجهوده في توجيه مسيرة هذا العلم الجديد من فروع علم اللغة.

ثُمَّ إنَّ جهود هاريس في تحليل الخطاب كانت موضع دراسة ونقد بعض علماء لغة النص على اختلاف أجيالهم، وإذا أردنا أن نتتبّع هذه المواقف فإنّنا سوف نجد أنَّ الباحثين قد انقسموا إلى فريقين: فريق يعطي قيمة عالية لهذه الأعمال التي قام بها هاريس، ويرى أنّها تدلّ على ريادته في هذا المضمار، باعتباره أوّل لسانيّ حاول صراحة توسيع حدود موضوع البحث اللسانيّ بجعله يتعدّى الجملة إلى الخطاب. وهناك فريق آخر يُقلّل من قيمة هذا الجهد، ويصل الحدّ ببعضهم إلى أن يرى أنَّ هذا العمل لا يمتّ بصلة إلى تحليل الخطاب إلا في النادر. وسنقوم هنا بعرض آراء كلّ فريق منهما مبتدئين بالفريق الأوّل، والذي يمثّله:

١- هانز رايزر Hannes Reser: يرى (رايزر) أنَّ محاولة (هاريس) في دراسته الألسنيّة البنيويّة Structural Linguistics كانت بداية النهاية للبنيويّة التقليديّة؛ لأنّه حاول وصف اللغة من خلال جمل أساسيّة متعرِّضاً لما يلحقها من تحويلات تؤدِّي إلى إنشاء سائر الجمل في اللغة. ويمكن بواسطة هذه الطريقة أن

تفسّر كثيرًا من الجوانب البنيويّة المعنويّة، إضافة إلى تفسير الغموض بحسب رأيه. ويذهب رايزر إلى أنَّ هاريس قد أشار إلى أنَّ البنيويّة التقليديّة لم تتعرّض إلى الوحدات اللغويّة فوق مستوى الجملة لتبيّن العلاقة فيما بينها، وذلك ما دعاه لأن يقترح ضرورة العناية بتحليل الخطاب من أجل تحقيق هذه الغاية(٤٢).

٢- فان دايك Van Dijk: يرى (فان دايك) أنَّ لسانيات النص لم تبدأ فرض وجودها إلا مع بدايات النصف الثاني من القرن العشرين، حين نشر هاريس دراستين اكتسبتا أهميّة منهجيّة في تاريخ اللسانيات الحديثة؛ إذ إنّه بهاتين الدراستين لم يكن أول لسانيّ معاصر يعتبر الخطاب موضوعاً شرعيّاً للدرس اللغويّ فحسب، بل إنّه جاوز ذلك إلى تحقيق قضاياه التي ضمنها برامجه بتقديم أوّل تحليل منهجيّ لنصوص بعينها. وقد خرج بذلك عن تقليد أرساه (بلومفيلد) يقضي بأنَّ التعبير اللغويّ المستقل بالإفادة، أو (الجملة)، هو ما يهتمّ به اللسانيّ. أما (النص) فليس إلا مظهراً من مظاهر الاستعمال اللغوي غير قابل للتحديد(٤٣).

ومع أنَّ هنالك دراسات سابقة لأعمال هاريس يمكن أن تعدّ بحق البدايات الأولى في تحليل الخطاب، هذه الدراسات قدَّمت إشارات نصية متناثرة ذات قيمة عالية، إلا أنه قد غاب عن أصحابها الوعي الكامل بأهمية مثل هذه الإشارات في تغيير دفّة اللسانيات الحديثة صوب النصوص والخطابات، فلم يكن هنالك رؤية جدّية وواضحة لأهميّة مثل هذا المشروع النهضوي الذي يحتاج إلى جرأة في الطرح وعمق في التحليل، ولهذا جاءت هذه الدراسات تحت عناوين متباينة تتفاوت في بعدها عن الخطاب وتحليله، ولم تأت تحت عناوين عامة توحي بالمضمون على غرار ما قام به هاريس في دراستيه.

وعلى الرغم من هذه الأهميّة التي يوليها (فان دايك) لأعمال هاريس في مجال تحليل الخطاب، وكون هذا الجهد يمثّل أوّل تحليل منهجيّ لنصوص بعينها، أقول على الرغم من ذلك إلا أنَّ المرء يمكنه أن يقف على تباين واضح لدى فان دايك في تقدير أهميّة مثل هذه الجهود، ذلك أنّنا وجدناه في كتابه (النص والسياق) يقول: "ويصدق نفس الأمر على أحد المؤسّسين للسانيات البنيويّة وهو زيليج هاريس، وإن كان (تحليله للخطاب) قد لا يمتّ بصلة إلى تحليل الخطاب إلا في النادر، بل بنظريّة البنية التركيبيّة النحوية للجمل"(٤٤).

فكثير من الظواهر الخاصّة باللغة الطبيعيّة هي لدى (فان دايك) خواص خطابيّة، وهي من ثَمَّ لا يمكن وصفها بشكل كاف في أشكال النحو الموجودة (نحو الجملة)، وهذا ما وقع فيه هاريس؛ إذ إنَّه لم يستطع بطريقة أو أخرى التخلص من التوجه التوزيعيّ في النظر إلى النصوص، فالتعادل – وهو من أكثر ما ألحّ عليه – لا يقوم في الواقع إلا على مبدأ التردّد والتوزيع(٤٥).

٣- هاينه مان Heinemann وفيهفجر Viehweger: يرى هذان الباحثان أنَّ هاريس قد نقل مجموعة الوسائل المنهجيَّة المهمّة من وجهة نظره الخاصّة بالتحليل البنيويّ للجملة (التجزئة والتصنيف والتوزيع) إلى المستوى النصيّ الجديد، وحاول بواسطة إجراءات شكليّة التوصل إلى وصف بنيويّ للنصوص. كان يهمه هنا في المقام الأول كشف الأقسام المتكافئة للعناصر أو مجموعات العناصر المفردة داخل فقرات كلاميّة مترابطة أو نصوص كاملة. وكذا الكشف عن توزيعها في النص، ومن ثَمَّ فالنصوص بالنسبة له هي: تتابعات لتلك الأقسام المتكافئة. ويمكننا أن نعدّ هذه الفكرة الأساسيّة والإجراء المنهجيّ لهاريس محاولة من المحاولات الأولى للاقتراب من وصف ظواهر نصية، لكن الأهمّ من المدخل

المنهجيّ هو حقيقة أنَّ هاريس بوصفه واحداً من أولئك اللغويين قد حدّد الـنص بأنّه الموضوع الحقيقيّ لأوجه الوصف اللغويّ"(٤٦).

وأما الفريق الثاني من الباحثين فيرى أنَّ (هاريس) باعتباره توزيعياً، سعى إلى تحليل الخطاب بالتصوّر والأدوات نفسها التي تُحلّل بها الجملة، وبناء على ذلك فقد جاءت نتائج دراسته بلا أهميّة، ولم يقتصر مجال النقد الذي وُجِّه إلى هاريس على هذا الجانب فقط، بل هنالك جوانب أخرى متعدّدة صدرت عن باحثين يقلّلون من قيمة عمله، ويرون أنَّ فيه ثغرات تشكِّل مدخلاً يتسلّل من خلاله النقد إلى تحليله للخطاب، ويمكننا هنا الوقوف على بعض من ذلك:

١- روبرت دي بوجراند Robert De Beaugrande: يذهب (دي بوجراند) إلى أنَّ محاولة هاريس في تحليل الخطاب تمثِّل المرحلة التالية لمرحلة الدراسات الفيلولوجيّة من حيث الاهتمامُ بالدراسات النَّصية، ويرى أنَّ هاريس في هذه الدراسة قام بإدخال مفهوم التحويلات التي تؤدِّي إلى معادلات نصيّة. وقد وجد مفهوم التحويلات طريقه إلى (نعوم تشومسكي) في مرحلة تالية، وعلى الرغم من ذلك فإنَّ (دي بوجراند) يذهب إلى أنَّ نظريّة التحويلات وفق نظريّة التوزيعات وجدت قليلاً من الاهتمام في دراسات تحليل الخطاب، ويرى أنَّ نظريّة التحويلات التي تتمخّض عنها التركيبات اللغويّة المماثلة لا تخبرنا بشيء عن علاقات المعاني بعضها بعضاً، ويعني ذلك باختصار أنَّ نظرية هاريس لا توضح الأُسس التي تصبح بها الجمل مترابطة من الناحية المعنويّة في داخل بيئة النص(٤٧).

٢- دريسلر Dressler ودي بوجراند De Beaugrande: يرى هذان الباحثان في كتابهما (المدخل إلى التحليل النصيّ) أنَّ هاريس قد اشتغل في تحليله للخطاب على متون قصيرة وذات طبيعة إشهاريّة تكثر فيها التوازيات بشكل ملموس. كما أنَّ اختزاله التحليل بحسب المكوِّنات المباشرة يجعل كلّ جملة تعود إلى بنياتها الأوّلية: مركب اسمي 'مركب فعلي. وإذا كان كل نص قابلاً لأن يرجع إلى هذه البنية الأساس، فإنَّ هذا النمط من الاختزال يصبح بلا أهميّة في تحليل الخطاب؛ لأنَّه بدل العمل على إبراز البنية الخاصّة لجمل نص ما في تسلسلها، يقف التحليل عند حدّ تقديمه الخطاب متتاليةً من مركبات اسميّة وفعليّة ذات علاقات معيّنة(٤٨).

٣- ويليام هيندريك Wiliam O. Hendrick: يقترب النقد الذي وجّهه (هيندرك) إلى هاريس من المأخذ الذي أدلى به (دي بوجراند) آنفاً، فيرى هذا الباحث أنَّ عدم وجود علامات صريحة للربط ليس هو السبب الوحيد الذي يبرّر اللجوء إلى البنية العميقة للخطاب، فالمبرّر النهائيّ للجوء إلى هذه البنية يكمن في العيوب الموروثة في طريقة معالجة مسألة تماسك النص على أساس ربط الجمل (التبعيّة)، فقد قارن (فان دايك) دراسة ربط جملة بأخرى بأمثلة ماركوف المقترحة لدراسة بنية الجملة، وذهب فان دايك إلى أنَّ هذا النمط من الانتقال لا يفسّر سوى وجه واحد من المسألة برمتها، وهو التماسك على مستوى السياق الأصغر (أي السطح)، وللتماسك جانب آخر على مستوى السياق الأكبر (أي المستوى العميق)، وهو يخص الوحدة الكبيرة التجريديّة للنص. وهي لا تعتمد على الانتقال النحويّ وحده، وينبغي التأكيد أنَّ دراسة التماسك العميق والتماسك السطحيّ مهمان معاً، ولا يوجه النقد إلا للبحوث التي تدرس بنية النص استناداً

إلى الربط السطحي فقط، وهذه في الحقيقة إحدى نقاط الضعف الخطيرة في بحوث هاريس في تحليل الخطاب[٤٩].

٤- شميت Schmidt: يوجّه (شميت) نقداً عامّاً لكلّ من اشتغل بالنص والخطاب في الحقبة البنيويّة التي ضمّت هاريس وغيره من الباحثين المعاصرين، ويُشير إلى أنّه في الواقع قد اعتُرف بأنَّ (هيلمسليف) و(هاريس) و(فريز) وآخرين قد اشتغلوا بالنص بوجه عامّ في أوصافهم اللغويّة، ولكن هؤلاء اللغويين لا يراعون بُعْد النص على وجه الخصوص، فلم يجعلوه مستوى الانطلاق والضابط لدرسهم اللغويّ بأكمله[٥٠].

٥- تودوروف Todorov: يُسجّل (تودوروف) أنَّ الدراسة الشاملة للنص كما هو منظور إليها في مقارباته لا تتقلّص إلى ما يسميه (هاريس) وتلامذته بتحليل الخطاب الذي ترتكز منهجيّته على تقطيع النص إلى العناصر (عادة لمركب أو عدد من المركبات المعجمة) المجتمعة في فئات التوازي: فئة مكوّنة من العناصر التي تستطيع الظهور في سياق مطابق أو مشابه. لذلك لا ننشغل لمعرفة ما إذا كان للعناصر المتساوية المعنى نفسه أم لا. بعض الجمل تحتوي على عناصر متساوية وأخرى غير متساوية. عندئذ ستوصف كما لو أنَّ هناك علاقة تحويليّة (مفهوم لتمييز التحويلات التوليديّة والتحويلات الخطابيّة) أنجزت بحوث موازية حول عناصر الجملة التي تحتوي إحالتها على الجملة السابقة: أدوات التعريف، الضمائر...إلخ[٥١].

٦- جرهارد نيكل Gerhard Nickel: يذهب (نيكل) إلى أنّه يرجع اقتصار التحليل النحويّ على جملة مستقلة داخل البنيويّة التصنيفيّة فيما يرجع إلى (بلومفيلد)، ويرى هذا الباحث أنَّ الدراسات التي تناولت جوانب نصيّة في ظلّ

سيادة نحو الجملة في تلك الآونة لم تخرج عن الإطار السائد، ويوجِّه نيكل هنا نقده إلى أعمال (هاريس) و(هيلمسليف)، مُبيّناً أنَّ كتاب هاريس: (تحليل الخطاب) لا يُعدّ في الأصل توسيعاً لمجال النحو، بل أريد به أن يبحث العلاقات بين اللغة والثقافة، ويسجل أيضاً أنَّ مطلب البنيويّ الدنماركيّ (هيلمسليف) بجعل النص نواة بحوث لغويّة ظلّ بلا نتائج تقريباً بالنسبة للواقع اللغويّ"(٥٢).

ومهما يكن من أمر هذا النقد الموجّه إلى هاريس وجهوده في تحليل الخطاب، فإنّنا لا نستطيع أن ننكر مدى التأثير الذي مارسته تلك الأعمال التي قدَّمها في سيرورة لسانيات النص وتحليل الخطاب، ومعظم الباحثين الذين يؤرِّخون للنشأة الحقيقيّة للسانيات النص داخل إطار علم اللغة الحديث يبدأون من جهود هاريس في كتابه: (تحليل الخطاب)، ويجعلون منه رائداً لتحليل النصوص، وإن كان من هنات وقع فيها هاريس في تحليله فتلك هي طبائع الأمور في الأعمال التي تمثِّل البدايات الأولى لنشأة أي علم من العلوم، ولهذا نجد أنَّ أتباع هاريس ومريديه قاموا بتلافي المآخذ التي وقع فيها أستاذهم، ومما يبعث العجب أن يكون الذين يقلّلون من قيمة العمل الذي قام به هاريس هم من رواد علم لغة النص المتأخرين، وكأنّهم ينتظرون من هذا العلم الذي يمثّل أحدث علوم اللسان أن يشبّ واقفاً على ساقيه من الوهلة الأولى التي ظهر فيها كتاب هاريس (تحليل الخطاب)، على الرغم من أنَّ كثيراً من الباحثين والنقاد يرون – إلى وقت قريب – أنَّ معظم ما قُدِّم من بحوث ودراسات في مجال علم لغة النص ما زال يمثِّل مقترحات أوّلية لهذا العلم.

٢- ١- ٢ إميل بنفينيست:

يُشير (تادييه) – في حديثه تحت فصل (اللسانيات والأدب) ضمن كتابه (النقد الأدبي في القرن العشرين) – إلى أنّه "حوالي عام ١٩٦٠م كانت الأمور تسير كما لو

أنَّ نهراً جوفياً صعد إلى سطح الأرض ليجرف معه أقدم المناهج بما فيها الظاهراتيّة، وليغرقها في مجراه. والواقع أنَّ اللسانيات البنيويّة قد بلورت تأثيرها بفضل اسمين كبيرين هما: (رومان جاكوبسون) و(إميل بنفينيست)، وقد اكتشفت فرنسا الأوّل عبر مقالة كتبها (كلود ليفي شتراوس)، أما الثاني (بنفينيست) - الذي تناوب في مقالاته منذ عام ١٩٥٠م على فكر (فردينان دي سوسير) المتجلّي في كتابه (محاضرات في اللسانيات العامة) بهدف نقده وتجاوزه فيما بعد – فقد نشر كتابه (قضايا اللسانيات العامّة) عام ١٩٦٦م المتضمن أساسيات أبحاثه"[٥٣].

ويذهب رولان بارت إلى أنَّ "مكانة بنفينيست (١٩٠٢– ١٩٧٢م) بين عظماء اللسانيين الذين وسموا بتأثيرهم كل العمل العقلي في عصرنا لتعدّ مكانة أصيلة، فعمله لا يزال إلى اليوم مفارقاً مرتين: إنَّه مفارق إزاء التقاليد، ومفارق إزاء ما نسميه الطليعة السهلة، أي تلك التي تكرّر بدل أن تبحث...، لقد أسّس بنفينيست لسانيات جديدة، لا توجد في أيّ مكان آخر سوى عنده، وإنَّها لا توجد عند (تشومسكي) على وجه الخصوص، إنَّها: (لسانيات التخاطب)، فالعالم كلّه يتمفصل على هذا الشكل: أنا / أنت، وإنّنا لنفهم منذئذ لماذا كان بنفينيست يلحّ على طول عمره على الضمائر التي يقال عنها ضمائر شخصيّة. كما نفهم لماذا كان يلحّ على الزمانية وعلى الاستهياء وعلى التأليف (وهو فعل مفضل لاستملاك الألفاظ)، وإنّنا لنفهم أيضاً لماذا أقام بنفينيست منذ وقت مبكّر جسراً بين اللسانيات والتحليل النفسي، وإضافة إلى ذلك فإنّنا نفهم من غير جهة لماذا استطاع هذا المختصّ بالفارسيّة القديمة أن يستوعب البحوث الجديدة للسيميولوجيا، وكذلك عمل الطليعة حول اللغة"[٥٤].

وهنا يُلمح بارت إلى بعض الأفكار التي طرحها بنفينيست في دراسته التي كتبها حول (الذاتية في اللسان) عام ١٩٥٨م، نجد فيها تحديداً لخصائص الخطاب، حيث

يؤكّد فيها بنفينيست أنَّ اللغة ليست أداة، أي أنَّها ليست شيئاً مصنوعاً إنما تكمن في طبيعة الإنسان الذي لم يصنعها، ونحن – كما يرى بنفينيست – لن نتوصّل أبداً إلى معرفة تلك اللحظة الأسطورية التي قد يصنع فيها رجلان اللغة، حتى لو كان الإنسان معزولاً عن الآخرين فإنَّه لن يتمكّن من ذلك أبداً، إنَّ الإنسان الذي نجده في العالم هو إنسان يتحدّث إلى إنسان آخر، واللغة تعلمنا كيف نعرف الإنسان، ويعود السبب الأساس في ذلك إلى أنَّه في اللغة ومن خلالها يتشكّل الإنسان كفاعل، وأنا هو الذي يقول (أنا)، والذاتيّة ليست سوى انبثاق خاصية أساسيّة من خصائص اللغة في الكائن، (أنا) يرتبط بـ(أنت)؛ لأنَّه لا تمكن البرهنة على الذات إلا عن طريق المتضادات، وشرط الحوار هذا هو الذي يُكوِّن الشخص؛ لأنَّه يتطلب أن يتحول (أنا) إلى (أنت) بشكل متناوب، ضمن خطاب الشخص الذي يعين نفسه بدوره بواسطة (أنا). هاتان العبارتان هما عبارتان متكاملتان، وتحلّ الواحدة منهما محلّ الأخرى، ويتكشّف الأساس اللغويّ للذاتيّة عبر علاقة جدليّة تشمل (أنا) و(أنت)، وتعرفهما عن طريق علاقة متبادلة، وبذلك تنشأ اللغة كلّها من الذاتيّة.

والضمائر الشخصيّة توجد في كافّة الألسن، واللسان الذي يفتقر إلى التعبير عن الشخص لا وجود له، والضمائر لا تحيل إلى مخلوق مفرد يكون دائماً نفسه ولا إلى مفهوم الـ(أنا)، وإنّما إلى فعل الخطاب الفرديّ الذي يُلفظ فيه الضمير ويُحدَّد المتحدث، في اللحظة التي يقول فيها المتحدث (أنا) يمتلك اللسان كلّه، وبالتالي فهو يُلحِق بنفسه بتعبير الزمانيّة. ويختم بنفينيست حديثه بالقول: إنَّ عدداً كبيراً من المفاهيم اللغويّة التي تظهر بأشكال مختلفة، إذا أعدناها إلى إطار الخطاب، الذي هو اللسان، الذي ينهض به الإنسان المتكلم، وإلى شرط الذاتيّة المتبادلة، فإنَّ تلك وحدها التي تجعل التواصل اللغويّ أمراً ممكناً[٥٥].

وبناء على ذلك فإنَّ موقف (بنفينيست) في دراسته للغة يأتي من خلال الدعوة إلى ضرورة إيجاد نظريّة لسانيّة أكثر واقعيّة، هي نظريّة القول (نظريّة التلفظ)، تكون قادرة على أن تأخذ في الحسبان بعض القضايا اللغويّة في اللسانيات الخطابيّة، لا سيّما الجوانب الذاتيّة والشخصيّة للفرد المتكلّم التي تجسّد بوضوح وتترك آثار تدخله في كلّ عمليّة القول. وفي اتجاه واضح نحو تجاوز اللسانيات السوسيريّة يُحبّذ بنفينيست دراسة (الجملة) وحدةَ تعبير خطابيّة تسمح بالانتقال من مجال اللسان نَسَقاً من العلامات لنلج عالماً آخر هو عالم اللسان بوصفه أداة تواصل، وحيث التعبير هو (الخطاب)، الذي ينظر إليه بنفينيست باعتباره الملفوظ منظوراً إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل، والمقصود بذلك الفعل الحيوي لإنتاج ملفوظ ما بواسطة متكلم معيّن في مقام معيّن، وهذا الفعل هو عمليّة التلفظ، بمعنى آخر يحدّد بنفينيست الخطاب بمعناه الأكثر اتساعاً بأنّه: كلّ تلفّظ يفترض متكلّماً ومستمعاً، وعند الأوّل هدف التأثير في الثاني بشكل ما من الأشكال، ويمكن لهذه الخطابات أن تكون شفويّة أو مكتوبة، إذا تعلق الأمر بالبلاغة أو بالرسائل أو بالمذكرات أو بالمسرح أو بالكتب التعليميّة[٥٦].

وإذا كان (هاريس) يُقدِّم تحديده للخطاب انطلاقاً من تعريف (بلومفيلد) للجملة عبر تأكيده على وجود الخطاب رهيناً بنظام متتالية من الجمل تقدم بنية الملفوظ، فإنَّ تعريف بنفينيست للخطاب سيكون له من منظور مختلف أبلغ الأثر في الدراسات الأدبيّة التي تقوم على دعائم لسانيّة، فهو يرى أنَّ الجملة تخضع لمجموعة من الحدود؛ إذ هي أصغر وحدة في الخطاب. ومع الجملة نترك مجال اللسانيات نظاماً للعلامات، على اعتبار أنَّ الجملة تتضمّن علامات وليس علامة واحدة، وندخل إلى مجال آخر حيث اللسان أداة للتواصل نعبّر عنه بواسطة الخطاب. وبإقامة هذا التمييز

يجعلنا بنفينيست أمام مجالين يختلف أحدهما عن الآخر، وإن كانا يُعانِقان الواقع الواحد، ويقدمان تبعاً لذلك لسانيتين مختلفتين، وإن كانت طرقهما تتقاطع دائماً. فهناك من جهة: اللسان مجموعةَ علامات مستخلصة بواسطة إجراءات صارمة، ومن جهة أخرى: هناك تجلي اللسان في عملية التواصل، وتبعاً لذلك تغدو الجملة منتمية إلى الخطاب، ويمكن تعريفها بأنّها وحدة خطاب[٥٧].

لقد غيّرت دراسات بنفينيست فهمنا للأدب؛ لأنّه لغة قبل كلّ شيء، فإذا كانت اللغة مادّته وأداته، فهي مادّة محمّلة بالمعنى، ولهذا كان لتلك الدراسات دور أساس في توجيه تلك الأعمال التي جعلت من اللسانيات أداة فاعلة في تحليل النصوص الأدبيّة، وبوحي من أفكاره في هذا المضمار أنجز (هنري فينريش) دراسته التي بعنوان: (الزمن، السرد، والتعليق) عام ١٩٦٤م، لتكمل المبادئ التي طرحها بنفينيست، وتطورها لتفهمنا آلية عمل مختلف الأجناس الأدبيّة بشكل أفضل، وانطلاقاً من بعض النصوص، فقد رفض (فينريش) الوقوف عند حدود الجملة التي افترضها بعضهم (بلومفيلد وليونز): (أكبر وحدة للوصف القواعدي)، واقترح منهجه في الألسنيّة النصيّة، التي يُفترض أن تكون تطويراً للألسنيّة البنيويّة، فالأمر – لدى فينريش – يتعلق من بين مجموعة أخرى من الأمور بتفجير إطار المقطع في علم وظائف الأصوات، وإطار الكلمة في علم المعاني، وتفجير الجملة في علم التراكيب بوجه خاص. ويتحدد (النص) لديه على أنّه تعاقب دالّ من العلامات اللغويّة بين انقطاعين واضحين في الاتصال (كجزئي غلاف الكتاب مثلاً)[٥٨].

ولقد كوّن بنفينيست الكثير من المريدين والكثير من المنافسين، إلا أنّه – كما يذهب تادييه – انتصر لصفاء مياهه العميقة. فهذا اللسانيّ الذي عاش على هامش البنيويّة، وقبل أن تعرف اللسانيات النصيّة أولى خطواتها دعا صراحة إلى ضرورة

تجاوز تصوّر (سوسير) للسان كعلامات، وفتح الباب أمام اتجاهات جديدة للبحث اللسانيّ، تُمكِّن من معانقة مجالات بين – لغوية، تكون أرحب من (الجملة) ذاتها مثل (الخطاب) وصولاً لمجال عبر لغوي يسمح بالوقوف على النصوص في كلّيتها وشموليتها[٥٩].

وبناءً على ما سبق، فإذا ما أردنا أن نُقيِّم الأعمال التي جنحت إلى دراسة الظواهر النصيّة في الحقبة البنيويّة بشكل عام، فإننا سوف نجد أنّها غالباً لم تخرج عن الإطار العامّ الذي سارت عليه اللسانيات البنيويّة في مقاربتها للجملة وأبنيتها من حيث التصوراتُ وآليات الوصف، وقد أشار إلى ذلك (دي بوجراند) بقوله: "في فترة علم لغة النص المبكّر أحدث علم اللغة الوصفيّ مشكلات صغرى؛ بأنْ أدخل النص (كما قيل) ببساطة بوصفه (وحدة ذات رتبة أعلى) تالية، ذلك مثلاً حين افترضه (كلاوس هجر) وحدة رابعة في طبعة جديدة لكتابه: فقد صار من المونيم والكلمة والجملة (١٩٧١م)، بعد ذلك المونيم والكلمة والجملة والنص (١٩٧٦م)"[٦٠].

فإدخال النص ضمن هذه المستويات ومحاولة إسقاط أدوات وصف الجملة وتحليلها عليه أثبت عدم كفايتها وجدواها لدى كثير من روّاد علم لغة النص في الحقب التالية (مرحلة نهاية ستينات القرن العشرين وما تلاها)، فبنية النص مختلفة عن بنية الجملة، فالأولى تندرج ضمن وحدات الاستعمال والثانية تندرج ضمن وحدات النظام، والنص/ الخطاب بهذا يمثِّل التحقيق الأصيل للغة لكونه يمثِّل الوسيلة الفعليّة للتواصل بين الناس، ولهذا لا يستقيم – وفقاً لأحمد المتوكل - الاعتناء بخصائص النص الصوريّة – كما فعلت ذلك بعض الدراسات البنيويّة – على أساس أنّه نَسَق من الوحدات والتراكيب المستقلّة والمجرّدة دون أن تهتم بخصائصه الدلاليّة والتداوليّة التي تتفاعل بشكل ملحوظ مع الخصائص الصوريّة[٦١]، وبناء على ذلك

فإنَّ لبنية الجملة مقاربات ووسائل بحث خاصّة لا يمكن تكييفها وتنشيطها لتنطبق على النص / الخطاب وبنيته مهما بلغت درجة الإعنات.

٢- ٢ اللسانيات التّحويليّة التّوليديّة:

كان اللسانيون حتى منتصف الستينات ينظرون إلى الجملة وحدها على أنَّها الوحدة الأساسيّة في علم اللغة، وهي أكبر وحدة يمكن تعيينها، ومن ثَمَّ متاحة للوصف اللغويّ، ويتّضح هذا الموقع الأساسيّ لعلم لغة الجملة في أجلى صورة في تعريف بلومفيلد للجملة تعريفاً شكلياً صارماً: (الجمل شكل لغويّ مستقلّ لا يتضمّنه من خلال أيّ تركيب نحويّ شكل لغويّ أكبر منه). بيد أنَّ كلّ النماذج غير البنيويّة التوجّه كذلك تنطلق حتى الآن على نحو بدهي من الجملة بوصفها الوحدة اللغويّة الكبرى، وكذلك حين استنبطت قواعد لتسلسل الجمل عُدَّت الجملة السابقة السياقَ الأصغر الذي ترتبط به البنية النحويّة للجملة اللاحقة. وقد وُسِّع بذلك تحليل الجملة المفردة إلى تحليل لجملتين، ومع ذلك لم يتغيّر شيء عن بدهية الجملة، بوصفها أعلى وحدة لغويّة. ومما يجب أن يؤكَّد بشدة أنَّه على هذا الأساس قد تحقّق قدر كبير للغاية من الدقة في وصف أبنية الجمل، وبخاصّة من الأنحاء التحويليّة التوليديّة(٦٢).

واختلف اتجاه الأنحاء التحويليّة التوليديّة عن اتجاه الأنحاء البنيويّة القائمة على الاتجاه الوصفيّ من حيث تركيز الاتجاه الأوّل على الجوانب المنطقيّة في اللغة، وصار يحدّد موضوعه بأنَّه: قدرة المتكلم المختص للغة ما على بناء عدد كبير غير محدّد من الجمل وفهمه، ويفترض في ذلك الشكل ذاته لنظام قاعديّ أنَّه ينبغي أن يولِّد كمّاً لا نهائياً من جمل لغة ما. محاولاً بذلك أن يُنشئ نموذجاً لغوياً صارماً ظهرت المفارقة بين شكله المثالي وواقع اللغة التطبيقيّ؛ ذلك أنَّ الألسنيّة التحويليّة قد ركّزت على إيجاد

نموذج لغويّ مثاليّ يتحدّثه المتحدّث الأصيل باللغة، وهو أمر لا يتحقّق عادة في الواقع[٦٣].

وفي هذا الصدد يُبيِّن (رولان بارت) وجه المفارقة التي يمكن أن تقع فيها نظريّة تشومسكي في مقاربتها للجملة في حال استمرار صاحب النظريّة في وضع الأطر والبرامج اللسانيّة بعيداً عن الممارسة الفعليّة للغة من خلال نصوص وخطابات، حيث يقول: "فالجملة تراتبيّة، وإنَّها لتستلزم أنواعاً من التبعيّة والتعليق والتعدية الداخلية، وبهذا يكون تمامها، فكيف يمكن لنظام تراتبيّ أن يبقى مفتوحاً؟ إنّ الجملة قد تمّت، وإنَّها لعلى وجه التحديد: هذا اللسان عينه الذي اكتمل. غير أنَّ الممارسة في هذا الشأن تختلف عن النظريّة، ونظريّة (تشومسكي) تقول: إنَّ الجملة انتصاب لا يتناهى (أي قابلة للتنشيط بشكل لا يتناهى)، ولكن الممارسة ترغم على إنهاء الجملة دائماً، وإنَّ كلّ نشاط إيدولوجيّ ليتمثل في شكل الجملة المنتهية تركيبياً. ولنأخذ أيضاً هذه العبارة لـ(جوليا كريستيفيا) من قفاها: إنَّ كلّ عبارة منتهية يتهدّدها الخطر بأن تكون إيديولوجيّة. وفعلاً فإن سلطة الانتهاء هي التي تحدّد التمكّن في بناء الجملة، وتُعيِّن – كما لو أنَّ الأمر يتعلق بكيفيّة عمل عليا تمّ الحصول عليها بصعوبة – عوامل الجملة..."[٦٤].

ولقد فضّل علماء النحو التحويليّ التوليديّ أن يبدأوا من الطرف الآخر بالقواعد من حيث هي مجموعة من الضوابط التي تحدّد ما ينتمي إلى اللغة وما لا ينتمي إليها، وتأجّل النظر في مسألة الشمول، بافتراض أنّ كلّ المكوّنات المركّبة (مهما كثرت) يمكن استخراجها من مجموعة محدودة من المكوّنات البسيطة باستعمال الضوابط المناسبة، ولقد وضعت هذه الضوابط بحيث تنتج مجموعات لا نهائيّة من الجمل. وبهذا يكون التناول التوليديّ أكبر في طموحه كثيراً من التناول الوصفيّ؛ لأنه

لا يقنع بالاقتصار على تنظيم جميع أشكال الوقائع اللغويّة، وإنما ينزع أيضاً إلى أن ينتج أشكالاً لما لا يقع منها. فإذا أردنا التحديد قلنا – كما يذهب دي بوجراند – إنّه ليس نحواً لأشكال الوقائع بأيّ حال لكونه يعترف باقتصاره على تناول الإمكانات التجريديّة، أما الاستكشاف التجريبي لصدق هذا النحو، فيمكن أن يكون صعوبة كبرى(٦٥).

ومع أنَّ تشومسكي يكرّر تأكيد استقلال النحو عن المعنى، حاول النحو التحويليّ الهرب من مغبّة قصور فكرة التوزيع التي جاء بها هاريس، فشرع تشومسكي في إنشاء نظام من القواعد التجريديّة التي تنتج كلّ التوزيعات المقبولة في اللغة، وهكذا تحوّل الانتباه عن تحليل الكثير من الأمثلة إلى إنشاء القواعد، ولم يؤدّ هذا التحوّل في جوهره إلى تبسيط البحث في اللسانيات؛ لأنَّ كلّ مثال مخالف للقواعد السابقة كان سبباً في نشأة قواعد جديدة، فكان ذلك من عوامل صيرورة النموذج التحويليّ محصناً ضد التخطئة من حيث هو نظريّة.

هذا، ومن الأمور التقليديّة في السيميوطيقا أن يتمَّ تصنيف كلّ نواحي الصورة الشكلية تحت مفهوم النحو، وكلّ نواحي المعنى تحت مفهوم الدلالة، كما يتمّ تصنيف الجانب الاستعماليّ للغة تحت مفهوم التداوليات، ولقد بدأ المنهج التوليديّ التحويليّ بمجموعة حرّة من القواعد النحويّة لعلاج اللغة كلّها. أما الدلالة فقد جعلها تفسيراً للجمل التي ينتجها النحو بعد تمام إنتاجها، وأما الأغراض التداوليّة فقد أضيفت في بعض النماذج بوصفها مرحلة لاحقة من التفسير؛ مما اضطر هذا المنهج إما إلى تجاهل التفاعل بين هذه العوامل الثلاثة في الإنتاج والفهم الفعليين للكلام، وإما إلى إعادة بناء ذلك كلّه في قواعد نحويّة اعتباطيّة. وفي عرض بديل لما تقدّم تمَّ إعطاء المعنى دوراً أوّلياً منذ البداية فيما عرف باسم الدلالة التوليديّة، ومع صرف النظر عن القضايا المفصّلة عن بناء القواعد أشار النزاع حول هذه الأمور إلى مسألة أساسيّة تتعلّق ببناء نماذج اللغة(٦٦).

وبناء على ما سبق تُعدّ صور الجملة في النحو التحويليّ من وجهة النظر العمليّة قالبيّة؛ إذ يجري توليد الجملة لأوّل الأمر بوصفها نمطاً نحوياً، ثُمَّ يجري لها بعد ذلك تفسير دلاليّ، وأخيراً يأتي ولو في بعض الصور على الأقلّ شرح النواحي التداوليّة، وينمُّ هذا الترتيب عن التفصيلات النسبيّة لنظريات القواعد الحديثة. وهنا يُبدي (دي بوجراند) سخريته قائلاً: "لو كان مستعملو اللغة يصوغون الجمل الحقيقيّة بهذه الطريقة لكان عليهم أن يعيدوا بصورة مُصغَّرة تاريخ علم اللسانيات منذ عام (١٩٥٠م)، فإذا استطاعوا أن ينتهوا من جملة كاملة في وقت متواضع القصر يبلغ ثلاثين عاماً فقط، فإن لهم على أيّ حال أن يعدّوا أنفسهم سعداء الحظ"[٦٧].

وقد أسبغ تجاهل التفاعل بين العوامل الثلاثة السابقة على قواعد اللغة لدى تشومسكي صفة الحياديَّة أو الانحياز التي تستعلي على كلّ ما يمكن أن يؤدِّي إلى رعاية مواقف إنتاج الكلام واستقباله، وهنا يشير (ليونز) إلى أنَّ هناك إحساساً ما بأنَّ القواعد التي اقترحها وقدَّمها تشومسكي تقوم فعلاً بإنتاج الجمل عن طريق تطبيق سلسلة متعاقبة من القواعد، ولكن تشومسكي يحذرنا دائماً من أن نتصوَّر أنَّ إنتاج الجمل تَمَّ من خلال القواعد نفسها التي ينتج بها المتكلِّم الجمل في أيَّة لغة؛ لأنَّ قواعد اللغة إنَّما هي قواعد محايدة بين الإنتاج والاستقبال، وأنَّها قد تفسِّر إلى حدّ ما كلاً من العمليتين، ولكنها بلا شكّ تنحاز إلى إحداهما دون الأخرى[٦٨].

والنحو التحويليّ في معظمه نظام افتراضيّ، يسعى إلى تعيين الجمل الممكنة على وجه نهائيّ دون نظر إلى حدوثها في الواقع. وليست الأمثلة التي يأتي بها اللسانيون أمثلة في الواقع إلا إذا أخذت من نصوص أنتجت إنتاجاً عفوياً من لدن غير اللسانيين، ومع هذا نرى – وفقاً لدي بوجراند – أنَّ النحو الذي يبحث في التراكيب غير الواقعيّة يبدو بناء غريباً من حيث هو علم، كما نرى استكشاف صدقه

مشكلة خطيرة. ومن المؤكَّد أنَّ تعداد الجمل الممكنة يصبح بعد تنظيم نواة النحو مشكلة أدائيّة، وليست مقدرة الناس فوق كلّ ذلك إلا ما لديهم من مجموعة محدودة من مرتكزات بناء الجمل أو النصوص الممكنة الوقوع وفهمها لكونها ذات معنى وذات نفع في تحصيل الأشياء[٦٩].

ونضيف إلى ذلك أيضاً أنَّ اقتصار النموذج اللسانيّ التوليديّ في جميع تحوّلاته على تناول الإمكانات التجريديّة جعل منه نموذجاً غير سياقيّ؛ بمعنى أنَّ سعيه الأساس هو في اتّجاه تحديد طبيعة (المَلَكة اللغويّة البشريّة) التي هي مكوّن نوعيّ بيولوجي تصدر عن مبادئه الأساسيّة كلّ اللغات الإنسانيّة. وهكذا فإنَّ النموذج التوليديّ أكثر إمعاناً في صوريته الشكليّة، حيث يضع فوق تجريديّة اللغة عند (دي سوسير) تجريديّة أعلى هي (المَلَكة اللغويَّة)، وبدلاً من أن يكون (الاستعمال الكلامي أو الأدائي) في المرتبة الثانية، فإنَّه يصبح في المرتبة الثالثة، وبطبيعة الحال فإنَّ هذا التوجّه لا يقترب من منطقة التعامل مع الخطابات الأدبيّة إلا على سبيل الاستعارة التي راودت بعض نقّاد الأدب - مثل جوناثان كوللر – في القول بأنَّ موضوع النظريّة الأدبيّة هو (الكفاءة الأدبيّة)[٧٠].

وتشومسكي بذلك ليس لديه موقف من قضيّة الاستخدام الفعليّ للغة، وإن تطرق إليه فلا يكون ذلك إلا لبناء تصوّر معقول للمقدرة اللغويّة فحسب، ولهذا فهو لا يرفض الاستخدامات الفعليّة للغة – كما كانت تفعل الاتّجاهات السابقة – بل يرى في دراستها سبيلاً إلى الوصول إلى تلك القدرة، أما الاكتفاء بحدّ الأداء اللغويّ فيتوقّف عند حدّ السطح أو الوصف الشكليّ، وهكذا لا يكون الوصف اللغويّ للغة إجراء شكلياً، بل هو محاولة لاكتشاف طبيعة سيطرة المتكلّم على تلك اللغة، محاولة للوصول إلى وضع نموذج لتلك الكفاءة التي تقف وراء كلّ أداء لغويّ، هذا النموذج

يضمّ مجموعة من القواعد التي تصف الاستعمالات أو عمليات الأداء، وتسمح في الوقت نفسه بتوليد الاستعمالات الممكنة في اللغة(٧١).

وبعد أن قمنا بعرض بعض جوانب نظريّة تشومسكي في الأنحاء التحويليّة التوليديّة تبيّن لنا أنَّ المنطلق الأساسيّ الذي سعت هذه النظريّة إلى وصفه بطريقة دقيقة ومحكمة هو (الجملة)، فالجملة هي الوحدة اللغويّة الكبرى التي يمكن أن يطالها الوصف اللغويّ لدى تشومسكي وأتباعه، ومن المُستغرَب لدى (نيكل) أنّه "لم نستطع في معسكر النحو التوليديّ برغم هدفه البعيد المدى لتفسير (النحويّة والمقبوليّة) الاتفاق بعد حول ضرورة الاشتراك في نحو النص. وكذا فقد نظر ن.تشومسكي المؤسِّس الحقيقيّ لهذا الاتجاه بشكل هامشيّ خاصّة، واتصالاً بمشكلة ترتيب المفردات، في تلك العلاقات متجاوزاً حدود الجملة. ولكنه أيضاً لم يناقش مسألة قبول وصف هذه الظواهر في نحو تام. وفي الحقيقة يطابق بذلك الاتجاه العام لمدرسته، وهو إحالة مشكلات ترتيب المفردات إلى مجال الأسلوبيّة، وهنا يلحق بمجال الأداء مرّة أخرى كلّ ما لا يحلّ بسهولة في مجال الكفاءة، ومن المؤكَّد تماماً أنَّ ثمَّة جزءاً من المشكلات يقع في المجال الكبير والأكثر حريّة للأسلوبيّة، بل من المحقَّق أنّه قد يغفل هنا أنّه يجب أن يوجد تفريق بين ترتيب للمكوّنات وثيق الصلة نحوياً وترتيب أسلوبيّ (حر) نسبياً، ولا يستطيع المرء أن يقدر ويصف أنظمة هامشيّة، مثل نظام الأسلوبيّة، إلا حين يكون قد طرح النظام المحوريّ لتحليل مفصل"(٧٢).

ولهذا فإنْ كان علماء اللغة قد فكّروا جدياً باستحداث علم يُعالج القضايا والمسائل اللغويّة التي فاقت قدرات الجهاز اللغويّ المحصور في نظام الجملة، فإنَّ تشومسكي وأتباعه قد أراحوا أنفسهم من هذا العناء، وألحقوا كلّ ما يتجاوز حدود الجملة مما قد يتسبب لهم بإشكال بمجال الأسلوبيّة، وخاصة أن التحكّم بالجهاز

القاعديّ المتصل بأبنية الجملة ومساحة التحرك داخل هذه الأبنية أقلّ إجهاداً بكثير مما هي عليه الحال لو قورنت بوحدات تتجاوز حدود الجملة.

والنص مصطلحاً لم يغب عن نظر تشومسكي وأتباعه الذين ربما تطرّقوا إليه في بعض دراساتهم، إلا أنّه (أي النص) لم يكن أسعد حالاً مما كان عليه لدى اللسانيات البنيويَّة، فقد نظر التحويليون إلى النصوص وأنواعها على أنّها جمل كبرى، وأنّها نتاج المعطى، وليس نتاج عمليَّة الاتصال ذاتها التي تلعب دوراً مهمّاً في عمليّة تكوين النص وتشكّله، ويُجري (دي بوجراند) مقارنة بين كلّ من اللسانيات البنيويّة واللسانيات التحويليّة من حيث الصيغة المفاهيميّة التي تمَّ من خلالها تناول النص والتعامل معه، ويرى أنَّ المقابلة الأولى معروفة تماماً بين علم اللغة البنيويّ وعلم اللغة التوليديّ، وقد كان علم اللغة النصيّ المبكّر ممثلاً في كلا المعسكرين، ففي علم اللغة البنيويّ أُدخل (النص) بوصفه الوحدة التالية الأعلى برتبة فوق الجملة، وفي علم اللغة التحويليّ التوليديّ كان (النص) تتابعاً محكم الصياغة من جمل جيّدة السبك(٧٣).

ودعت هذه الحال التي آلت إليها نظريّة تشومسكي في اللغة كثيراً من تلاميذه إلى أن يُحدِثوا تطويراً وتغييراً عليها، بحيث تستوعب جوانب دلالية وجوانب أخرى تداوليّة تقلّل من التجريديّة العالية للقواعد التي وضعها تشومسكي، وتضفي رغبة أعمق في أن تكون الدراسة اللغويّة أكثر ملاءمة للواقع اللغويّ، وليس من سبيل إلى ذلك إلا من خلال إدخال النصوص والخطابات في صلب دراساتهم، فهي الوحيدة التي تمثل واقعاً لغوياً يتمّ من خلاله تواصل الناس، فاللغة أساساً ترد في شكل نصوص متضمنة في مواقف حيّة ومحدّدة، وتتوسّل من خلال ذلك إلى تأدية وظائف تواصليّة معيّنة، وهناك عوامل أخرى تكتنف هذه العمليّة التواصليّة لا تظهر اللغة إلا في إطارها.

وتطوير نظريّة تشومسكي اللغويّة من أجل استيعاب النصوص وأنواعها لا يمكن أن يكون بإضافة بعض القواعد التحويليّة على النظام اللغويّ الخاصّ بالجملة من أجل تكييفه لتلبية هذه المطالب التي تتجاوز حدود الجملة، فالأمر هنا مختلف تماماً عمّا اعتاده تشومسكي وأتباعه فيما مضى، فقد كان بمقدورهم إجراء أيّ تعديل يرونه مناسباً على النظريّة اللغويّة من خلال هذه الإضافات المتعلّقة ببعض القواعد التحويليَّة التي تفي بغرض التطوير المتمحور حول الجملة ونظامها، ويرى (دي بوجراند) أنَّ هذه الأمور قد اتضحت من خلال محاولة افتراض وجود نحو تحويليّ للنصوص الأدبيّة، وقام الجدال بأنّ مجموعة من القواعد التحويليّة الإضافيّة يمكن أن تزاد على النحو المعتمد للغة للوصول إلى التسليم بمطالب النصوص الأدبيّة والشعريّة، ويبدو أنَّ هناك اعتراضين واضحين على ذلك، أوّلهما: أنَّ النحو الذي يتّسع بهذه الطريقة سيكون ذا طاقة تطبيقيّة مشؤومة تقضي بصحة إنتاج كلّ التراكيب ليصبح النحو في النهاية عاجزاً تماماً عن إيضاح أيّ شيء. والثاني: أنَّ كفاءة النصوص الأدبيّة والشعريّة تنشأ من التعديلات التي تعتري أنظمة اللغات من أجل هذه المناسبة الإبداعيّة بعينها، فإن خضعت هذه التعديلات للقواعد فقدت قدراً عظيماً من إعلاميتها وإثارتها للاهتمام(٧٤).

ومن جانب آخر فإنّه ليس بمقدور تشومسكي وأتباعه أن يقاربوا النصوص ويدرسوها على نحو ما صنعوا في دراستهم للجملة ونظامها من إقامة نحو تجريديّ قادر على توليد كمّ لا نهائي من الجمل، فلو رام تشومسكي وضع لسانيات للنص فلا يمكن لهذه اللسانيات أن تعمل على تهيئة نحو تجريديّ لتوليد كلّ النصوص الممكنة في اللغة، واستبعاد كلّ ما ليس نصاً، فمجال التوليد أوسع من أن يحاط به، ويطّرد اتّساعه على الدوام. إنَّ مفهوم ما ليس نصاً ليس ذا خطر؛ لأنَّ وروده يؤدِّي في العادة

إلى عدم قبوله أو إلى عدم القدرة على الاتصال. أما العمل الأهمّ لعلم لغة النص، فهو بالأحرى دراسة مفهوم النصيّة من حيث هو عامل ناتج عن الإجراءات الاتصاليّة المتخذة من أجل استعمال النص. إنَّ النماذج التي تبدو أكثر مناسبة للعمليات المنتجة في مجال استخدام النص يجب أن تنسب إليها أعلى قيمة بوصفها تفسيرات إيضاحيّة، ولا ينبغي للصياغات التجريديّة التي تتفرّع عنها تراكيب متعمدة أن تعدّ ممثلة للغة الإنسانيّة حتى حين تكون عظيمة الجدوى في الإيضاح؛ ذلك بأنَّها في أحسن أحوالها صنعت من أجل المساعدة والوساطة، يتمّ استبعادها عندما نقترب من نموذج مقبول عن نماذج النشاط الإنساني"[٧٥].

وإذا كانت الأمور السابقة تعدّ عائقاً أمام النظريّة التحويليّة التوليديّة لأن تقيم أنحاء للنص على غرار أنحائها المتصلة بالجملة فإنَّ ذلك لا ينفي قيام بعض الاتجاهات النصيّة من الاستفادة من الأسس النظريّة التي قام عليها النحو التوليديّ التحويليّ، فقد أمدّ تشومسكي وأتباعه – منذ ستينات القرن الماضي - البحث النصيّ على اختلاف اتجاهاته وتشعّبها بالكثير من الأفكار التي أسهمت في تأسيس نماذج نصيّة ذات قيمة عالية استطاعت أن تعيد النظر في بناء النصوص وتشكّلها وتفسيرها، حيث "فتحت النظريّة التحويليّة التوليديّة في بعض ما توصّلت إليه من مبادئ، أبواباً أخرى أمام لسانيات النص، ويتبيَّن ذلك على سبيل المثال من خلال عودتها إلى مبدأ العمل والربط النحويين (نظريّة العامليّة والرابطيّة)، وهما يعملان في مستوى الجملة ومستوى النص، ولئن لم يهتم أبرز أعلام هذه النظريّة (تشومسكي) بالنص، فقد عمل كثير من الباحثين في هذا الإطار النظريّ على ولوج النص من خلال المبادئ التي قامت عليها تلك النظريّة مثل العمل والربط، فتعدّدت الدراسات المهتمّة بالإحالة في مختلف وجوهها"[٧٦].

كما أشار (رايزر) إلى أنَّ الاتجاه الذي ساد خلال الستينات هو محاولة إيجاد نحو للنص على الصورة التي دعا إليها (بيرويش) على أن يستفيد هذا النحو من الأسس النظريّة التي قام عليها النحو التوليديّ، لا سيّما في النواحي التي تتعلق بالجمل الصحيحة وغير الصحيحة، وكذلك الجمل المقبولة وغير المقبولة، وذلك ما جعل هذا الاتجاه في نظره يتأثّر بنظريّة تشومسكي من ناحية، وآراء كاتز Katz في المعاني من ناحية أخرى. ويذهب (رايزر) إلى أنَّ اللغويين الذين رأوا الاستفادة من آراء المدرسة التحويليّة التوليديّة قد انتهوا إلى أنَّ المجال الحقيقيّ لتطبيق أفكار هذه المدرسة هو النص، وليس الجمل المنعزلة[٧٧]. وفي هذا الإطار يُشير (دي بوجراند) إلى أنَّ الاتجاه التحويليّ يظلّ ناقصاً حتى يوضح الكيفيّة التي يتمّ بها إنشاء النصوص وفهمها[٧٨].

وفي السياق نفسه أيضاً يذهب (نيكل) إلى أنَّ "علم اللغة الحديث قد اضطلع في البداية بمحاولات متّئدة فقط لبحث سياقات أكبر عن أوجه انتظامها، ويسري هذا على البنيويّة التصنيفيّة والنحو التحويليّ التوليديّ أيضاً، وربما يتوقّع من الأخير الذي استهدف أن يوضح بنظامه القاعديّ بناء جمل صحيحة نحوياً وتفسيرها توضيحاً تاماً، اهتمام قويّ ببحوث علاقات سياقية بين الجمل؛ إذ إنَّ مفهومية المحورين: (النحويّة) و(المقبوليّة) ينبغي أن يكون لهما بكلّ تأكيد صلاحيّة متجاوزة حدود الجملة...، وقد أوجد الهدف الأضيق للنحو التقليديّ في الغالب الانطباع الزائف بالكمال، ويجب أن يؤدّي الطموح نحو الكمال عند وصف الكفاءة اللغويّة وفق (ك.إ.هايدولف) ضرورةً إلى تفسير كفاءة المتكلّم أيضاً لتوليد نصوص مترابطة من جهة، ولفهم تتابع مقدم من الجمل بوصفه نصاً، أو لمعرفة تراكم من الجمل غير مترابط، بل بلا معنى في أحوال ما، وفي الحقيقة يجب أن يستنتج من ذلك وصف علاقات سياقيّة تتجاوز حدّ الجملة من خلال قواعد النحو"[٧٩].

ويرى (دي بوجراند) أنّه ينبغي لمفهوم المقدرة Competence أن يحظى بنظرة أكثر اتساماً بالتكامليّة مما يجري عادة في قواعد الجملة، فعلينا أن نبحث في تحديد القدرات التي تجعل الناس في العادة من أصحاب المقدرة على إنتاج النصوص وفهمها بنجاح دائم (وإن لم يكن شاملاً)، وهذا النوع من نظريّة النص سيكون ذا طابع ذهنيّ في معناه الأساسيّ، وصالحاً من الناحية العمليّة للتصديق والتكذيب(٨٠).

وبناءً على ما سبق يمكننا القول بأنّ هذه الأسس النظريَّة التي استقاها علماء لغة النص من الأنحاء التوليديّة التحويليّة قد أسهمت في تأسيس مجال رئيس من مجالات لسانيات النص وتحليل الخطاب يُسمّى بالتقليد التوليديّ التحويليّ في تحليل الخطاب، يسعى فيه التوليديون الذين يشتغلون على الخطاب إلى إقامة نحو أو أنحاء على غرار أنحاء الجملة، ومن المنطلقات نفسها التي تحدّدها التوليديّة، وهم وإن اعتمدوا على مبادئ النحو التوليديّ فإنّ ذلك لا يعني أنّهم يتشبّثون بها بشكل مطلق، فدراسة النصوص تقوم في هذا الاتّجاه على الأبعاد النظريّة للنحو التوليديّ التحويليّ فقط، وإن كان تشومسكي نفسه براء عملياً من الاحتفال بالنص بوصفه موضوعاً للدراسة اللسانيّة.

فهذه النظريات التوليديّة الخاصّة بالخطاب تسعى مثل الأنحاء التوليديّة إلى إنشاء نماذج للقدرة قادرة على تفسير توليد الأشكال الخاصة بالخطاب، ولعلّ الشعريّة التوليديّة هي القسم الأكثر تطوّراً في مجال دراسة النصوص من هذه الوجهة، فقد استطاع العروض التوليديّ تجديد العروض التقليديّ بشكل جذريّ، كما صنع النحو التوليديّ مع الأنحاء التقليديّة، وبناءً على ذلك فقد استطاعت الشعريّة التوليديّة أن تنظر في القواعد المجرّدة الخاصّة بالخطاب الشعريّ دون أن تربط نفسها بالبلاغة التي يشترك فيها كلّ من الشعر والنثر(٨١)، والنجاح نفسه لقيته الأعمال التي أنجزت في هذا السياق حول السرد(٨٢).

وليس هناك نموذج وحيد لتحليل الخطاب ولسانيات النص القائمة على أسس الأنحاء التوليديّة التحويليّة، بل هنالك نماذج متعدّدة تختلف من حيث قيمتها وأهميتها، نذكر منها: نموذج (فان دايك)، ونموذج (بتوفي)، ونموذج (بيرويش)، ونموذج (برتولت بريخت)...إلخ، ولعلّ أكثر هذه الأعمال شيوعاً على هذا المستوى وعلى مستوى لسانيات النص بشكل عامّ هي إنجازات (فان دايك)، ولنسق هنا على سبيل المثال تلك المقارنة التي أجراها (رايزر) بين نموذج (فان دايك) وبين نموذج (بتوفي)، حيث ذهب إلى أنّه بينما كان اهتمام (بتوفي) مركّزاً على النواحي النحويّة، فإن اهتمامات (فان دايك) عام ١٩٧٢م قد تجاوزت ذلك إلى النواحي الإجرائيّة، والتي دعت إلى مراجعة نظريّة (تشومسكي) في القدرة من خلال بحث الجوانب السايكولوجيّة، وذلك ما جعل فان دايك يستنبط مفهوم البنية الكلّية – Macro Structure التي يتمّ التعبير عنها من خلال البنى الصغرى في داخل النص(٨٣).

لقد ركّز (فان دايك) في دراساته على "مظهرين أساسيين من تحليل الخطاب، أوّلهما: مراعاة علائق الانسجام الخطيّ الموجود بين الجمل، وثانيهما: البنية الكبرى أو مدار الحديث. وقد فصّل القول في آليات الانسجام الخطيّ بالاعتماد على عدّة علائق؛ مثل المطابقة، والتداخل، وعلاقة الجزء بالكلّ، والإطار، وهذا المفهوم ينتمي إلى مجال علم النفس المعرفيّ، وأما مدار الحديث، فعنى به تكثيف نص طويل في كلمة أو في تركيب بالاعتماد على المعرفة اللغويّة، وعلى معرفة العالم، وعلى معرفة السياق"(٨٤).

ويرى (فان دايك) أنّ كثيراً من الظواهر الخاصّة باللغة الطبيعيّة هي خواصّ خطابيّة، وأنّها من ثَمَّ لا يمكن وصفها بشكل كافٍ في أشكال النحو الموجودة، وبناءً على هذا يكون مشروعه عبارة عن محاولة لتجاوز ما يعتور النحو التوليديّ من

نواقص ناتجة حسب اعتقاده عن توجيه العناية كلّها للجملة، ويذهب (فان دايك) إلى أنَّ ثمَّة قدرة ينبغي للغويّ الاهتمام بها، هي القدرة النصيّة، فقدرتنا ليست جمليّة ولكنها نصيّة، والمتكلِّم الأهليّ للغة يستطيع اعتماداً على هذه القدرة إنتاج وتأويل ملفوظ ما بشكل شموليّ أو في شكل خطاب مترابط، وليس في شكل مجموعة خطيّة من الجمل النحويّة. هذا وعلى اللغويّ أن يفسِّر كيف يستطيع المتكلِّم أن يميِّز بين نصوص نحويّة وأخرى لاحِنة، وكيف يتعرّف أنواع الائتلاف بين نصوص مختلفة جداً على مستوى الشكل، وكيف يتمكّن من إعادة صياغتها بالاستعانة بنصوص أخرى.

ولعلّ أهمّ مفهوم يتناوله التوليديون الذين يعنون بتحليل الخطاب هو مفهوم القدرة، وهي تتعدّد عند (فان دايك) بحسب تعدّد أنواع النصوص[٨٥]. وتتيح هذه القدرة للمتكلِّم الأهليّ المثاليّ للغة المعيّنة فهم وتأويل أو تفسير عدد لا متناه من النصوص النحويّة، وبناءً على ذلك فإنَّ القدرة ذات طبيعة نصيّة، ومن ثَمَّ فإنَّ لسانيات الجملة لا تمثِّل إلا جزءاً من لسانيات النص تساهم في تأطيرها إلى جانب التداوليات. ويرى فان دايك أنَّ المتكلِّم المثاليّ – الذي يفترضه – قادر على التمييز بين نص شعريّ ونص آخر غير شعريّ (رياضيّ مثلاً)، ويعزو ذلك إلى قدرته النصيّة في إطار نحو توليديّ للنص، وإذا كانت القدرة عند تشومسكي تقوم على معرفة مضمرة بالجمل بعامّة أو تختص بالتراكيب بشكل مباشر ولا تهتم بالأوضاع، فإنَّ القدرة النصيَّة عند (فان دايك) أنواع؛ إذ يرى أنَّ ثَمَّة – إلى جانب ما يسمّيه القدرة النصيّة – قدرة سرديّة[٨٦]، وهي داخلة في النحو النصيّ المؤهّل لتوليد مجموعة غير محدّدة العدد من البنى النصيّة السليمة القابلة للوصف اللسانيّ"[٨٧].

وكما يذهب تشومسكي إلى التمييز بين مفهومَيْ: (القدرة) و(الإنجاز)، ويقدِّم دراسة القدرة على دراسة الإنجاز الذي يرجئ الاهتمام به بعد الانتهاء من

دراسة القدرة، فإنَّ النحاة الذين يشتغلون بالنص يميّزون بين (قدرة سرديّة) و(إنجاز سرديّ)، وتأتي دراسة القدرة في المقام الأول، وبعد تحديدها يمكن أن نقوم ببلورة (الإنجاز) نظرياً. ويتّصل بمفهوم القدرة مفهوم آخر لدى (بتوفي) هو البنية العميقة، فلكلّ نص بنية عميقة نستطيع من خلالها توليد النص بشكل كامل وشموليّ، ويوازي هذا المفهوم مفهوماً آخر عند (فان دايك) هو البنية الكبرى، التي تحدّد انسجام النص، ومن المفترض أنَّ هناك قواعد تحويل تنقل النص من حالته العميقة إلى حالته السطحيّة[٨٨].

هذه هي عموماً بعض المبادئ التي تقوم عليها لسانيات النص المنطلقة من الأسس التوليديّة التحويليّة، وهي تثير إشكالات لعلّ أهمّها أنَّ البنية العميقة تصبح بمثابة خطاطة مجرّدة (موضوعاتيّة) ترتبط بالمقصد العامّ للغة وهو (التواصل)، ومن ثَمَّ تدمج هذه اللسانيات النصيّة مفهوم المقام والتداول ضمن هذه الخطاطة، ولسنا ندري إلى أيّ حدّ يمكن الحديث عن قدرة نصيّة تدخل فيها مثل هذه العناصر التي كانت تُعدّ عند رائد التوليديّة من المسائل المرتبطة بالإنجاز[٨٩].

لعلّ ذلك يرجع من وجهة نظر الباحث إلى العلاقة الجديدة التي قاربت بين مصطلح (القدرة) وبين عالم النص المرتبط ارتباطاً قوياً بالمنجز اللغويّ المتّصل عادة بواقع فعليّ محدّد، ولذا فليس من السهولة بمكان محاولة إسباغ طابع تجريديّ افتراضيّ على هذا الواقع النابض بالحياة؛ لهذا وجدنا معظم مصطلحات النحو التوليديّ التحويليّ التي تدور في فلك الجملة، قد اتسمت بطابع إجرائيّ جديد مع التوليديين الذين يشتغلون بلسانيات النص وتحليل الخطاب مما خفّف من غلواء التجريد الذهني المرتبط بها، هذا (التجريد) الذي سعى تشومسكي إلى توطينه في أغلب نظرياته اللغويّة المتّصلة بنحو الجملة.

وعلى الرغم من تلك التطوّرات التي حصلت للنظريّة التوليديّة التحويليّة على أيدي بعض الدارسين الذين اشتغلوا بتحليل النص والخطاب، إلا أنّنا نجد (رايزر) يرى أنّه لم تتمّ الاستفادة من تلك التطوّرات في مجال التفاعل Interaction الذي هو البيئة الأساسيّة لإنشاء النصوص، أي أنّها لم تركّز على القضايا المتعلّقة بكيفيّة إنتاج النصوص واستقبالها(٩٠).

هذا وبعدَ أن تناولنا بعض معالم الدراسات النصيّة التي أجريت في أحضان مدرستين من أشهر المدارس اللسانية الحديثة – اللسانيات البنيويّة واللسانيات التوليديّة التحويليّة - في القرن العشرين، تبيّن أنهما قد اتفقتا - بالرغم من الاختلافات الأساسيّة بينهما في الفلسفة والمنهج - على إعراضهما أوّل الأمر عن الإسهام في دراسة النص، وكان ذلك منهما بسبب وقوفهما عند حدود نحو الجملة، ولكن سرعان ما تغيّر الأمر، والتفتت المدرستان عن التزامهما الصارم بحدود الدراسة الشكلية لمباني الجمل، وبرز من علمائهما من تمرّد على هذا التقليد الضاغط، بحيث لم يعد النص أو الخطاب لدى هذه الفئة من الباحثين منطقة محظورة تحرم مقاربتها(٩١).

وظهر لنا أنَّ أعمال التحليل النصيّ التي شُرع بها في ظلال هاتين المدرستين وتحت سلطان قواعد الجملة لتبدو مستندة إلى ثلاث بدهيات عليها اعتراض. أما البدهية الأولى، فتَقْبَلها معظم الدراسات ذات التوجه البنيويّ، وتلك التي تنتمي إلى القواعد التوليديّة في الوقت نفسه، وهذه البدهية هي بدهية التماثل بين التنظيم اللسانيّ للجملة وتنظيم النص. وقد أثبتت الدراسات الحديثة لعلم لغة النص أنّه ليس من شأن علم النص إيجاد قوانين ثابتة لتكوين النصوص على نحو تلك القوانين المعمول بها في التنظيم اللسانيّ للجملة، بل يتحتّم عليه – كما يرى دي بوجراند – إيجاد مجموعة الإجراءات الواجبة لإنشاء النصوص في بيئة اجتماعيّة تستند في

الأساس إلى ظروف الموقف. ويعني ذلك أنَّه ليست هنالك قوانين صلدة لتكوين النصوص، وإنَّما هنالك عمليات تتناسب مع إستراتيجيّة التخطيط والسياق، تساعد على إنشاء النصوص؛ ذلك أنَّ مهمة النص هي أن يخلق بيئة اتصاليّة، وليس أن يبرز الكيفيّة التي تستخدم بها القواعد اللغويّة كما هو الشأن في اللغويات التي تستند إلى دراسة الجملة، ويعني ذلك أنَّ علم النص لا يستهدف وضع قوانين مجرّدة تولد بها النصوص كما تولد الجمل(٩٢).

وأما الثانية – ويختص بها أيضاً كلا الاتجاهين – فهي معالجة النصوص بزعمها أنظمة افتراضيّة أو عناصر من أنظمة. فقد حاول (هاريس ١٩٥٢م) أن يكشف عن قواعد التوزيع في النصوص وأن يتقدم بدعوى أنَّ النظامين الافتراضي والفعال متداخلان. وتمّ تخصيص مشاريع استطلاعيّة بوحي من النحو التحويليّ لإيجاد جهاز من القواعد لتوليد النص أو استخراجه...، هذه التجارب ونحوها عرضة لعدّة مآخذ، أوّلها: أنَّها لا تكشف لنا عن نموذج مقبول للنشاط الإنسانيّ، وثانيها: أنَّها لا تصلح من الناحية العملية لأيّة مجموعة كبيرة من النصوص التي يعتدّ بها، وثالثها: أنَّها لا تنظر نظرة واقعيّة إلى قضايا مثل: النصوص الشاذّة، والأسلوب الأفضل أو الأسوأ، وإثارة الاهتمام والإعلاميّة، والتفاعل الاتصاليّ(٩٣).

وأما البدهية الثالثة التي يختصّ بها التوليديون فهي بدهية وجود القواعد النصيّة العميقة، والتي لها المكانة نفسها التي لقواعد الجملة، وهذا يعني إذن أنَّها أهل لتوليد عدد غير نهائي من النصوص انطلاقاً من عدد نهائي من الضوابط المطبقة بشكل استدلالي. وهي أهل أيضاً لإعطاء معيار يسمح بالتمييز بين نصوص جيّدة الصياغة ونصوص سيّئة الصياغة، وبين نصوص (قاعديّة) ونصوص (غير قاعديّة). ولا توجد قواعد نصيّة إلى يومنا هذا قادرة على ملء هذين المطلبين. وإنَّ هذا لم يعد مدهشاً –

كما يرى سشايفر – فإذا كان النص وحدة تواصلية سلسلتها اللسانية (مهما كان امتدادها) ليست سوى الإنجاز، فإنّنا لا نفهم كيف لبنائها أن يكون قابلاً للاختزال – سواء تعلّق الأمر بإنتاجها أم بتلقيها – إلى عمل لضوابط لسانيّة محضة. وتعدّ دراسة الإنجاز اللسانيّ كما هو بدهي جزءاً أصيلاً من النصوصيّة، ولكن يجب من غير شكّ قلب الأولويّات: ليس المقصود اختزال النص إلى إنجازه اللسانيّ، ولكن المقصود هو سؤال هذا الإنجاز فيما يتعلّق بالعناصر التي تشهد على (إنشاء النص)، وقد يتطلّب هذا هجر مفهوم (القواعد النصيّة) نفسه. فإذا وجدت معايير للنصيّة، فإنها على أكثر تقدير معايير للقبول، وإن معايير القبول هذه إنّما يحدّدها بشكل واسع سياق المقام للإرسال والتّلقي(٩٤).

ومهما يكن من أمر فإنّه يبدو لنا أنّ مفهوم النص / الخطاب قد ظهر في عصر البنيويّة والتوليديّة التحويليّة محمّلاً بدلالات خاصّة، مهما قيل في شأنها فهي لا بدّ تميّزه عن الجملة التي هي أعلى وحدة يهتمّ بها التحليل اللسانيّ في ذلك الوقت، وبهدي من تلك الإرهاصات الأولى التي قدّمت في تلك الفترة المبكّرة من نشأة لسانيات النص، تطوّرت نظريات تحليل الخطاب وعلم لغة النص في العقود الأخيرة من القرن العشرين مستفيدة من جميع الإنجازات التي تحقّقت في مضمار اللسانيات الحديثة باختلاف مدارسها واتجاهاتها البنيويّة والتوليديّة، وهي بذلك تسعى إلى مقاربة نسيج النص / الخطاب من منظور علميّ دقيق، ويمكننا الذهاب - والحال هذه - إلى تأكيد أنّ مجمل ما تحقّق إلى الآن في علم لغة النص وتحليل الخطاب مدين بالشيء الكثير إلى اللسانيات البنيويّة واللسانيات التوليديّة التحويليّة، معرضين بذلك عن كل ما يمكن أن يُقلّل من القيمة العلميّة للأعمال المضيئة التي قدمت في تلك المرحلة، وما علم لغة النص وتحليل الخطاب في إطارهما الجديد إلا تطوير لهذين الاتجاهين.

خاتمة

لقد تبيّن لنا بعد هذا المسح التأريخي الذي تناول الإرهاصات الأولى وبدايات النشأة لعلم لغة النص إلى منتصف ستينات القرن العشرين أن هذا العلم لم يرتبط في نشأته الأولى بتخصّص معيّن، أو بلد بعينه، بل إنَّ معظم مؤرخي هذا العلم التمسوا بداياته الأولى في حقول علميّة متنوّعة ومتداخلة قديمة وحديثة، استوعبت هذه الحقول قدراً لا بأس به من تصوّرات نصيّة لقيت في عصرنا الحديث من يحتفي بها ويعلي قدرها، والسمة الأساسيّة لهذه التصوّرات هي مجيئها متناثرة منعزلة لا تربطها أية جسور، ولهذا وجدنا من روّاد علم لغة النص في الغرب من جعل أولى مهمّات هذا العلم هي تقصيها وجمعها ضمن إطار واحد يسمح بتفاعل بعضها مع بعض؛ ممّا يعود بالفائدة والنفع على علم النص بشكل عامّ، بل إنَّ بعضها لا تزال إلى وقتنا هذا تلقى اهتماماً كبيراً من قبل باحثين يقومون بتطويرها أو تجديدها وفقاً لمستحدثات هذا العلم ومستجدّاته.

ولهذا لا يمكننا أن نتصوّر أن تكون بعض الأحداث الجزئيّة أو الجهود الفرديّة لطائفة من علماء الغرب في بداية سبعينات القرن العشرين وراء وضع علم لغة النص؛ ذلك أنَّ التصوّرات النصيّة التي ذكرنا طَرَفاً منها في ثنايا البحث تُمثّل الوضع الأوّل لهذا العلم، وقد رأينا كيف كان تحليل النص والخطاب يُمثّل تقليداً عامّاً لدى بعض أعلام اللسانيات البنيويّة منذ مطالع القرن العشرين، وإن كان من فضل لهذه الطائفة المتأخرة من علماء لغة النص، فهو دعوتها - عندما اقتضت الحاجة الفكريّة ذلك - إلى استقلال علم لغة النص ليكوّن فرعاً جديداً من فروع علم اللغة، له مناهجه الخاصّة وموضوعاته التي يُركّز عليها.

وتبيّن للباحث أنَّ إشكالية علم النص في تلك المرحلة من نشأته الأولى لا تكمن في وجود مكان له ضمن العلوم الإنسانيّة فقط - فهذا هدف قد يكون بعيد المنال - ولكن أن يكون تخصصاً من التخصصات اللغويّة بدلاً من كونه ثاوياً في الحدود الفاصلة بين العلوم المتجاورة، وهذا ما حصل له بالفعل في المراحل التي تلت مرحلة النشأة، حيث تَحدّد موضوعه وتبيّن موقعه ضمن باقي فروع علم اللغة، تحت ما يُسمّى بـ(لسانيات النص) أو (علم لغة النص) أو (نحو النص)...، وهذا العلم لا يزال إلى اليوم يستشرف آفاقاً جديدة وتحولات عديدة من خلال تطوير أدواته الوصفيّة ومناهجه البحثيّة.

الهوامش والتعليقات:

١. يُنظر: فان دايك، تون إيه: "من نحو النص إلى تحليل الخطاب النقدي"، ترجمة: أحمد صديق الواحي، مجلة النقد الأدبي فصول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد٧٧، ٢٠١٠م، ص٢٣.

٢. يُنظر: راستيي: فنون النص وعلومه، ص٢١، ٥٤.

٣. يُنظر: فان دايك: النص والسياق، ص٣١؛ فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص١٢.

٤. يُنظر: عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص١٢.

٥. يُنظر: دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص٧٢.

٦. يُنظر: مصلوح: العربية من نحو (الجملة) إلى نحو (النص)، ص٤١٠.

٧. يُنظر: الشاوش: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، ج١، ص٧٥.

٨. يُنظر: فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص٢٣٣.

٩. يُنظر: الزناد: نسيج النص، ص١٨؛ عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص١٤.

١٠. يُنظر: الشاوش: أصول تحليل الخطاب، ج١، ص٢٥.

١١. يُنظر: راستيي: فنون النص وعلومه، ص٥٤.

١٢. يُنظر: مصلوح: العربية من نحو الجملة إلى نحو النص، ص٤١٤.

١٣. دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص٤٢١.

١٤. يُنظر: عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص١٤.

١٥. يُنظر: فيهفجر: سمات دلالية وبنية النص، ص٢٨٤.

١٦. يُنظر: فولفجانج، فيهفجر: مدخل إلى علم لغة النص، ص١٤.

١٧. يُنظر: برينكر: التحليل اللغوي للنص، ص٣٠.

١٨. يُنظر: فالانسي: النقد النصي، ص١٦٨.

١٩. يُنظر: تادييه: النقد الأدبي في القرن العشرين، ص٢٦٧.

٢٠. يُنظر: فاليط: النص الروائي (تقنيات ومناهج)، ص٨٣.

٢١. فالانسي: النقد النصي، ص١٦٩؛ المهيري: اللسانيات الوظيفية، ص٣٩؛ عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة، ص١٠١.

٢٢. فاولر: اللسانيات والرواية، ص٢٢.

٢٣. المهيري: اللسانيات الوظيفية، ص٣٩، ٤٠؛ وانظر للمؤلف نفسه: نظرات في التراث اللغوي العربي، ص٢٣١.

٢٤. يُنظر: بارت: هسهسة اللغة، ص٢٢.

٢٥. المرجع السابق، ص١٨.

٢٦. يُنظر: طوني بينيت: مفاتيح اصطلاحية جديدة، ص٦٨٨.

٢٧. يُنظر: يقطين، سعيد: "الترابط النصي والخطاب الروائي العربي"، جامعة البحرين، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ١٨ / ١٩، ٢٠١٠م، ص١٨٢.

٢٨. يُنظر: يقطين، سعيد: "من النص إلى النص المترابط: مفاهيم أشكال تجليات"، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد٢، المجلد٣٢، ٢٠٠٣م، ص٧٧، ٧٨.

٢٩. يُنظر: راستيي: فنون النص وعلومه، ص٨٩، ٩٣.

٣٠. يُنظر: مصلوح: العربية من نحو الجملة إلى نحو النص، ص٤١١.

٣١. نيكل: علاقات سياقية بين الجمل في الإنجليزية، ص٢٤٧.

٣٢. يُنظر: دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص٦٥؛ غلفان، مصطفى: "اللسانيات وتحليل الخطاب (أية علاقة؟ تساؤلات منهجية)"، مجلة النقد الأدبي فصول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد٧٧، ٢٠١٠م، ص٥٧.

٣٣. دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص٧٨.

٣٤. يُنظر: كلماير وآخرون: أساسيات علم لغة النص، ص٣٣.

٣٥. يُنظر: مصلوح: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية (آفاق جديدة)، ص٢٢٥.

٣٦. يُنظر: هاينه مان وفيهفجر: مدخل إلى علم لغة النص، ص١٧.

٣٧. يُنظر: المرجع السابق، ص١٨.

٣٨. يُنظر: يقطين: تحليل الخطاب الروائي، ص١٧؛ انظر: O.Hendrick Wiliam: علم اللغة السيميائي والأدب المروي، ص٩؛ مصلوح: العربية من نحو الجملة إلى نحو النص، ص٤٠٧، ٤٠٨؛ الشاوش: أصول تحليل الخطاب، ج١ ص٣٨؛ طبجون، رابح: "تحليل الخطاب عند سارة ميلز"، مجلة النقد الأدبي فصول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد٧٧، ٢٠١٠م، ص٥٧.

٣٩. الشاوش: أصول تحليل الخطاب، ج١ ص٣٨.

٤٠. يُنظر: فيهفجر: سمات دلالية وبنية النص، ص٢٦٣.

٤١. يُنظر: عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص٢٣.

٤٢. يُنظر: عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص٢٣.

43. A. Van Dijk,(Some Aspects of Text Grammar), P.26.

٤٤. يُنظر: فان دايك: النص والسياق، ص٣٣.

٤٥. يُنظر: لقاح: مفهوم النص في الفكر اللغوي المعاصر، ص٢٠.

٤٦. يُنظر: هاينه مان وفيهفجر: مدخل إلى علم لغة النص، ص١٧.

٤٧. يُنظر: عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص١٥.

٤٨. يُنظر: يقطين: تحليل الخطاب الروائي، ص١٨.

٤٩. يُنظر: هيندريك: علم اللغة السيميائي والأدب المروي، ص٦٨.

٥٠. يُنظر: فيهفجر: سمات دلالية وبنية النص، ص٢٨٣.

٥١. يُنظر: تودوروف: مفاهيم سردية، ص٣٣.

٥٢. نيكل: علاقات سياقية بين الجمل في الإنجليزية، ص٢٤٧، ٢٤٨.

٥٣. يُنظر: تادييه: النقد الأدبي في القرن العشرين، ص٢٦٧.

٥٤. يُنظر: بارت: هسهسة اللغة، ص٢٤١، ٢٤٣.

٥٥. يُنظر: تادييه: النقد الأدبي في القرن العشرين، ص٢٧٢.

٥٦. يُنظر: تادييه: النقد الأدبي في القرن العشرين، ص٢٦٩؛ رابح: تحليل الخطاب عند سارة ميلز، ص١١٣.

٥٧. يُنظر: يقطين: تحليل الخطاب الروائي، ص١٨.

٥٨. يُنظر: تادييه: النقد الأدبي في القرن العشرين، ص٢٧٤.

٥٩. يُنظر: غلفان: اللسانيات وتحليل الخطاب، ص٥٩.

٦٠. دي بوجراند: علم لغة النص: نحو آفاق جديدة؟ ص٢٣.

٦١. يُنظر: المتوكل: الخطاب وخصائص اللغة العربية ص٢٨.

٦٢. يُنظر: هاينه مان وفيهفجر: مدخل إلى علم لغة النص، ص١٦.

٦٣. يُنظر: برينكر: التحليل اللغوي للنص، ص٢٩؛ عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص٤١.

٦٤. بارت: لذّة النص، ص٨٩.

٦٥. دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص٧٨.

٦٦. يُنظر: المرجع السابق، ص٨٢، ٨٣.

٦٧. المرجع السابق، ص١٢٧.

٦٨. يُنظر: بحيري: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص٤٤.

٦٩. يُنظر: دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص١٠٢.

٧٠. يُنظر: محسب، محيي الدين: اللسانيات والخطاب الأدبي، مجلة علامات، جدة، ج٥٥، م١٤، ٢٠٠٥م، ص١٢٥.

٧١. يُنظر: بحيري: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص٤١.

٧٢. نيكل: علاقات سياقية بين الجمل في الإنجليزية، ص٢٤٤.

٧٣. يُنظر: دي بوجراند: علم لغة النص: نحو آفاق جديدة؟، ص١٥.

٧٤. يُنظر: دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص٥٧٨.

٧٥. يُنظر: دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص٩٥.

٧٦. الزناد: نسيج النص، ص١٧.

٧٧. يُنظر: عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص٢٤.

٧٨. المرجع السابق، ص٤١.

٧٩. نيكل: علاقات سياقية بين الجمل في الإنجليزية، ص٢٤٣.

٨٠. يُنظر: دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص٩٥.

٨١. هناك فئة من الباحثين تُقلّل من قيمة الدراسات اللسانيّة التي تناولت الشعريّة، وترى أنَّ الشعريَّة التوليديَّة قد أخفقت؛ إذ لم تتجاوز ترجمة بعض المفاهيم القديمة، وترى أيضاً أن تحليل (ياكبسون) بسيط، وفوق هذا وذاك إذا كان اللسانيون عجزوا عن إعطائنا قوانين للسيطرة على اللغة اليوميّة، فكيف يستطيعون أن يقدّموا قواعد لوصف الخطاب الشعريّ؟!. انظر: مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، ص١٣.

٨٢. يُنظر: يقطين: تحليل الخطاب الروائي، ص٢٤؛ لقاح: مفهوم النص في الفكر اللغوي المعاصر، ص٢٠.

٨٣. يُنظر: عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص٢٥.

٨٤. مفتاح: التشابه والاختلاف، ص٣٨.

٨٥. تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ القدرة اللسانيّة بعد تشومسكي تشعّبت عند مجموعة من اللسانيين، فهناك القدرة التداوليّة، والقدرة الإيديولوجيّة، والقدرة التواصليّة...إلخ. انظر: لقاح: مفهوم النص في الفكر اللغوي المعاصر، ص٢٦.

٨٦. إنَّ السرديّة بالنسبة لـ(كوت زفينولد) مشتقّة من نموذج كوني أو عالٍ للنص، ومن ثمَّ وجب في رأيه رصد الكلّيات اللغويّة الخاصّة بالنص. انظر: لقاح: مفهوم النص في الفكر اللغوي المعاصر، ص٢١.

٨٧. يُنظر: لقاح: مفهوم النص في الفكر اللغوي المعاصر، ص٢٠، ٢١.

٨٨. يُنظر: لقاح: مفهوم النص في الفكر اللغوي المعاصر، ص٢١؛ بحيري: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص٥٨، ١٥٦.

٨٩. يُنظر: لقاح: مفهوم النص في الفكر اللغوي المعاصر، ص٢٢.

٩٠. يُنظر: عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص٢٦.

٩١. يُنظر: مصلوح: العربية من نحو الجملة إلى نحو النص، ص٤١١.

٩٢. يُنظر: عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ص٤٧.

٩٣. يُنظر: دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص١٠٢.

٩٤. يُنظر: سشايفر: النص، ص١٣٠، ١٣١.

المصادروالمراجع

١. بارت، رولان: لذة النص، ترجمة: منذر عياشي، ط١، حلب، مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٢م.

٢. بارت، رولان: من العمل إلى النص، بحث ضمن كتاب: دراسات في النص والتناصية، ترجمة: محمد خير البقاعي، ط١، حلب، مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٨م.

٣. بارت، رولان: هسهسة اللغة، ترجمة: منذر عياشي، ط١، حلب، مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٩م.

٤. بحيري، سعيد حسن: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ط١، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، ١٩٩٧م.

٥. برينكر، كلاوس: التحليل اللغوي للنص (مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج)، ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري، ط٢، القاهرة، مؤسسة المختار، ٢٠١٠م.

٦. تادييه، جان ايف: النقد الأدبي في القرن العشرين، ترجمة: قاسم المقداد، ط١، دمشق، المعهد العالي للفنون المسرحية، ١٩٩٣م.

٧. تودوروف، تزيفيتان: مفاهيم سردية، ترجمة: عبد الرحمان مزيان، ط١، الجزائر، منشورات الاختلاف، ٢٠٠٠م.

٨. خطابي، محمد: لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، ط١، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩١م.

٩. دي بوجراند، روبرت: علم لغة النص: نحو آفاق جديدة؟، بحث ضمن كتاب: (علم لغة النص نحو آفاق جديدة)، ترجمة: سعيد حسن بحيري، ط١، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠٧م.

١٠. دي بوجراند، روبرت: النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، ط١، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩٨م.

١١. راستيي، فرانسوا: فنون النص وعلومه، ترجمة: إدريس الخطاب، ط١، الدار البيضاء، دار توبقال، ٢٠١٠م.

١٢. الزناد، الأزهر: نسيج النص (بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً)، ط١، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣م.

١٣. سشايفر، جان ماري: النص، بحث ضمن كتاب (العلاماتية) وعلم النص، ترجمة: منذر عياشي، ط١، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤م.

١٤. الشاوش، محمد: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: تأسيس نحو النص، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للتوزيع، ٢٠٠١م.

١٥. طبجون، رابح: تحليل الخطاب عند سارة ميلز (من إنتاج النص إلى تسويقه)، مجلة النقد الأدبي فصول (ملف العدد: تحليل الخطاب: رهانات وآفاق)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد٧٧، ٢٠١٠م.

١٦. طوني بينيت ولورانس غروسبيرغ وميغان موريس: مفاتيح اصطلاحية جديدة (معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع)، ترجمة: سعيد الغانمي، ط١، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١٠م.

١٧. عناني، محمد: المصطلحات الأدبية الحديثة: دراسة ومعجم إنجليزي _ عربي، ط٣، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ٢٠٠٣م.

١٨. عوض، يوسف نور: علم النص ونظرية الترجمة، ط١، مكة المكرمة، دار الثقة للنشر والتوزيع، ١٤١٠هـ.

١٩. غلفان، مصطفى: اللسانيات وتحليل الخطاب (أية علاقة؟ تساؤلات منهجية)، مجلة النقد الأدبي فصول (ملف العدد: تحليل الخطاب: رهانات وآفاق)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد٧٧، ٢٠١٠م.

٢٠. فالانسي، جيزيل: النقد النصي، بحث ضمن كتاب: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة: رضوان ظاظا، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد (٢٢١)، ١٩٩٧م.

٢١. فاليط، بيرناد: النص الروائي (تقنيات ومناهج)، ترجمة: رشيد بنحدو، ط١، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩م.

٢٢. فان دايك، تون إيه: علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة: سعيد حسن بحيري، ط١، القاهرة، دار القاهرة للكتاب، ٢٠٠١م.

٢٣. فان دايك، تون إيه: من نحو النص إلى تحليل الخطاب النقدي (سيرة ذاتية أكاديمية موجزة)، ترجمة: أحمد صديق الواحي، مجلة النقد الأدبي فصول (ملف العدد: تحليل الخطاب: رهانات وآفاق)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد٧٧، ٢٠١٠م.

٢٤. فان دايك، تون إيه: النص بنى ووظائف (مدخل أولي إلى علم النص)، بحث ضمن كتاب: (العلاماتية وعلم النص)، ترجمة: منذر عياشي، ط١، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤م.

٢٥. فان دايك، تون إيه: النص والسياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، ترجمة: عبد القادر قنيني، المغرب، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠م.

٢٦. فاولر، روجر: اللسانيات والرواية، ترجمة: أحمد صبرة، ط١، الإسكندرية، مؤسسة حورس الدولية للنشر، ٢٠٠٩م.

٢٧. فضل، صلاح: بلاغة الخطاب وعلم النص، ط١، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (١٦٤)، ١٩٩٢م.
٢٨. فولفجانج هانيه مان وديتر فيهفجر: مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة: سعيد بحيري، ط١، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠٤م.
٢٩. فيهفجر، ديتر: سمات دلالية وبنية النص، ضمن كتاب: إسهامات أساسية في العلاقة بين النص والنحو والدلالة، ترجمة: سعيد حسن بحيري، ط١، القاهرة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م.
٣٠. كلماير وآخرون: أساسيات علم لغة النص (مدخل إلى فروضه ونماذجه وعلاقاته وطرائقه ومباحثه)، ترجمة: سعيد حسن بحيري، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ط١، ٢٠٠٩م.
٣١. لقاح، عبد الناصر: مفهوم النص في الفكر اللغوي المعاصر، بحث ضمن كتاب: (اللسانيات واللغة العربية بين النظرية والتطبيق)، مكناس، جامعة المولى إسماعيل، ١٩٩٢م.
٣٢. المتوكل، أحمد: الخطاب وخصائص اللغة العربية (دراسة في الوظيفة والبنية والنمط)، ط١، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٠م.
٣٣. محسب، محيي الدين: اللسانيات والخطاب الأدبي، مجلة علامات، جدة، ج٥٥، م١٤، ٢٠٠٥م.
٣٤. مصلوح، سعد: العربية من نحو (الجملة) إلى نحو (النص)، بحث ضمن الكتاب التذكاري (الأستاذ عبد السلام هارون مُعلِّماً ومؤلفاً ومحقّقاً)، إعداد: وديعة طه النجم وعبده بدوي، ط١، الكويت، جامعة الكويت، ١٤١٠هـ.
٣٥. مصلوح، سعد: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية (آفاق جديدة)، ط١، الكويت، مجلس النشر العلمي، ٢٠٠٣م.
٣٦. مصلوح، سعد: نحو أجرومية للنص الشعري (دراسة في قصيدة جاهلية)، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد العاشر، العدد الأول، ١٩٩١م.

٣٧. مفتاح، محمد: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، ط٣، الدار البيضاء، المركز الثافي العربي، ١٩٩٢م.

٣٨. مفتاح، محمد: التشابه والاختلاف (نحو منهاجية شمولية)، ط١، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٦م.

٣٩. المهيري، عبد القادر: اللسانيات الوظيفية، بحث ضمن كتاب: (أهم المدارس اللسانية)، ط١، تونس، المعهد القومي لعلوم التربية، ١٩٨٦م.

٤٠. المهيري، عبد القادر: نظرات في التراث اللغوي العربي، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م.

٤١. نيكل، جرهارد: علاقات سياقية بين الجمل في الإنجليزية، بحث ضمن كتاب: (علم لغة النص نحو آفاق جديدة)، ترجمة: سعيد حسن بحيري، ط١، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠٧م.

٤٢. ويليام، هيندريك: علم اللغة السيميائي والأدب المروي، ترجمة: نوزاد حسن أحمد ويوئيل يوسف عزيز، ط١، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ٢٠١٠م.

٤٣. يقطين، سعيد: تحليل الخطاب الروائي (الزمن – السرد – التبئير)، ط١، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٨٩م.

٤٤. يقطين، سعيد: الترابط النصي والخطاب الروائي العربي، جامعة البحرين، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ١٨ / ١٩، ٢٠١٠م.

٤٥. يقطين، سعيد: من النص إلى النص المترابط: مفاهيم أشكال تجليات، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد٢، المجلد٣٢، ٢٠٠٣م.

هل من الضروري مواصلة نهجنا
في تحليل الخطابات؟

آن ريبول وجاك موشلير

ترجمة

د. حافظ إسماعيلي علوي & د. امحمد الملاخ

أستاذ اللسانيات، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر

أستاذ اللسانيات، قسم اللغة العربية، الكلية المتعددة التخصصات بآسفي، جامعة القاضي عياض، المغرب

ورد البحث في ١/ ٩/ ١٤٣٥هـ وقُبل للنشر في ٢٨/ ١٠/ ١٤٣٥هـ

هل من الضروري مواصلة نهجنا في تحليل الخطابات؟[١]

آن ريبول وجاك موشلير[٢]

ترجمة: د. حافظ إسماعيلي علوي & د. امحمد الملاخ

---

١) نُشر هذا البحث على موقع (Hermes) **1996, 16, 61-92**.

ونود أن نشير إلى أننا احتفظنا بالهوامش والإحالات كما هي، والإحالة الوحيدة التي أضفنا أثبتناها في المتن بين معقوفين [...] كما نشير أيضا إلى أننا ذيلنا البحث بقائمة مصطلحات وردت في المتن، وقد تحاشينا أي تصرف في النص، باستثناء حذف إحدى الفقرات التي يحيل الملفان فيها على رسم توضيحي غير مثبت في المقال، وهذا ما اضطرنا لحذف الفقرة المتعلقة به. (المترجمان).

٢) **آن ريبول** Anne Reboul

* حاصلة على الدكتوراه في اللسانيات والفلسفة.
* باحثة في المعهد الوطني للبحث العلمي.
* أستاذة الدلالة والتداوليات في قسم اللسانيات بجامعة "جنيف".

جاك موشلير Jacques Moeschler

* أستاذ اللسانيات في قسم اللسانيات في جامعة "جنيف".
* نائب رئيس الجامعة السويسرية للسانيات.
* مهتم بالدلالة والتداوليات.

– اشتركت في تأليف مجموعة من الكتب والمقالات منها:

- القاموس الموسوعي للتداوليات، ١٩٩٤م (مترجم إلى اللغة العربية).
- تداوليات الخطاب: من تأويل الملفوظ إلى تأويل الخطاب.
- التداولية اليوم (مترجم إلى اللغة العربية).

ملخص البحث

نتناول في هذا المقال مشروعية تحليل الخطابات. ومسعانا الإبانة هنا عن أن تحليل الخطابات يرتكز على فرضية تقبل التفنيد، وأن نعد مفهوم الانسجام الذي يُقرن به عادة مفهوماً ما قبل علمي في أحسن الأحوال.

وسنحاول أن نبيِّن أن مقاربة اختزالية للخطاب ستكون في آن واحد على درجه أعلى من العلمية، وذات نجاعة أوفى. وفي الختام سنقترح تصورًا بديلاً للخطاب والانسجام.

الكلمات المفاتيح:

تحليل الخطاب - الانسجام- الاختزالية- السياقية - مقولات طبيعية ملائمة علميا - الملفوظ - الملاءمة - قصدية موضعية- قصدية شمولية - قصد تواصلي- قصد إخباري.

ABSTRACT

This paper is concerned with the legitimacy of discourse analysis. We intend to show here that discourse analysis rest on a highly debatable hypothesis and that the notion of coherence, which is closely associated with discourse analysis, is, at best, a pre-scientific notion. We will try to show that a reductionist approach to discourse would be both more scientifically sound and more efficient. We will, finally, outline an alternative view of discourse and coherence.

natural categories, utterances, relevance, local intentionality, global intentionality, communicative intention, informative intention.

Keywords: Discourse analysis, coherence, reductionism, contextualism, scientifically relevant.

مقدمـة:

عرف مجال تحليل الخطاب ازدهاراً كبيراً طيلة العقدين الأخيرين، إلا أن عـدداً من الاحترازات الإبستمولوجية الضرورية أهملت أحيانا فيما يبدو؛ ونود أن نبين هنا أنه إذا كان الخطاب، بمعنى يحتاج إلى تحديد(١)، موضـوع دراسـة مشـروعة في الحـدود التي يجب توضيحها(٢)، فإنه يجب أن يعالج ضمن أفق اختزالـي، وهـو أفـق لا يُتبنَّـى عموما. ولبلوغ هذا المسعى، فإننا سوف نرتكز على مفهوم المقولـة الطبيعيـة الملائمـة علميا(٣)، التي يمكن أن توصف إجمالاً، على النحو الآتي: إن ظاهرة ما تناسب مقولـة طبيعية ملائمة علميا إذا (أ) تعلق الأمر بظاهرة طبيعية (ب) لا يمكننا بيانها باختزالها إلى العناصر التي تكونها وإلى العلاقات المنسوجة بين هذه العناصر. وهكذا، سنبين أن الخطاب وإن كان يستجيب لأول هذين الشرطين، فإنه لا يستجيب لثانيهما.

غير أن تحليل الخطاب يرتكز عادةً على مفهوم الانسجام، الذي يبدو لنا في كل الأحوال، مفهوماً قبل- نظري، ومفهوما يصعب تحديده بطريقة مغايرة باستثناء تحديده بطريقة دائرية، وهو تحديد يطرح مشاكل أكثر مما يقدم حلولا لها.

سنبدأ بتقديم تحديد لـ الخطاب والمفاهيم المتاخمة، قبل أن نشير بشكل دقيق إلى ما نقصده بـالاختزال، وإعطاء تعريف أكثر تفصيلا لـمفهوم المقولة الطبيعية الملائمة علميا. استنادا إلى هذه التحديدات، سنبين أن الخطاب ليس مقولة طبيعية ملائمة

(١) ينظر: الفقرة ٢.

(٢) إنه ضروري في مجال الصناعات اللغوية.

(٣) ينظر: الفقرة ٣، وللتوسع: ريبول وموشلير ١٩٩٥.

علميا. ثم سنتصدى بعد ذلك لمفهوم الانسجام، الذي قد نرغب في اعتماده لإنقاذ مفهوم الخطاب: وبالفعل، فإنه يبدو لنا أن كل مفهوم من هذين المفهومين يحدد الآخر دون أن يوظَّف أيّ منهما بوصفه مفهوما أوليا. وبعبارة أخرى، فإن تحديدا غير دائري لمفهوم الانسجام يبدو مستحيلا. ومع ذلك، فإننا لا نعتقد أنه يجب التخلي عن مفهوم الانسجام، شريطة أن نعتبره، مع ذلك، مفهوما حدسيا وقبل نظري. ومن هنا، فإنه هو نفسه بحاجة إلى تفسير، بدل أن يوظف منطلقا لتحديد الخطاب أو أن يستطيع تفسير طريقة اشتغاله.

وسنختم مقالنا بخطاطة لما يمكن أن يكونه التحليل والانسجام والخطاب، وذلك من منظور اختزالي جدا[1]، على أن نعتمد على مفهومي القصدية الموضعية والقصدية الكلية، في إطار نظري لنظرية الملاءمة، تماما كما طرحها سبيربر وويلسون (Sperber et Wilson) (١٩٨٦/ ١٩٨٩).

الخطاب:

ثمة حسب علمنا، في الوقت الراهن، طريقتان تختلفتان اختلافاً في معالجة الخطاب.

ففي الأولى نعتبر الخطاب بمثابة متوالية من الجمل أو الملفوظات[2]، وأن الإشكال يكمن ببساطة في بيان تأويل متوالية تلك الجمل المتتابعة أو الملفوظات. وفي الثانية نعتبر أن الخطاب لا يختزل في متوالية من الجمل والملفوظات، بل ينتج بنية تفسر

(١) ولكن أيضا سياقي، الفقرة ٨.

(٢) سنبين أسفله أن المفهومين ليسا مترادفين. ينظر كذلك: ديكرو ١٩٧٢ و١٩٨٣، وموشلير وريبول١٩٩٤.

تسلسل الجمل أو الملفوظات، في استقلالية عن محتواها. ومن هذا المنظور، فإن للخطاب تنظيماً خاصاً به يُفرض على العناصر التي تشكله دون أن يكون بمقدورنا أن نختزله إلى هذه العناصر. وبعبارة أخرى، فإن الإنتاج المتتالي للملفوظات موجه غائياً نحو إنتاج هذه البنية[١]. وهكذا ننطلق في الحالة الأولى من الملفوظات أو من الجمل بهدف الوصول إلى الخطاب، ويُبنى تأويل الخطاب على قاعدة الجمل والملفوظات، أما في الحالة الثانية فإننا ننطلق من الخطاب، ويكون من المفترض في الخطاب أن يفسر إنتاج الملفوظات والجمل. وفيما سيلي من هذا المقال سوف نَسِمُ المقاربة الأولى بـأنها تحليل الـخطاب، والثانية بعبارة تحليل للخطابات[٢].

لا نعتقد أنه بإمكاننا إعطاء تعريف للخطاب من منظور تحليل الخطابات[٣]، ولن نحاول ذلك. وعلى العكس من ذلك من الممكن إعطاء تعريف للخطاب من منظور تحليل الخطاب:

(١) تعريف الخطاب

الخطاب هو متوالية غير اعتباطية من الملفوظات[٤].

هذا التعريف يستدعي تعريفاً آخر:

---

(١) نستلهم من سورل تحديده للغائية (سورل ١٩٩٥، ص٣٠٧) "إن تمثيل الهدف (...) يعمل كسبب للسلوك".

(٢) تعادل المقاربة الأولى وفقاً للمفاهيم المعرفية ما اصطلح عليه بالمقاربات الصاعدة (من القاعدة إلى القمة)، وبخصوص الثانية فهي تعادل المقاربات النازلة (من القمة إلى القاعدة).

(٣) لا ينبغي أن يكون ذلك مبعثاً للاندهاش، فالموقف الثاني هو ما نروم الدفاع عنه هنا.

(٤) وعلينا أن نتنبه أنه وفق هذا التعريف ستعتبر المحاورة أو الحوار خطاباً. والخطاب هنا منظور إليه بمعناه الواسع.

(٢) تعريف الملفوظ

الملفوظ هو حصيلة إنتاج مخصوص للجملة.

أخيرا، تتحدد الجملة على النحو الآتي:

(٣) تحديد الجملة

كل متوالية نحوية تامة هي جملة[١].

انطلاقاً من هذه التعريفات المختلفة، سنحاول أن نبين الآن أن الخطاب ليس سوى متوالية غير اعتباطية من الملفوظات؛ أي أنه يُختزل في العناصر المكونة له؛ أي الملفوظات، وفي العلاقات بين هذه العناصر.

النزعة الاختزالية والمقولة الطبيعية الملائمة علميا

لقد حددنا أعلاه[٢] وعلى نحو مجمل، المقولة الطبيعية الملائمة علميا باعتبارها مجموعة من الظواهر التي تأبى الاختزال. ونود الآن أن ندلي ببعض الكلمات عن الاختزال والنزعة الاختزالية عموما.

إن النزعة الاختزالية، كما نعرف، كانت هي الأساس المنهجي للعمل العلمي منذ نيوتن على الأقل. فهي، ببساطة، تُعْنى بتفسير ظاهرة ما بالانطلاق من تحليل عناصرها. ومع ذلك يمكننا أن نعطيها تعريفاً أكثر دقة، وهذا ما سنقوم به هنا انطلاقاً من التمييز بين الانبثاق من النمط (١)، والانبثاق من النمط (٢)[٣]:

---

(١) حول مفهوم الاكتمال التركيبي في الخطاب الشفهي. انظر: ريبول وموشلير ١٩٩٥ (قيد الإعداد).

(٢) ينظر: الفقرة ١.

(٣) بخصوص التمييز بين الانبثاق من النمط ١ والانبثاق من النمط ٢ انظر: سورل ١٩٩٥، ص١٦٠، وحول استعمال هذا المفهوم انظر: ريبول وموشلير ١٩٩٥.

(٤) تعريف الانبثاق من النمط (١)

تكون الواقعة (و) ذات انبثاق من النمط (١)

إذا وفقط إذا

(أ) إذا كانت "و" مكونة من العناصر أ.ب.ج

(ب) إذا كانت لـ"و" خصوصيات ليست خصوصيات لـ أ.ب.ج...، وليست بالضرورة خصوصيات لـ: أ.ب.ج...

(ت) بعض خصائص (و) يمكن استخلاصها، أو حسابها انطلاقا من خصوصيات أ.ب.ج. وذلك استنادا إلى ترتيبها أو تنظيمها مع بقية المحيط.

(ث) بعض الخصوصيات الأخرى لـ "و" تفسرها تفاعلات سببية تنتج بين أ.ب.ج... إنها "محددات منبثقة سببيا".

٥. تحديد الانبثاق من النمط (٢):

- الواقعة (وَ) تعتبر منبثقة من نمط الانبثاق (٢)

إذا وفقط إذا:

١. "وَ" هي عبارة عن منبثق من نمط الانبثاق (١)

٢. لـ"وَ" نفوذ سببي لا يمكن أن تفسره التفاعلات السببية لـ أ.ب.ج...

يمكننا الآن أن نحدد مفهوم "المقولة الطبيعية الملائمة علمياً":

٦. تحديد مقولة طبيعية ملائمة علميا:

إن مقولة ما هي مقولة طبيعية ملائمة علميا إذا وفقط إذا جمعت بين:

أ) ظواهر طبيعية

ب) هذه الظواهر تكون انبثاقا من النمط (٢).

إن كل مقولة لا تستجيب لهذا التحديد ليست مقولة طبيعية ملائمة علميا. من هنا، وللبرهنة على أن مجموعة معينة من الظواهر لا تناسب مقولة طبيعية ملائمة علميا، يكفي أن نبين أن هذه الظواهر لا تستجيب لهذا الشرط أو ذاك من الشرطين المذكورين أو لكليهما. من هذا المنظور، فإن النظرية الاختزالية تطبق على الظواهر التي لا تنتسب إلى مقولة طبيعية ملائمة علميا، وتكمن في اختزالها إلى عناصرها وإلى العلاقة بين هذه العناصر.

وأخيرا، وقبل أن نعالج الخطاب في ضوء تحديد ما المقولة الطبيعية الملائمة علميا، نود أن نشدد على أهمية الرهان بالنسبة إلى تحليل الخطابات. فإذا كانت مجموعة من الظواهر ليست مقولة ملائمة علميا، فإن هذه المجموعة من الظواهر لا تبرّر باعتبارها كذلك تحليلا علميا. وبالفعل وفي هذه الحالة، فإن العلاقة السببية التي يسعى التحليل العلمي إلى استخراجها تنطلق من الأجزاء نحو الكل، وأن التحليل الذي يحاول استخراج سببية معكوسة مآله الفشل. ومن هنا فإن كل ظاهرة لا تنتسب لمقولة طبيعية ملائمة علميا تبرر تحليلا اختزاليا مع استثناء أي تحليل آخر. وبناء عليه فإنه إذا لم يكن الخطاب مقولة طبيعية ملائمة علميا، فإن تحليل الخطابات يجب أن يختزل إلى تحليل الملفوظات (بمعنى إلى التداولية) اللهم إذا كانت هذه الملفوظات هي نفسها لا تشكل مقولة طبيعية ملائمة علميا، وفي هذه الحالة سوف تختزل إلى التأويل اللساني المحض (يعني إلى التركيب والدلالة)، وحتى إذا كانت العناصر التي تؤلف الجمل (المورفيمات مثلا) لا تشكل هي الأخرى مقولة طبيعية ملائمة علميا، فإنها تختزل إلى الفونولوجيا.

وبالتالي نرى أن هذا الرهان أساسي بالنسبة إلى تحليل الخطابات: فإن لم يكن الخطاب بالفعل، ليس مقولة طبيعية ملائمة علميا، ليس فقط لأنها لا تتوفر على موضوع، ولكن لأن البناء برمته مآله الفشل. في الفقرة الموالية سوف نبين أن الخطاب ليس ظاهرة انبثاق من النمط٢[1]. ومع ذلك، سنبين أيضا أن النزعة الاختزالية الجذرية التي ستوجه كل قانون للخطاب إلى الفونيم، والتي ستختزل، للسبب نفسه، ليس فقط تحليل الخطابات، ولكن التداولية واللسانيات نفسها إلى الفونولوجيا غير معتد بها. إن النزعة الاختزالية ترتكز على الظاهرتين الانبثاقيتين من النمط٢ اللذين هما الملفوظ والمورفيم.

الخطاب ليس مقولة طبيعية ملائمة علميا: القسم الأول

كما أشرنا إلى ذلك في نهاية الفقرة السابقة، ليست غايتنا أن نجادل في أن الخطاب[2] يجسد ظاهرة طبيعية. على العكس من ذلك، نعتقد أن الأمر لا يتعلق بأي حال من الأحوال بظاهرة انبثاق من النمط٢. لنبين ذلك، سوف نحاول أن نبين أن تأويل الخطاب يخضع لتأويل الملفوظات التي تؤلفه، فتأويل كل ملفوظ من هذه الملفوظات يخضع هو نفسه لتأويل الملفوظات السابقة وإلى معطيات أخرى، خصوصا المعلومات الموسوعية أو الإدراكية للعالم[3]، والتي لا تُستمد أية واحدة منها من

(١) لن ننفي البتة أن المسألة متعلقة بظاهرة طبيعية...

(٢) نقول إنه تبعاً للتعريف المقترح أعلاه، واستناداً إلى المنظور الاختزالي الذي نتبناه، لا يوجد الخطاب بالمعنى الذي يتبناه تحليل الخطابات.

(٣) وكما سنبين لاحقا، يحول إدماج المعطيات الإدراكية والموسوعية في عملية تأويل الملفوظات دون اختزال هذه الأخيرة إلى مجرد جمل.

الخطـاب المتصـور باعتبـاره مبـدأً غائيـاً متحكمـاً في تأويـل الملفوظـات الـتي تشـكله وإنتاجها. فيما يتعلق بالإنتاج، وبعيـدا، في نظرنـا، عـن أن يكـون غائيـا موجهـا مـن الخطاب، فإنه يفسر بالقصد الإخباري للمتكلم، وبقدراته على توجيه تأويل مخاطبـه. وستكون لنا فرصة للرجوع إلى هذا لاحقاً.

ما هو هدف تحليل الخطابات؟ إنه في نظرنا أن يبين أن:

أ) تأويل متوالية للملفوظات تؤلفه:

ب) للخطاب بنية[1]:

(١) خاصة به

(٢) وهي مستقلة عن:

- مقاصد المتكلم
- محتوى الملفوظات

ج) هذه البنية تلعب دوراً في التأويل وفي إنتاج الخطاب، وذلك من خلال ما يلي:

(١) ليس هناك تحليل كامل لخطاب ما إذا لم يستخرج هذه البنية؛

(٢) كل خطاب هو بطبيعته (غائيا) موجه نحو إنتاج هذه البنية.

---

(١) ويصح وفق هذا المنظور القول إن كل نمط من أنماط الخطاب (السرد، الوصف، الخطاب السياسي، المحاورة) ذو بنية تميزه. وهكذا نشهد تطور مسعى تنميطي للخطابات يعتبر أن كل نمط من أنماط الخطابات ينتج بنيته الخاصة التي تمنحه هويته. وبمعزل عن التحديد الدائري الكامن في صلب هذا الصنف من المنظورات نعتبر التصور الذي يذهب إلى أن محتوى الخطاب ليس له أي تأثير على بنيته وعلى نمطه تصوراً قابلاً للنقاش.

ولتحقيق هذا المسعى، لا بد أن تكون للخطاب بنية خاصة مستقلة، ومقاصد للمتكلم، ومحتوى للملفوظات، وهو ما سيشكل ظاهرة انبثاق من النمط٢.

يبدو لنا أن المدخل إلى نقد الفرضية التي سيصبح الخطاب بموجبها انبثاقاً من النمط٢، هي على وجه التحديد التبرير (على نحو ضمني ولكن على الأقل بشكل واضح) الغائي لوجود البنية. من زاوية النظر هذه ستكون معالجة الظاهرتين المنبثقتين من النمط٢ والمتمثلتين في حقيقة الأمر في المورفيمات والملفوظات أكثر فاعلية، وذلك قبل الوصول إلى الخطاب. ولهذا ستخصص الفقرة الموالية، وسنعود بعد ذلك إلى الخطاب.

المورفيمات والملفوظات: نحو انبثاق أصيل من النمط٢

فيم تكون المورفيمات والملفوظات انبثاقا من النمط٢؟

أول ما تجب الإشارة إليه هو أن التمييز بين الفونيم والمورفيم يخضع للتمفصل المزدوج للغة[(١)]؛ فالفونيمات تتمفصل فيما بينها لتنتج مورفيمات، وتتمفصل المورفيمات فيما بينها لتفضي إلى جمل. هذا لا يكفي في حد ذاته لتبرير أننا لا نستطيع أن نختزل المورفيمات إلى فونيمات، ولكن الذي يجعل من مورفيم ظاهرة انبثاق من النمط٢ غير قابلة للاختزال إلى العناصر التي تؤلفها، إنها ظاهرة المدلول[(٢)]: فمع

(١) مارتيني ١٩٦٠. تسمى المورفيمات مونيمات في اصطلاحات مارتيني، غير أن هذا التمييز غير دال في سياقنا هذا.

(٢) يجب أن نضيف المقولة التركيبية باعتبارها عنصراً مسهماً في دلالة المورفيم، وذلك وفق الخطاطة التي تقول إن معنى المورفيم هو حصيلة للمعنى المعجمي زائد المعنى النحوي، حيث يتضمن المعنى النحوي المقولة التركيبية من بين أشياء أخرى.

المدلول يبرز في المورفيم عنصر جديد غير قابل البتة أن يرد إلى فونيمات وإلى القواعد التي تقف وراء توليفها[1].

نتوفر من خلال المورفيم على مثال عن ظاهرة الانبثاق من النمط٢، ونتوفر من خلال الجملة على مثال عن ظاهرة الانبثاق من النمط١، وبالفعل فالتركيب والدلالة «في حقيقة الأمر» يعدان أسلوبين مختلفين ومتكاملين للتمثيل عن بناء الجملة ودلالتها وذلك باختزالها إلى العناصر التي تؤلفها[2]؛ أي المورفيمات، وإلى العلاقات بين هذه العناصر.

وماذا عن الملفوظ؟ وعلام يرتكز التمييز بين الملفوظ والجملة، بل قل ما هي العلاقة بين الملفوظ والجملة؟ يكتسي هذا السؤال بالنسبة إلى التداولية رهانا مماثلا للرهان الذي لطابع الخطاب في الانبثاق من النمط١ والانبثاق من النمط ٢ بخصوص تحليل الخطابات. فإذا كان الملفوظ يختزل إلى الجملة، فإن التداولية تذوب في الدلالة والتركيب، فوجودها لن يكون ذا مشروعية خالصة. فما هي العوامل التي تجعل من المورفيم ظاهرة انبثاق من النمط ٢؟ لقد رأينا أن عاملا مزدوجا خارجيا يتدخل فيما وراء العنصرين اللذين تتألف منهما المورفيمات؛ أي المعنى المعجمي والمقولة النحوية.

(١) إنه مفهوم اعتباطية اللسان.

(٢) يعد التركيب والدلالة مقاربتين تأليفيتين. وبيان ذلك أنه بالاستناد إلى التأليف التركيبي والدلالي بين المورفيمات نستخلص البنية التركيبية للجمل، وكذلك تحليلها الدلالي. ووفق هذا التصور يكون التركيب والدلالة اتجاهين اختزاليين بالمعنى المشار إليه أعلاه. وينسحب ذلك على البرنامج الأدنوي للنحو التوليدي (بولوك قيد الطبع)، حيث عدت الجملة الإسقاط الأقصى للصرفة (الصرفة علامة التطابق الملحقة بالفعل).

ووفقا للاستراتيجية ذاتها، ولنبين أن الملفوظات هي ظواهر انبثاقية من النمط ٢ فإنه يتعين ويكفي أن نبين أنها لا تختزل في جمل.

وثمة مدخل بديهي بخصوص هذه المشكلة، يتعلق الأمر بتأويل الملفوظات. فإذا كان تأويل الملفوظات لا يلتبس بتأويل الجمل، وبعبارة أخرى إذا كانت هناك ضرورة للخطوتين اللتين تم التمييز بينهما في التأويل، فإن الملفوظات لا تختزل إلى جمل. في هذه الحالة الخاصة، يكمن العامل الخارجي في الآليه التأويلية التى ينبغي أن تلحق بالآليات اللسانية الصرف (تركيب دلالة) لبيان تأويل الملفوظات.

لن نشير هنا سوى إلى اختلاف بسيط وموثق جيدا: الملفوظات التي تحتوي على إشاريات تؤول على نحو مختلف وإن تطابقت مع الجملة ذاتها. وفي هذه الحدود فإن ميكانزمات التأويل اللسانية الخالصة "تركيب ودلالة" غير كافية لتأويل الملفوظ؛ إذ لا بد من أن نضيف إليها معارف إدراكية حول العالم، فلنفحص المثال التالي:

٧. أنا هنا الآن

لهذه الجملة دائما المعنى نفسه، مهما كان الظرف الذي تقال فيه. غير أن الملفوظات المختلفة التي تنتجها ليس لها المعنى نفسه، فالملفوظ (٧) الذي أنتجته آن روبول يوم ٠٦ أكتوبر ١٩٩٥ سيكون له التأويل المشار إليه في (٨):

(٨) آن روبول موجودة في هانوفر يوم ٠٧ أكتوبر ١٩٩٥م.

لا يُعَدُّ معنى هذا الملفوظ الخاص لـ(٧) بطبيعة الحال مماثلا لمعنى أي ملفوظ خاص آخر لـ(٧). وإلى هذا الحد فالملفوظ لا يختزل في الجملة، ويتعلق الأمر حقيقة بظاهرة انبثاق من النمط٢؛ أي بمقولة طبيعية ملائمة علميا.

الخطاب ليس مقولة طبيعية ملائمة علميا: القسم الثاني

ما هو الفرق بين افتراض أن الخطاب يفرض غائيا بنية للملفوظات التي تؤلفه وبين إسناد آلية خاصة إلى تأويل الملفوظات؟ ففي حالة الخطاب، يكون مفهوم الاشتغال الغائي حاضرا، بينما يكون غائبا في حالة الملفوظ. [...].

وهكذا فإن كل تبرير غائي يعتبر غير علمي، عندها ولكي نبرر عدم قابلية الخطاب للاختزال:

(١) أن تقوم البنية أو البنى التي نسندها إليه بدور غير غائي ومستقلا عن مقاصد المتكلم، ومحتوى الخطاب في إنتاجه.

(٢) أن تقوم البنية أو البنيات بدور في تأويله.

يستدعي هذان الشرطان بعض التعليقات: يجب أن نسجل أولا أنها تناسب المظهرين اللذين يتوفر عليهما كل ملفوظ؛ أي أنه منتج ومؤول[١]. وقد افترضنا في الغالب أن الإنتاج والتأويل قد كانا ظاهرتين منعكستين،؛ فالمرحلة الأولى للعملية التأويلية مناسبة للمرحلة الأخيرة لعملية الإنتاج وهكذا دواليك. أن تكون هذه الفرضية صحيحة أو ألا تكون فيما يتصل بالمظاهر اللسانية الخالصة (صواتة وتركيب ودلالة) لتأويل الملفوظات فإنها لا تخلو من هنات فيما يتصل بتأويلها التداولي؛ إذ يجب، في الحقيقة، أن تكون قضايا السياق[٢] هي نفسها بالنسبة إلى المتكلم وإلى

(١) لا يستلزم ذلك أن تأويل الملفوظ يكون دائماً مكللاً بالنجاح، لكن ذلك مسألة أخرى لن تكون موضوع حديثنا هنا، غير أنه يمكن لأجل التوسع العودة إلى: سبيربر وويلسون ١٩٨٦ / ١٩٨٩.

(٢) يؤول الملفوظ استناداً إلى السياق، والسياق مؤلَّف من القضايا التي يعتقد المخاطب في صحتها، وبعض تلك القضايا عبارة عن معارف موسوعية حول العالم.

المخاطب، ولهذه الأطروحة المعروفة تحت اسم المعرفة المشتركة عيان؛ فهي تفضي إلى تراجع لا نهائي (انظر سبيربر وويلسن (Sperber et Wilson) ١٩٨٦/ ١٩٨٩) وتتنبأ على نحو غير واقعي بأن كل تواصل ناجح بالضرورة (أي لا وجود أبدا لأي سوء تفاهم) فلا يمكن إذن، الحفاظ عليها، ومن هنا، ولكي يتماهى تأويل الملفوظ مع إنتاجه، يجب ويكفي، أن تختزل تأويل الملفوظ إلى تأويل الجملة المناسبة، وكما رأينا ذلك في الفقرة السابقة (انظر الفقرة ٥)، فالأمر ليس كذلك. وإلى هذا الحد فمن المشروع تمييز إنتاج الملفوظات وتأويلها.

وفي هذا المقام، وفيما يتصل بـ (١) وبالنظر إلى الوضع المشكوك فيه لمفهوم الغائية، فإن البنية الآن إذا كانت تلعب دورا في إنتاج الخطاب، فإنه سيكون من المفضل، على الأقل، ألا يكون هذا الدور غائيا. وبالنظر، من جهة أخرى، إلى أنه على البنية لكي يكون لها وضع خاص جدا يسنده إليها تحليل الخطابات، أن تكون مستقلة عن مقاصد المتكلم والمحتوى فإننا لا نرى أي دور آخر بإمكانها أن تلعبه غير الدور الغائي[1]. أما بالنسبة إلى (٢) فمن البديهي أنه إذا كانت لمفهوم بنية الخطاب مشروعية ما، فإنه لا يمكنه أن يكتسبها (خارج الإنتاج) إلا من خلال دوره في التأويل؛ أي أنه على المخاطب بالضرورة أن يسترجعه كي يفهم الخطاب. إلا أن هذا الطابع المبتذل لا يدل على أنه استُنفذ كليا: وبالفعل فإن البنية إذا كانت مستقلة عن مقاصد المتكلم والمحتوى فإننا لا نرى أي دور يمكنها القيام به في تأويل الخطاب.

(١) ينسحب ما نقوله هنا على المسمى تركيب الخطاب أو اللسانيات النصية اللّذَين يُعَدَّان تنويعين لتحليل الخطاب.

وهكذا فإننا لا نرى أن هذه الشروط قد استوفيت، ويبدو لنا أن قوة الدليل توجد في الطرف المقابل. وإذا كنا على حق فإن الخطاب يختزل في عناصره؛ أي الملفوظات، وتفسره العلاقات بين عناصره. إن الأمر يتعلق بظاهرة انبثاق من النمط ١؛ أي أن الأمر لا يتعلق بمقولة طبيعية ملائمة علميا.

الانسجام في خدمة الخطاب:

بإمكان المنافحين عن الخطاب باعتباره ظاهرة انبثاق من النمط ٢ أن يستدعوا، من أجل الدفاع عن وجهة نظرهم، مفهوم الانسجام (Coherence) الذي يلعب دوراً مركزياً وإن كان غامضا في تحليل الخطابات. ويبدو لنا، ولأسباب مختلفة سنعمل الآن على عرضها بسرعة، أن العلاج سيكون أسوأ من الضرر.

ويمكن لبراهين المنافحين عن تحليل الخطابات أن تقوم بالفعل على الفرضية التالية:

(٩) فرضية حول الخطاب والانسجام

إن ما يميز الخطاب هو الانسجام

استنادا إلى هذه الفرضية، فإن ما سيحدد الخطاب (بمعنى تحليل الخطابات) قد يكون هو الانسجام. فهو الذي يفسر ويبرر بشكل أو بآخر وجود البنيات الخاصة. فبما أنه يفترض في الانسجام أن يشتغل بين الملفوظات لا داخلها، فإن تمييز الخطاب بهذه الطريقة قد يحول سلفا دون اختزاله إلى الملفوظات، وأن نجعل منه ظاهرة انبثاق من النمط ٢؛ أي مقولة طبيعية ملائمة علميا. من المحتمل أن يكون الانسجام هو العامل الخارجي، وذلك مقارنة بالمعنى المعجمي للمورفيمات، ومعنى الملفوظات.

إننا نرى أن هناك إجابتين أساسيتين عن هذه البراهين القائمة على الانسجام، الجواب الأول نستبعده، ونتبنى الثاني، وهو ما سنقوم به لاحقاً:

(١٠) الجواب الأول: العلاقات بين الملفوظات لا تحول دون الاختزال، وفي هذه الحالة فإن كون الانسجام يعمل بين الملفوظات أكثر مما يعمل داخلها ليس عائقا أمام الاختزال.

(١١) الجواب الثاني: لكي يقوم الانسجام بالدور الذي تسنده إليه هذه الحجة فعليه أن يكون قابلا أن يعرَّف تعريفا مستقلا، ولا يبدو الأمر كذلك في هذه الحالة[١].

وفي الحقيقة فإنه يبدو لنا من الصعوبة بمكان أن نعطي لمفهوم الانسجام محتوى وتعريفا، لا يدمج مفهوم الخطابات[٢]. وبشكل عام فإننا نعتبر الانسجام معادلا للخطاب تماما كما هو شأن النحوية بالنسبة إلى الجملة. ونعرف في الوقت نفسه الخطاب باعتباره متوالية منسجمة من الملفوظات، ومع ذلك فنحن نلاحظ أن نحوية جملة ما تخضع لقواعد مستقلة، في الوقت الذي لا يبدو الانسجام خاضعا لأي قاعدة مستقلة مهما كانت طبيعتها، وفي هذه الحالة فإن الانسجام يتحدد بالنظر إلى الخطاب، وأن الخطاب يتحدد بالنظر إلى الانسجام، وذلك ضمن حركة دورية جميلة. وهكذا فإن كل محاولة تسعى إلى جعل الخطاب مقولة طبيعية ملائمة علميا، قد يكون مآلها الفشل.

---

(١) لما كان من غير الممكن في نظرنا تعريف الانسجام بشكل مستقل فإننا لن نتبنى الإجابة الأولى. إننا نعتبر الانسجام نتاجاً فرعياً لتأويل الملفوظات وليس عاملاً من عوامل تأويله.

(٢) ينظر: موشلير ١٩٨٩، وريبول (قيد الطبع).

مقاربة بديل للانسجام والخطاب:

ومع ذلك فإنه لا يجب علينا أن نتوقف عن الاهتمام بالخطاب، وذلك لسببين: أولا لأن الحاجات الحالية للتحليل اللساني، وخاصة في مجال الصناعات اللغوية لا تتوقف على الملفوظ، والسبب الثاني يكمن في أن الملفوظ لا يؤول عموما منعزلا، وأنه، إذا كان مسبوقا بملفوظ أو بمجموعة من الملفوظات فإن هناك حظوظا قوية من المحتمل جدا أن تكون بعض المعلومات المستخلصة من تأويل الملفوظات ضرورية لتأويلها. وبعبارة أخرى يتعين رفض تحليل الخطابات لكنه يتعين مواصلة تطبيق منهج تحليل الخطاب الذي يتماهى من هذا المنظور مع التداولية. وطبقا لما أشرنا إليه أعلاه بخصوص الطابع الحدسي والما قبل نظري لمفهوم الانسجام فإنه لا مجال لتوظيفه لمعالجة الخطاب. وعلى العكس من ذلك يجب على النظرية التي نوظفها لمعالجة الخطاب أن تأخذ الانسجام بعين الاعتبار.

إذا كان الانسجام مفهوما حدسيا، فماذا يوافقه؟ وكيف نوظفه، ولماذا نوظفه؟ يتجسد مفهوم الانسجام في أحكام نطلقها على خطابات، أو على متكلمين من خلال خطاباتهم، وهو يخضع لتأويل الخطاب الذي نقوم به لا العكس، وفي هذه الحدود فإن بيان تأويل الخطاب يعني، إلى حد كبير، بيان الأحكام العفوية التي نطلقها على الخطابات والتي نؤولها إلى حد ما، وذلك بالنظر إلى أن هذه الأحكام ليست علمية وليس لها أي دور تفسيري أو وصفي تقوم به في نظرية لتأويل الخطابات. وعلاوة على ذلك فإن أحكام الانسجام تشكل ظاهرة مصاحبة للغة، التي يمكن لتحليل الخطاب توضيحها، بل يجب عليه أن توضيحها.

إن كل ما قيل في الفقرات السابقة كانت الغاية منه تبرير مقاربة اختزالية للخطاب، مقاربة، بقدر ما تختزل خطابا ما إلى الملفوظات التي تكونه، تفترض لكي

يكون هذا الخطاب مؤولا، نظرية لتأويل الملفوظات، يعني نظرية تداولية. وسنلاحظ أن عدم اختزالية الملفوظ إلى الجملة يفترض أن هذه المقاربة التداولية تسمح بدمج معارف غير لسانية(1) في تأويل الملفوظات. وإذن، فإن مقاربة الخطاب التي ندعو إليها، وإلى حد بعيد، هي في الوقت نفسه اختزالية وسياقية، وتقوم على فرضيتين أساسيتين:

ف.١: الخطاب ليس مقولة طبيعية ملائمة علميا،

ف.٢: كل ملفوظ يؤول نسبيا ارتباطا بسياق لا يُختزل في المعلومات اللسانية المضمنة في الجملة.

فالفرضية ١ تناسب مظهر الاختزال، فيما تناسب الفرضية ٢ المظهر السياقي لمقاربتنا للخطاب.

هناك حاليا نظرية تتطابق جيداً مع متطلبات تحليل الخطاب بالمعنى المشار إليه أعلاه؛ أي نظرية اختزالية وسياقية في الآن نفسه: إنها تداولية الملاءمة التي وضعها سبيربر وويلسن (١٩٨٦/ ١٩٨٩). ولن نقوم هنا بعرضها عرضا مفصلا، لأنها معروفة الآن جيدا، بل سنكتفي بأن نذكّر بأن الأمر يتعلق بنظرية ذات طابع معرفي (تعتبر اللسانيات والتداوليات جزأين من علم النفس المعرفي) تجعل من التأويل التداولي مجموعة من السيرورات غير المتخصصة التي يتم استدعاؤها بعد التحليل التركيبي والدلالي(2) وتستمر في تأويل الملفوظ في ارتباط بسياق غير معروف سلفا،

---

(١) لقد بينا أعلاه مدى ضرورة تلك المعارف في تأويل الملفوظات (انظر الفقرة ٥)، وفي غياب تلك المعارف سيختزل الملفوظ إلى الجملة.

(٢) وتتبنى المنظور الاختزالي نفسه الذي نتبناه، مؤداه أن الملفوظات لا تختزل إلى جمل لكن الجمل تختزل إلى مورفيمات، والمورفيمات لا تختزل إلى فونيمات.

لكنه مبني ملفوظا بعد ملفوظ. يتشكل هذا السياق من القضايا التي يعتقد المخاطب أنها صادقة والتي يستخلصها من مصادر متنوعة من بينها تأويل الملفوظات السابقة والإدراك المباشر والمعرفة الموسوعية حول العالم. ومن جهة أخرى، يتموقع سبيربر وويلسن، وسنرى لاحقا[1] أن الأمر ليس غير ذي أهمية، في إطار سياق ما بعد غرايس ويحتفظان عنده من فلسفة اللغة بأهمية مفهوم القصد والمبدأ العام الذي يحل محل مجموعة مبادئ ويتعلق الأمر بـمبدأ الملاءمة.

القصدية الموضعية والقصدية الكلية

ينبني التمييز الذي سندرجه في هذه الفقرة على تصور علم نفس العامة الذي يشكل النظير السيكولوجي لما تووضع على تسميته بعلم نفس العامة، والمقصود بتصور الفيزياء العامة (سميت وكاساتي(Casati et Smith (١٩٩٣) مجموع المسلمات والاستدلالات التي تعتبر خاطئة من وجهة نظر الفيزياء المعاصرة ولكنها عملية على أصعدة أخرى، وبخاصة تلك التي نستند إليها في تنبؤاتنا وأفعالنا بخصوص الأشياء المادية والأحداث التي تقترن بها في العالم. ومن المنظور نفسه فإن علم نفس العامة هو مجموع المسلمات والاستدلالات التي تستند إليها توقعاتنا التي تتحكم في الطريقة البشرية التي تكيّف بها تصرفاتنا مع تصرف الآخر. يتمثل علم النفس الشعبي في تبني ما اصطلح عليه دينات باستراتيجية المؤول (...) التي نسند فيها إلى هياكل أخرى[2] تمثيلات داخلية (معتقدات، مقاصد الخ) محفزة لأعمالها. بالنسبة إلى دينيت: "لامناص

(١) انظر: الفقرة.١١

(٢) يتحدث دينيت عن أجهزة تعديل، ولكنْ مما لا شك فيه هو أننا نتبنى استراتيجية المؤول بصفة عامة جداً.

من تبني وجهة نظر قصدية تجاه الذات وتجاه الكائنات الذكية الشبيهة بنا" ويضيف: الأهم ليس أننا نسند معتقدات ورغبات إلى أشياء نجد فيها تمثيلات داخلية فحسب، وإنما عندما نكتشف موضوعا تنطبق عليه استراتيجية المؤول نبحث عن سبيل لتأويل بعض من حالاته الداخلية فضلاً عن أنها تمثيلات داخلية".

من البدهي أن استراتيجية المؤول تنطبق تماماً على الكائنات البشرية باعتبارها منتجة لخطاب ما، فالكلام يعتبر عموما معبرا عن مقاصد وعن أفكار وعن مشاعر المتكلم(١).وبالعودة إلى الاستراتيجية الاختزالية يمكن القول إن الخطابات تختزل إلى ملفوظات، وإننا إذن نسند إلى كل ملفوظ على حدة مقاصد إلى المتكلم، هذه المقاصد التي يبنيها المخاطب استنادا إلى ملفوظ محدد نسميها بالقصديات الموضعيّة، وكما سبقت الإشارة إلى ذلك آنفا لاتتعلق استراتيجية المؤول وكذلك علم نفس العامة بالملفوظ فقط، وإنما يستعمل المخاطب بالنسبة إلى كل ملفوظ على حدة استراتيجية المؤول مسندا للمتكلم قصداً موضعياً ولا يكتفي بذلك بل يبني على أساس قصديات موضعية متتالية وآليات أخرى ستكون موضوع حديثنا لاحقا(٢)، ما سنسميه بالقصد الكلي، نعني قصداً يشمل مجموع الخطاب. هكذا نفرق بين قصد موضعي يسنده

(١) سنلاحظ عموماً أن استراتيجية المؤول إن كانت ذات إسهام فعال في تأويل الخطاب وإنتاجه والملفوظات المشكلة له، فدراستها من هذا المنظور لإنتاج الملفوظات وتأويلها سيكون ناجعاً بالنسبة إلى مجالات أخرى مرتبطة بالهندسة اللغوية والذكاء الاصطناعي، فإذا أخفقنا في صياغة نظرية مكتملة لما يمكن أن تكون عليه استراتيجية المؤول في المجال اللغوي فحتما ستكون حظوظنا في صياغة برنامج يجتاز بنجاح رائز تورينغ غير وافرة، ويصدق الأمر بالنسبة إلى الحوار إنسان – آلة والترجمة الآلية...

(٢) انظر: الفقرة ١٠.

المخاطب إلى المتكلم محتكما إلى ملفوظاته، وبين قصد كلي يسنده المخاطب إلى المتكلم محتكما إلى خطابه، هكذا يشكل القصد الموضعي والقصد الكلي محتويات القصدية الوضعية والقصدية الكلية، أي القدرة التي بموجبها يسند المخاطب إلى المتكلم خاصية امتلاكه قصد موضعي وقصد كلي. ومن هذا المنظور يقترن تأويل الملفوظ والخطاب بالفرضيات التي يصوغها المخاطب حول ما بحوزة المتكلم من قصدية موضعية أو كلية مخصوصتين.

لابد من التنبيه إلى أن فرضيتنا ليست بالفرضية الساكنة والتي بمقتضاها يترقب المخاطب نهاية الخطاب حتى يتمكن من إسناد قصدية كلية للمتكلم تتناسب بشكل أو بآخر مع مجموع قصدية وضعية. بعيدا عن هذا التصور، تجسد القصدية الكلية فرضية تقبل التعديل ملفوظا بعد ملفوظ، ولا يكون ذلك بإضافة بسيطة لقصدية موضعية جديدة وإنما بالاحتكام إلى القصدية الكلية السابقة والقصدية الموضعيّة التي تبنى للتو بالنسبة إلى ملفوظ ما. وكذلك بالاحتكام إلى التعديلات التي تحدثها القصدية الموضعيّة للقصدية الكلية. تتخذ تلك التعديلات ثلاثة أنماط مشاكلة في ذلك التعديلات التي يحدثها الملفوظ لسياق معين، وبالقياس إلى التعديلات نقيس مقدار ملاءمتها، وفق ما هو محدد في نظرية سبيربر وويلسن:

١ – يمكن لقصد موضعي أن يناقض عنصرا من القصد الكلي، حينئذ ينتزع ذلك العنصر [من سيرورة التأويل].

٢- يمكن لقصد موضعي تغيير القوة التي يُدرك من خلالها عنصرا من القصد الكلي وذلك بجعل ذلك العنصر أكثر أو أقل يقينا.

٣ - يمكن لقصد موضعي في ترابطه مع عناصر القصد الكلي أن ينتج بواسطة الاستنتاج عنصرا أو عددا من العناصر الجديدة منتمية للقصد الكلي.

كل ما أسلفنا قوله لا يخلو هذا من نتائج، فإذا صح ما قلناه للتو عن العلاقات بين القصدية الموضعيّة والقصدية الكلية، ينبغي أن نستخلص من ذلك أن عناصر القصدية الكلية تملك صورة قضوية وبشكل أو بآخر تمثل جزءا من السياق. إذا ما استحضرنا المصادر الثلاثة التي يسندها سبيربر وويلسن للقضايا المشكلة للسياق، سندرك أن أحدهما يمثل المصدر المفضل للقصدية الكلية يتعلق الأمر بطبيعة الحال بتأويلات الملفوظات السابقة. وينبغي التشديد على كون القصدية الكلية ليست مساوية للسياق، مثلما لا تساوي الجزء من السياق المتشكل من تأويل الملفوظات السابقة. توافق القصدية الكلية بالفعل، في المجموعة الفرعية من القضايا التي تتدخل في ذلك الجزء.

بناء الخطاب والانسجام

ماذا يمكن أن نقول عن الخطاب والانسجام؟ ما الذي تتجنبه المقاربة الاختزالية والسياقية من عقبات تحليل الخطابات؟ كيف ترصد أحكام الانسجام؟ وأكثر من ذلك كيف يتم بناء القصدية الكلية؟ هل تعتبر استراتيجية المؤول واقعية بالنسبة إلى الخطاب، أو بعبارة أخرى ما العلاقات التي تجمع بين القصدية الكلية المسندة إلى المتكلم وبين تمثيلاته الذهنية؟

سنسعى في هذه الفقرة إلى الإجابة عن الأسئلة المطروحة وفق الترتيب الذي سيظهر أسفله.

لنبدأ بالسؤال المتعلق بالخطاب والانسجام. إن الاستراتيجية الموصوفة في الفقرة أعلاه وكما يدل عليها اسمها، نعني استراتيجية المؤول، تعد استراتيجية تأويلية. إنها تتعلق بتأويل الملفوظات والخطاب، كما تقرن تأويل الخطاب بتأويل الملفوظات. كما أنها لا تختزل، كما سيتبين، تأويل الخطاب إلى حاصل تأويل الملفوظات. ومثلما هو الشأن

بالنسبة إلى هذه المسألة، وكذلك بالنسبة إلى المسائل الأخرى سنظل أوفياء لطرح سبيربر وويلسن، معتبرين هذه الاستراتيجية استراتيجية فرضية- استنباطية، لأنها تنبني على صياغة فرضية حول مقاصد (محلية في البداية وكلية بعد ذلك) المتكلم تُعدَّل (الفرضية) بحسب ما إذا تم تأكيدها أو نفيها. ويعتبر ولسن وسبيربر الآلية الفرضية- الاستنباطية بمثابة القاعدة بالنسبة إلى سيرورة تأويل الملفوظات، وسنكتفي ببسط تلك الآلية إلى مجال الخطاب. إلا أننا لن نعتبر، بأي حال من الأحوال، أن تأويل الخطاب يحتكم إلى الآلية نفسها التي يحتكم إليها تأويل الملفوظات؛ لأن تأويل الملفوظات يمر عبر تحليل لساني (تركيبي ودلالي) ثم عبر سيرورة فرضية استنتاجية تداولية. وبذلك يعرف مرحلتين: مرحلة ذات طبيعة لسانية صرف ومرحلة ذات طبيعة تداولية، بينما لا تمر عملية تأويل الخطاب بأية مرحلة لسانية، فالمعطيات اللسانية ليس لها أي إسهام، أو لنقل إنها ذات إسهام غير مباشر في تأويل الخطاب. فإذا فحصنا القضايا المصاغة في الفقرة السابقة سندرك أن تأويل الخطاب يُختزل في عملية بناء قصدية كلية تتشكل بدورها على أساس قصدية محلية. في هاته الحال وفيما يرتبط بالتأويل ينبغي اعتبار تأويل الخطاب عملية تُبنى بسيرورات مماثلة للسيرورات التي تنطبق في مستوى الملفوظ، مع فارق أن عدد المعلومات المعتبرة يجعلها أكثر تعقيدا. إننا نعتبر عملية بناء القصدية الكلية تكمن خلف أحكام الانسجام المسندة إلى الخطابات أو إلى منتجيها. فكلما كانت القصدية الكلية المسندة إلى متكلم خطاب معين معقدة وتفصيلية، كان الحكم بانسجام ذلك الخطاب إيجابيا. وبعبارة أخرى ليس الانسجام تصورا مطلقا بل هو تصور نسبي ذو درجات؛ فدرجة الانسجام التي نصف بها خطابا معينا تتعلق بالسهولة أو بالتعقيد المحققين في عملية بناء القصدية الكلية لذلك الخطاب.

قبل أن نتعمق أكثر نريد أن نقول كلاما أكثر تحديدا بخصوص الآليات التي نراها كامنة في صلب عملية بناء القصدية الكلية، فكما أشرنا إلى ذلك في الفقرة السابقة، يعد بناء القصدية الكلية سيرورة دينامية وفرضية- استنباطية. إن الطابع الدينامي لا يختزل فيما ذكر سابقا، وسنسعى إلى إضافة آلية أخرى تبني القصدية الكلية. تمر هذه الآلية عبر ما اصطلحنا عليه آنفا بالفرضيات الاستباقية[1].وسنأخذ بعض الأمثلة التي تبين الصيغة التي تُبنى بها تلك الفرضيات [الاستباقية]، وسنعطي بعض الإشارات التي تخص صيغ ذلك البناء وكذلك كيفية توظيف المتخاطبين والمتكلمين لها:

١٢) تراني هل أجرؤ على سرد هذه الطرفة التي أبلغت بها حين كنت أستظل تحت جدار مقبرة وسط قطعة برسيم ذا اخضرار فاتن!؟ (ب) لـمَ لا؟ (ج) فلم تعد لي مصداقيّة أخاف عليها بعد أن قلت حقائق تتعارض وتقاليد سنة١٨٣٨. د) لم يكن القسّ مسنّا البتّة!؛ هـ) كانت الخادمة جميلة؛ و) "أطلق العذّال ألسنتهم، لكنّ ذلك لم يمنع شابا من القرية المجاورة من التغزّل بالخادمة". ز) وفي أحد الأيام، أخفى ملاقط المطبخ في سرير الخادم. (ح) عند عودته، بعد ثمانية أيّام، قالت له الخادمة: ط) "هيّا، قل لي أين أخفيت الملاقط، التي أبحث عنها في كل مكان منذ مغادرتك. ي) كانت تلك مزحة سخيفة جدّاً". ك) قبّلها العاشق، والدموع في عينيه، ثمّ انصرف". (ستندال، السفر إلى الجنوب، ديوان، ص١١٥).

١٣) أ. مدينة سوفرونيا مكونة من مدينتين. إحداها تعرجات كالحادلة بهضبتين منحدرتين، وفيها الفرسان ورنين سلاسلهم وعجلة لنسج الأقفاص، واجتياز

---

[1] ريبول: ١٩٩٢.

الموت بدراجات بخارية محدودبة، فيها قمتها الكبيرة والحبال الأفقية الكثار مشدودة إليها من وسطها. النصف الآخر من المدينة من الجص والرخام والإسمنت وفيه الساحل والمعامل والقصور والمجزرة والمدينة وسواها. أحد نصفي المدينة ثابت والآخر زائل. حين تنتهي فترة الإقامة في هذا النصف يقتلعونه، يفككون أجزاءه وينقلونه إلى مهملات نصف مدينة أخرى.

١٣) ب. وهكذا وفي كل سنة يأتي اليوم الذي يزيح فيه العمال القوصرات الرخامية ويهدمون الكهنوت والمعبد وأرصفة المرسى ومصفى النفط والمستشفى، يحملونها في شاحنات لتنقل من موقع إلى موقع حتى يكملوا رحلة الحَوْل. يظل هنا نصف سوفرونيا حيث أبراج الرمي وعروض الفرسان وصيحة تجيء من عربة حادلة تجري على التعرجات شديدة الانحدار. وهكذا يبدأ عد الشهور والأيام التي يجب أن تنتظر عودة القافلة وتبدأ الحياة الكاملة من جديد.

١٤) أ. إن كنت تصدقني، حسنا سأخبرك كيف أنشئت أوكتافيا، مدينة نسيج العنكبوت: هناك تلك الهوة السحيقة، المدينة معلقة فوق تلك الهوة، مشدودة إلى القمتين بحبال وسلاسل ومعابر ضيقة. فأنت تسير فيها على أن تقع قدماك في الفراغات التي تفصل بينها أو تتشبث بمربعات شباك الكتّان ولا ترى تحتها أي شيء على عمق مئات الأمطار. بضع غيمات تلتمع عابرة، وراءها إلى الأسفل، يلمع قاع الهوة الكبيرة.

تلك نواة المدينة، شبكة تستخدم ممرا وحاملا من السقوط كل ما بقي منها، بدلا أن يرتفع إلى أعلى يتدلى إلى أسفل. سلالم من حبال، فرش معلقة، مساكن صنعت مثل أكياس كبيرة، مشاجب ومصاطب مثل زوارق صغيرة، قرب ماء، صنابير

الغاز مفرغات، مقابض سفافيد دائرية، هواء ومباصق، سلالم معلقة، ورافعات، مناضد صغيرة، دشات، عقل للرياضة وحلقات لألعاب الأطفال، تلفريك، ثريات وزهريات تصعد منها نباتات متسلقة.

١٤) ب. حياة أهل أوكتافيا المعلقة فوق تلك الهاوية ليست أقل استقرارا من الحياة في المدن الأخرى. ١٤) ج. فهم يعرفون أن الشبكة لن تطول مقاومتها.

١٥) جورجياس: أليس من السهل سهولة مدهشة يا سقراط أن نستطيع بدون أيّة دراسة للفنون الأخرى أن نكون بفضل البيان وحده متساوين مع جميع المتخصصين؟

سقراط: سنفحص عما قريب، إذا ما استدعت المناقشة ذلك، هل يتساوى الخطيب بالتزامه بذلك الفن مع الآخرين. أما الآن فلنر أولا: هل يكون بالنسبة إلى العدل والظلم والجمال والقبح والخير والشر، في الوقت نفسه الذي يكون عليه في الصحة وموضوعات الفنون الأخرى؟ وهل يملك دون أن يعرف الأشياء في ذاتها، ودون أن يعرف ما هو خير وما هو شر، وما هو قبيح وما هو جميل، وما هو عادل وما هو ظالم، سرا للاقتناع يسمح له أن يبدو وهو الذي لا يعلم شيئا، أمام الجهلة، أكثر علما من العلماء. وهل يجب أن يكون المرء قد سبق له تعلم مثل تلك المسائل قبل أن يأتي إليك ملتمسا تعلم الخطابة؟... أو هل سيتعين عليك تعليمه الخطابة إن لم يتعلم المسائل الحقيقية المرتبطة بهذه المواد؟ ما رأيك في كل ذلك يا جورجياس؟ اكشف لي باسم زيوس كما وعدتني منذ هنيهة عن القوة الكامنة في الخطابة.

جورجياس: أعتقد يا سقراط أن المرء إذا ما كان جاهلا بمثل هذه المسائل فسيتعلمها بجواري.

سقراط: يكفي هذا، ولقد أحسنت القول، إنه كي تجعل من الشخص خطيبا جيدا لا مناص له من معرفة العدل والظلم، سواء أتحصلت المعرفة عنده من قبل أم حصل عليها منك فيما بعد.

جورجياس: تماما

سقراط: ولكن ماذا؟ أليس من تعلم الهندسة المعمارية يكون مهندسا معماريا؟

جورجياس: بلى

سقراط: نعم، ويكون طبيبا ذلك الذي درس الطب؟ وهكذا دواليك، ما إن يدرس إنسان شيئا، حتى يكتسب الصفة التي يمنحها علم هذا الشيء؟

جورجياس: بالتأكيد

سقراط: تبعا لذلك، يكون كل من تعلم العدل عادلا؟

جورجياس: من غير شك

سقراط: من كان عادلا يتصرف وفقا للعدالة.

جورجياس: نعم

سقراط: وهكذا يكون من يعرف الخطابة عادلا بالضرورة، ولا يستطيع العادل إلا العمل بالعدل.

جورجياس: ذلك محتمل

سقراط: إذن، فمن يكون عادلا لا يمكن أن يقترف الظلم.

جورجياس: بالضرورة

سقراط: لكن الخطيب بحسب ما قلناه عادل بالضرورة.

جورجياس: نعم

سقراط: ولن يمكنه أن يريد تبعا لذلك أن يرتكب الظلم.

جورجياس: يبدو تماما أنه لايريده [المترجمان: اعتمدنا ترجمة محمّد حسن ظاظا لمحاورة أفلاطون "جورجياس"، الناشر: الهيئة المصريّة العامّة للتأليف والنشر، ١٩٨٠، صص٥١-٥٢]

من بين النصوص الأربعة ثلاثة هي عبارة عن محكيات قصيرة أو نصوص وصفية، بينما يمثل النص الرابع محاورة. وفي انسجام مع مبادئنا لن ننطلق من الفكرة التي يتم التمييز بمقتضاها انطلاقا من تصور الاشتغال المعرفي بين تأويل المحكيات والنصوص الوصفية أو المحاورات. تعيننا النصوص الثلاثة الأولى على توضيح ما نقصده بالفرضية الاستباقية؛ ففي النص الأول يُكون القارئ فرضية استباقية سيتثبت منها في نهاية النص، بعكس النص الثاني والثالث حيث إن المتكلم مدعو إلى صياغة فرضيات استباقية سيتم نفيها لاحقا، إن المقطع الوارد في (١٥) مساق لغاية توضيح فائدة أو حدود مقاربة تحتكم إلى تصور القصدية الكلية وذلك عندما تنقسم القصدية الواحدة إلى قصديات متعددة كما في المحاورة عموماً.

وبالعودة إلى المثال (١٢) يسمح مستهل النص من الجملة (١٢أ) إلى الجملة (١٢ز) للمخاطب بتكوين فكرة عما يسعى الكاتب إلى قوله. وتحديدا كون القساوسة ليسوا جميعا بمنأى عن الإثم، وكذلك كون القصة التي سيسردها مغامرة غرامية بطلها رجل دين[1].

---

(١) ليس من قبيل الصدفة أن يكون الاستهلال (١٢ أ) – (١٢ج) ذا أهمية، ويمكن القول إنه يطرح أسس القصدية الكلية، ويصوغ الفرضية الاستباقية حول الحكاية التي سيسردها. ستكون حكاية مخزية.

فبالاستناد إلى القصدية الكلية التي بناها المخاطب إلى غاية الجملة (١٢ و) سيسعى إلى صياغة فرضية استباقية ستؤكدها نهاية النص، بموجب هذه الفرضية الاستباقية يكون القس على علاقة غرامية بالخادمة. هذه الفرضية ستؤكد بواسطة استدلال مبني على الخدعة التي يحبكها العاشق للخادمة (١٢ ز). يقود الجزء الأول من النص (١٣) أعني (١٣ أ) على المنوال نفسه إلى بناء قصدية كلية يكون بمقتضاها مسعى كالفينو وصف مدينة نصفها عبارة عن عيد موسمي ونصفها الآخر عبارة عن أجزاء مفككة قابلة للنقل، هكذا بالاستناد إلى هذه القصدية الكلية وبالاستناد أيضا إلى المعارف الموسوعية التي لدينا حول العالم، يصبح القارئ مدعوا إلى صياغة فرضية استباقية مفادها أن الكاتب سيصف عملية تفكيك أجزاء العيد الموسمي وهي فرضية سيفندها الجزء الثاني من النص (١٣ ب). وتعتبر الآلية في المثال (١٤) أكثر تعقيدا؛ ففي الفقرتين الأوليين من النص (١٤أ) يصف كالفينو المدينة- نسيج العنكبوت، حيث إن حياة ساكنتها أكثر تعقيدا وخطورة، لأن المدينة تقع أسفل جرف، ويبدو أن أبسط حركة طائشة ستكون عواقبها وخيمة. يسند المخاطب قصدية كلية للمتكلم هي عبارة عن كناية عن الخطر أو هشاشة الوجود الإنساني، غير أن الملفوظ (١٤ ب) سيقودنا إلى نتيجة مفاجئة مفادها أنه على الرغم من كل المخاطر المحدقة بساكنة مدينة أوكتافيا فإن حياتهم ليست أقل "استقرارا" مقارنة بمدن أخرى، فبالنظر إلى القصدية الكلية المسندة إلى كالفينو سنميل إلى تفسير "استقرار" باعتبارها مرادفة لـ"خطرة"، وبذلك سيصوغ القارئ فرضية استباقية مؤداها أنه في بقية النص (١٤ ج) سيبرر الكاتب الرأي الذي يزعم أنه رغم كل المخاطر فإن الساكنة في أوكتافيا أقل تهديدا، غير أن الملفوظ الأخير (١٤ ج) سينفي هذا التوقع وسيجعل من اللازم إعادة تأويل الملفوظ (١٤ ب) وبشكل خاص لفظة "استقرار"، هكذا فحياة ساكنة أوكتافيا أقل استقرارا

مقارنة بساكنة مدن أخرى ليس لأنها أقل خطرا وإنما لأن نهايتهم حتمية. وبذلك لا يجب تأويل لفظة "استقرار" بدلالة "الخطر" وإنما بدلالة "اليقين". تكمن خصوصية الملفوظ (١٤) في أن الفرضية الاستباقية تثيرها كلمة يتضمنها الملفوظ (١٤ ب)، كما أن تأويل تلك الكلمة مشروط بالقصدية الكلية المبنية إلى هذا الحد.

لقد لاحظنا أن الفرضيات الاستباقية ذات مصادر متنوعة، حيث يمكن أن تُبنى على قاعدة القصدية الكلية حصرا، كما هو الشأن بالنسبة إلى الملفوظ (١٢)، أو على قاعدة القصدية الكلية والمعارف الموسوعية كما هو الشأن بالنسبة إلى الملفوظ (١٣)، أو على قاعدة تأويل ملفوظ تقود القصدية الكلية تأويل كلمة متضمنة فيه، كما هو الشأن بالنسبة إلى الملفوظ (١٤). ومن البدهي أيضا أن الفرضية الاستباقية تغير، وإن قليلاً القصدية الكلية[١]. أخيرا سنلاحظ أن القصدية الكلية يوجهها المتكلمون ويستثمرونها، وبشكل أخص في النصوص الأدبية الشبيهة بالنصوص التي سقناها أعلاه، فالكتاب يعرفون مثلما يستثمرون آليات التأويل التي تسهم في بناء القصدية الكلية بما فيها الفرضيات الاستباقية. ولن نتوقف عند هذه المسألة هنا [٢].

وبالعودة إلى المحاورة (١٥) التي لم نسقها لغرض توضيح بناء الفرضية الاستباقية أو القصدية الكلية وإنما لمناقشة إمكانات بناء القصدية الكلية بالنسبة إلى المحاورة. تطرح المحاورة بوضوح مسألة الفصل بين المقاصد، ففي علم نفس العامة لا

---

(١) لا نسعى من خلال التأملات المستوحاة من النصوص الثلاثة (١٢) و(١٣) و(١٤) إلى تقديم تحليل شامل لها، حسبنا أن نتوسل بها لبلورة تصور للقصدية الكلية وللفرضيات الاستباقية.

(٢) نحيل على: ريبول ١٩٩٢، وريبول وموشلير (قيد الإعداد).

يمكن إسناد قصدية كلية واحدة للمحاورة، لأن المحاورة تضم مشاركين[1] عدة، فما الذي يمكن أن نصنعه بالمحاورة؟ كيف يمكن تأويلها؟ سنلاحظ أنه هناك على الأقل ظاهريا خياران: ينبني أولهما على فكرة كون الشخص الذي يؤول المحاورة هو نفسه أحد المتكلمين في المحاورة نفسها. أما الخيار الثاني منهما فينبني على فكرة مفادها أن الشخص الذي يؤول المحاورة يؤولها من الخارج دون أن يكون مشاركا فيها. وهذا هو شأن المحاورة الأفلاطونية الممثل لها بـ (١٥) حيث يتحقق الخيار الثاني[2]. غير أن هذا التمييز ليس واضحا بالشكل الذي يبدو عليه، فالمشارك في محاورة من نمط النقاش الدائر حول مسألة دقيقة مدعو إلى بناء قصدية كلية يسندها إلى المخاطب إذا أراد أن يحافظ عن إمكانية دفاعه عن رأيه، ويجب نصحه بضرورة صياغة بعض الفرضيات الاستباقية، وتنسحب الشروط نفسها على من يكتفي بتأويل محاورة دون أن يكون مشاركا فيها ويمكن لدوافعه أن تكون أقل عمقاً إلاَّ أنها (=الدوافع) لا تفلت من إقامة القصدية الكلية، مع فارق متعلق بعدد القصديات الكلية التي ينبغي عليه بناؤها تبعا لعدد المشاركين في المحاورة.

---

(١) ذاك أحد الأسباب التي جعلت تحليل المحادثات المؤسس على إسناد "بنيات" من المفروض أن تضطلع بتأويل المحادثات تحليلا ذا منحى غائي، وتفسير ذلك أن التحليل المتبنى يفترض بشكل غير واقعي وجود قصدية واحدة تخلف المحاورة أو المحادثة. وبما أن هذه الفرضية لا يمكن قبولها فبينة المحادثة لا يمكن أن نعزوها إلى قصدية معينة، ولا يمكن أن يكون تبريرها غائيا.

(٢) الحوار (١٥) بمثابة نقل لحوار أصلي. وسنسوق بعض الملاحظات لاحقاً عن الحوار المتخيل؛ أي الحوار المبني أو المعاد بناؤه بوساطة قصدية أحادية (الكاتب)، وذلك ما ينسحب على المحاورة الأفلاطونية.

ماذا يتضمن مقطع المحاورة السقراطية؟ لقد دافع جورجياس دون وعي منه عن البلاغة مشيرا إلى أنها الفن الأسمى بقدرتها على التحكم في الموضوع كيفما كان وإزاء أي خطيب. لسقراط في المقطع السالف قصدية كلية واضحة تكمن في دفع مخاطبه إلى قبول عدد من المقدمات التي سيستخلص منها لا محالة نتيجة محددة وهي أن الخطيب لن يسعى إلى اقتراف المظالم. من النافل القول إنه بعد ذلك ووفق النهج نفسه سيقود سقراط جورجياس إلى قبول عكس النتيجة المذكورة سابقا وبالتالي السقوط في تناقض قبل أن يخلص بعد ذلك إلى أن البلاغة لا تمتلك الصفات التي ألحقها بها السفسطائيون وبالتالي دفع القارئ إلى البحث عن الحقيقة. إحدى الخصائص المميزة للمحاورات السقراطية تكمن في بنائها الصارم الذي يسمح لكل انتقال في التحاور إلى تقدم سقراط خطوة إلى النتيجة التي يتغيا الدفاع عنها، ويصح هذا حتى عندما يبدو سقراط في وضع حرج أو يقوم بتنازل، بعبارة أخرى إنها لعبة لا يملك فيها حظوظ النجاح سوى سقراط. هكذا يمكن القول إن القصدية الكلية للمقطع الحواري تكمن في دفع جورجياس إلى الاعتراف بأن السفسطائي لا يريد اقتراف الظلم، لكن هذه القصدية الكلية ليست إلا جزءا من قصدية عامة أكبر؛ إذ إن مسعى سقراط من خلالها يتجلى في دفع جورجياس إلى التناقض، وهذه القصدية الكلية بدورها ليست إلا جزء من قصدية أخرى أعم مؤداها أن سقراط (من بين آخرين) يسعى إلى الإبانة عن أن الخطابة ليست نشاطا مرغوبا فيه. يؤشر في الفقرات السابقة من المقطع الحواري إلى القصدية الكلية لجورجياس التي تتحدد في أن البلاغة فن سام، وهو الزعم الذي حاول الدفاع عنه في بقية المحاورة. هكذا فما قاد جورجياس إلى الفشل يتحدد في عدم قدرته على بناء قصدية كلية مفصلة بما يكفي في نظر سقراط، وأن يضع لنفسه فرضيات استباقية.

من الواضح أن الصراع غير متكافئ، لأن سقراط وجورجياس لم يكونا سوى شخصيتين يديرهما أفلاطون في محاورة لا يحترم فيها قانون اللعبة. وبالتالي نجح سقراط بينما أخفق جورجياس، هنا بطبيعة الحال أفلاطون هو من يملك القصدية الكلية، ويسري ذلك على كل المحاورات المتخيلة في الروايات والهزليات والمسرح. وفي كل الحالات يغدو من الضروري بناء قصدية أو عدة قصديات كلية.

ننهي هذا التناول المقتضب لمسائل المحاورات بعامة بمسألة أخيرة: في محاورة عادية تفتقر إلى من يقود زمامها يصعب علينا بناء قصديات كلية بالنسبة إلى مجموع تدخلات كل متكلم على حدة، ولا يتناقض ذلك مع افتراضاتنا، على العكس من ذلك يؤكد الفكرة التي مؤداها أن أحكام الانسجام تقترن بإمكانية بناء قصدية كلية، بينما ينظر عادة إلى الخطابات من نمط المحاورات العادية باعتبارها خطابات أقل انسجاما.

القصدية الموضعية والقصد الإخباري، القصدية الكلية والقصد التواصلي

لقد بلورنا في الفقرات السابقة تصورا لبناء القصدية الكلية في إطار علم نفس العامة، وبعودتنا إلى نظرية الملاءمة نسعى إلى الإبانة إلى أي حد تقترب فرضياتنا من فرضيات سبيربر وويلسون التي لا تنجلي بوضوح إلا في مجال الخطاب.ولإنجاز هذا الأمر، سنبدأ بإبراز العلائق بين مفاهيم من نمط القصدية الموضعية والقصدية الكلية والقصد الموضعي والقصد الكلي والقصد الإخباري والقصد التواصلي. تعود الثنائية الأخيرة إلى سبيربر وويلسون، القصدية الموضعية والقصدية الكلية هي كل قصدية يسندها المخاطب إلى المخاطب المنتج للملفوظ معين أو خطاب محدد بالاحتكام إلى الملفوظ أو الخطاب المنتج. ويمكن بعد ذلك أن نقول تبعا لسبيربر وويلسون (١٩٨٩، ٤٣) إن: "التواصل يقوم على إظهار القصديات والتعرف عليها"، يكون إظهار

القصديات من جهة المتكلم، أما التعرف فمن جهة المخاطب، وبحسب سبيربر وويلسون يتعلق الأمر بقصد تواصلي وبقصد إخباري، وبحسبهما يكون القصد التواصلي للمتكلم متحققا: "عندما يظهر للمرسل إليه والمرسل يحمل قصدا إخباريا"، بينما يتجلى القصد الإخباري للمتكلم بفضل حافز خاص في: "الكشف عن مجموعة من الفرضيات للمخاطب". لنلاحظ أن مصطلح "حافز" الذي استعمله سبيربر وويلسون لا يستلزم أن الأداة التي يستعملها المتكلم لتلبية قصده الإخباري عبارة عن ملفوظ، وليس ذلك مدعاة للاستغراب، بما أنهما اعتبرا أن التداوليات ينبغي أن تسمح بتأويل أي فعل تواصلي من النمط الإشاري- الاستدلالي بما في تلك الحوافز غير اللفظية، هكذا فإن القصد الإخباري والقصد التواصلي وإن كان التعبير عنهما بواسطة الملفوظ يمكن أن يكون كذلك بوسائط أخرى، بما في ذلك بواسطة متواليات غير اعتباطية من الملفوظات أو بواسطة خطابات.

بذلك نستطيع القول إن تعرف المخاطب على مقاصد المتكلم يرتبط ببناء قصدية موضعية أو قصدية كلية، فبقدر حدوث التوافق بين القصدية الموضعية و/ أو القصدية الكلية التي يسندها المخاطب إلى المتكلم والقصد التواصلي للمتكلم من جهة ثم التوافق بين القصد الموضعي و/ أو القصد الكلي والقصد الإخباري للمتكلم من جهة أخرى، فبمقدار حدوث هذه التوافقات يكون نجاح التواصل بهذا القدر أو ذاك. هكذا فالقصدية الموضعية هي ما يشكله المخاطب عن القصد التواصلي للمتكلم من خلال ملفوظه، ويمكن أن يكون صنيعه ناجعا أو غير ناجع، بينما تتحدد القصدية الكلية بما يشكله المخاطب من قصد تواصلي للمتكلم من خلال خطابه.

وعلى المنوال نفسه فالقصد الموضعي هو كل ما يشكله المخاطب عن القصد الإخباري للمتكلم من خلال ملفوظه، بينما القصد الكلي هو ما يشكله المخاطب عن

القصد الإخباري للمتكلم من خلال خطابه. يمكن أن يُعترَض علينا بكون عملية تأويل الخطاب تكتفي ببناء قصد موضعي أو كلي ولسنا بحاجة إلى مفاهيم من قبيل القصدية الموضعية والكلية، غير أنه بتبنينا للإطار النظري لاستراتيجية المؤول الذي يتبناه سبيربر وويلسون يغدو التمييز بين القصدية والقصد ضروريا ولامناص منه، لأنه يسمح من جهة بالحفاظ على التناظر بين القصد التواصلي والقصد الإخباري، ومن جهة أخرى عندما نفترض أن فردا له قصد معين نسند إليه قصدية معينة تناسب ذلك القصد دون أن تختزل فيه. يمكن أن نعتبر قصدا موضعياً أو كليا بمثابة محتوى للقصدية الموضعية أو الكلية. بهذا المعنى تنتمي القصدية إلى مستوى أعلى من وجهة نظر منطقية مقارنة بمفهوم القصد.

وفي الختام، نود العودة إلى التعريف الذي سقنا أعلاه للخطاب:

١ – تعريف الخطاب:

الخطاب هو متوالية غير اعتباطية من الملفوظات.

العبارة التي سنعلق عليها هنا هي عبارة "غير اعتباطية" بالنسبة إلينا إذا كان الخطاب متوالية غير اعتباطية من الملفوظات فلأنه فعل (مجموعة أفعال في حالة المحاورة) تواصلي ذو طبيعة إشارية- استدلالية، وككل فعل تواصلي ذو طبيعة إشارية- استدلالية يقتضي وجود قصدين من جهة المتكلم قصداً تواصلياً وقصداً إخبارياً (سبيربر وويلسون ١٩٨٩)، سنلاحظ أن ذلك لا يجعل من مسألة متوالية الملفوظات تابعة لقدرة المخاطب على إسناد قصدية كلية أو قصدية موضعية للمتكلم مسألة غير ذات معنى. فالخطاب ليس إلا الملفوظ بمنأى عن سوء الفهم وتعريفه غير دائري كما هو شأن التحديد الذي قدمناه حول تأويله.

خاتمة

وفي الختام نريد تأكيد ما لمقاربتنا من مميزات: إنها تجنبنا الأحكام المسبقة غير المقبولة لتحليل الخطابات من وجهة نظر إبستمولوجية، ولا تفترض هذه المقاربة شيئا آخر أقل أو أبعد مما يستلزمه تحليل الملفوظات، إن كل الآليات الموصوفة بالنسبة إلى تأويل الخطاب تتضمنها على كل حال نظريتنا حول تأويل الملفوظات[1]، لم نضف أي شيء يمكن أن يكون خاصا بتأويل الخطابات. لقد سعينا إلى الإبانة عن كون الآليات نفسها يمكن أن تنطبق على قدم المساواة على كل من تأويل الملفوظات وتأويل الخطابات.

سنجيب في النهاية عن اعتراض محتمل لتحليلنا للانسجام، يمكن أن يُعترض به علينا، بكون الانسجام بعيدا عن كونه منتوجا فرعيا لعملية بناء القصدية الكلية، إنه المبدأ الذي يقود عملية البناء تلك. إجابتنا بسيطة: إن تبني هذا الطرح لن يوفر تعريفا لما يمكن أن يكون عليه الانسجام ولا لآليات اشتغاله، فضلا عن ذلك، أظن أننا أوضحنا كيف أن الآليات التي تصوغها نظرية الملاءمة ترصد ذلك البناء. وقد يقول قائل إنه إذا كانت أحكام الانسجام متعلقة بالسهولة التي تبنى بها القصدية الكلية وبمقدار تعقيد تلك القصدية ذاتها، فيجب إذن، أن يَؤُول الانسجام إلى الملاءمة[2]. ذلك غير صحيح لأن تحليلنا لا يقتضي توافقا بين الانسجام والملاءمة، بل إن انسجام

---

(١) إنها تحديدا الآليات نفسها المعتمدة عند سبيربر وويلسون في وصف الملفوظات، ولقد تبنيناها لتوضيح كيفية انطباقها على الخطاب، وذلك بالاحتكام إلى الصيغة التي تنطبق بها على الملفوظات والنتائج التي تفضي إليها.

(٢) لنستحضر إذن، أن الملاءمة تفسر بدلالة كلفة المعالجة والآثار التي ينتجها الملفوظ.

الخطاب نفسه يُقَوم بالنظر إلى ملاءمة ذلك الخطاب، كما أن المبدأ الذي يقود التأويل ليس منبعه مفهوم الانسجام وإنما منبعه مفهوم الملاءمة. ومن هذا المنظور لم نعد بحاجة إلى تعريف الانسجام بمصطلحات الملاءمة، فأحكام الانسجام التي يحملها المتخاطبون متعلقة بملاءمة الخطاب، وهكذا فالانسجام كيفما كان تعريفه، لايبدو لنا أنه قابل للدخول من النافذة، علاوة على أنه مفهوم نافل. أما فيما يخص الخطاب فليست له الخصائص البنيوية التي لطالما أسندت إليه، تلك الخصائص لا ضرورة لها في عملية تحديده. خلاصتنا ستكون في غاية البساطة: يجب أن نكف عن تحليل الخطابات!

المصطلحات الواردة في متن المقالة

Réductionnisme	اختزالية
Stratégie de l'interprète	استراتيجية المؤول
Inférence	الاستنتاج
Cohérence	الانسجام
Analyse du discours	تحليل الخطابات
Pragmatique de pertinence	تداولية الملاءمة
Discours	الخطاب
Forme propositionnelle	صورة قضوية
Hypothèses anticipatoires	الفرضيات الاستباقية
Intentions	القصديات
Intentions locale	القصديات الموضعية
Intention informative	القصد الإخباري
Intention communicative	القصد التواصلي
Intention globale	القصد الكلي
Intention locale	القصد الموضعي
Catégorie naturelle	مقولة طبيعية
Enoncé	الملفوظ
Théorie de pertinence	نظرية الملاءمة

بيبليوغرافيا

- Chomsky, N. (1965): *Aspects of the theory of syntax*, Cambridge, Mass, MIT, Press.
- Dennett, D.C. (1987): *The intentional stance*, Cambridge, Mass, MIT Press.
- Version française (1990): *La stratégie de l'interprète: le sens commun et l'univers quotidien*, Paris, Gallimard.
- Dennett, D.C. (1995): *Darwin's dangerous idea: evolution and the meaning of life*, Londres, Allen Lane/Penguin Books.
- Ducrot, O. (1972): *Dire et ne pas dire*, Paris, Hermann.
- Ducrot, O. (1983): *Les mots du discours*, Paris, Minuit.
- Martinet, A. (1960): *Eléments de linguistique générale*, Paris, Armand Colin.
- Moeschler, J. (1989): *Modélisation du dialogue*, Paris, Hermès.
- Moeschler, J. & Reboul, A. (1984): *Dictionnaire encyclopédique de pragmatique*, Paris, Seuil.
- Pollock, J-Y. (à paraître): *Cognition et langage: introduction au programme minimaliste de la grammaire générative*, Paris, Presses Universitaires de France.
- Reboul, A. (1992): *Rhétorique et stylistique de la fiction*, Nancy, Presses Universitaires de Nancy.
- Reboul, A. (à paraître): "(In) cohérence et anaphore: mythes et réalités", in *Actes du Colloque International "Relations anaphoriques et (in) cohérence"*, 1-3 décembre 1994, Anvers.

- Reboul, A. & Moeschler, J. (1995): “Le dialogue n’est pas une catégorie naturelle scientifiquement pertinente”, in *Cahiers de Linguistique française 17*.
- Reboul, A. & Moeschler, J. (en préparation): *Contre l’analyse de discours: la construction d’un sens commun*.
- Sayers, D.L. (1970): *Clouds of witness*, Londres, New English Library.
- Searle, J.R. (1995): *La redécouverte de l’esprit*, Paris, Gallimard.
- Smith, B. & Casati, R. (1993): “La physique naïve: un essai d’ontologie”, in *Intellectica 17/2*, 173-197.
- Sperber, D. & Wilson, D. (1986): *Relevance: Communication and Cognition*, Oxford, Basil Blackwell. Version française (1989): *La Pertinence!: Communication et Cognition*, Paris, Minuit.

١٧- عتيق، عبد العزيز. علم البيان . دار النهضة: بيروت. (١٩٨٥م)

١٨- العلوي اليمني (٧٥١ هـ). الطراز. دار الكتب. (د. ت)

١٩- غزالة، حسن. "أساليب المستشرقين في ترجمة معاني القرآن الكريم". بحث غير منشور قُدم في ندوة: القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية. تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ومجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، في ٧-٩/ ١١/ ٢٠٠٦م

٢٠- القزويني (٧٣٩هـ). الإيضاح في علوم البلاغة. دار الجيل: بيروت. (د. ت)

٢١- الميداني، عبد الرحمن حبنكة. البلاغة العربية. جزءان. دار القلم: دمشق. (١٩٩٦م)

٢٢- الندوي. ترجمات معاني القرآن الكريم وتطور فهمه عند الغرب. دار الفتح: جدة. (١٩٧٢م)

٤- ابن قتيبة (٢٧٦هـ). أدب الكاتب. مؤسسة العلم: بيروت. (د. ت)

٥- ابن قتيبة (٢٧٦هـ). تأويل مشكل القرآن. تحقيق أحمد صقر. المكتبة العلمية: بيروت. (١٩٨١م)

٦- ابن المعتز (٢٩٦هـ). البديع . تحقيق الخفاجي. دار الحكمة: دمشق. (د. ت).

٧- ابن منظور. لسان العرب. دار الفكر: بيروت. (د. ت)

٨- أبو موسى. التصوير البياني. مكتبة وهبة: القاهرة. (١٩٩٣م)

٩- الجاحظ (٢٥٥هـ). البيان و التبيين. ثلاثة أجزاء. دار الكتب العلمية: بيروت. (د. ت)

١٠- الجرجاني، عبد القاهر (٤٧٤هـ). أسرار البلاغة. تحقيق محمود شاكر. دار المدني للنشر: جدة. (١٩٩١م أ)

١١- الجرجاني، عبد القاهر. (٤٧٤هـ). دلائل الإعجاز في علم المعاني .تحقيق محمود شاكر. دار المدني للنشر: جدة. (١٩٩١م ب)

١٢- الرازي (٦٠٦هـ). نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. القاهرة. (١٣٢٧ هـ)

١٣- الزمخشري (٥٣٨هـ). أساس البلاغة. تحقيق الأستاذ محمود. دار المعرفة: بيروت. (د. ت)

١٤- السكاكي (٦٢٦هـ). مفتاح العلوم. تحقيق نعيم زرزور. دار الكتب العلمية: بيروت. (١٩٧٣م)

١٥- الصابوني. صفوة التفاسير. دار القرآن الكريم: بيروت. (١٩٨١م)

١٦- الطبري (٣١٠هـ). جامع البيان في تأويل آي القرآن. تحقيق محمود شاكر. دار المعارف: مصر. (١٩٦٨م)

19- Newmark. P. Approaches to Translation. Pergamon Press: Oxford. (1982).

20- Newmark. P. A Textbook of Translation. Pearson Education Limited: England. (1988/2003).

21- Nowottny, W. The Language Poets Use. London. (1965).

22- Qidawi, A. "A Survey of English Translations of The Glorious Qur'an. In The Muslim World League Journal. (1990). Vol. 18, Nos. 5&6.

23- Richards, I. A. The philosophy of Rhetoric. Oxford University Press. New York. (1936).

24- Sanaullah, M. "English Translations of The Holy Qur'an". In Radiance. (1988). Feb.: 21-27.

25- Searle, J. R. Expression and Meaning. Cambridge University Press. Cambridge. (1979).

26- Shibles, w. An Analysis of Metaphor in The Light of W. M. Urban's Theories. Mouton. The Hague. (1971).

27- Ullman, S. The Principles Of Semantics. Glasgow. Oxford. (1951, 1976).

المراجع العربية:

١ - القرآن الكريم.

٢- ابن الأثير (٦٣٧هـ). المثل السائر. تحقيق محمد عبد الحميد. دار البابلي الحلبي للنشر: مصر. (١٩٣٩م)

٣- ابن جعفر (٣٣٧هـ). نقد الشعر. تحقيق الأستاذ مصطفى. الخانجي للنشر. (د. ت)

10- Ereksoussi, Z. "Al-Jurjani's Semantico-Pragmatic Theory of Metaphor and Its Implications for Translations". In CDELT Occasional Papers. (2008). Vol. 45, June: 122-185. Ain Shams University: Cairo.

11- Ghazala, H. Translation as Problems and Solutions. ELGA Publication: Malta. (1995).

12- Ghazala, H. Metaphor Conceptualization and Ideologization: a Cognitive Stylistic Perspective. Forthcoming (2014).

13- Grice, H. P. "Logic and Conversation". In Jawrski, A & Coupland, N. (Eds.), The Discourse Reader. (76-88). Routledge: London. (1975, 1999).

14- Ibn Katheer, I. Tafsir Ibn Kathir. Ten Vols. Abridged by a group of scholars under the supervision of Al-Mubarakpuri. Darussalam: Riyadh. (2000).

15- Kertesz, A. Cognitive Semantics and Scientific Knowledge. John Benjamins: Amsterdam/ Philadelphia. (2004).

16- Lakoff, G. "The Contemporary Theory of Metaphor". In A. Ortony (Ed.) Metaphor and Thought. (202-251). Cambridge University Press: Cambridge. (1993).

17- Lane, E. An Arabic English Lexicon. (8 vols.) Librairie Du Liban: Beirut. (1980).

18- Leech, G. A Linguistic Guide To English Poetry. Longman Group Ltd.: London. (1985).

English References:

1- Ali, A. The Holy Qur`an: English Translation of The Meanings and Commentary. King Fahd Holy Qur`an Printing Complex: Al-Madinah Al-Munawwarah. (1991).

2- Al-Sheikh, A. "A Study of Two Major Translations of The Holy Qur'an (The Last Section) A Linguistic Study". Unpublished Ph.D. Thesis. Alexanderia University: Alexanderia (1990).

3- Arberry, A. The Koran Interpreted. George Allen & Unwin Publishers. London. (1955).

4- Aristotle. Poetics. Trans. By I. Baywater. Oxford. (1946).

5- Az-Zahri, M. "Metaphor and Translation”. Unpublished Ph. D. Thesis. University of Salford: U. K. (1990).

6- Black, M. Models and Metaphors. Cornell University Press. Ithaca. (1962).

7- Cicero. De Oratore. Trans. By E.W. Sutton and H. Rackham. 2 Vols. Loeb Classical Library: London. (1942).

8- El-Hakkouni, A. "Al-Jurjani’s Theory of Ma<na Al-Ma<na”. In Langues et Litteratures. (1995). Vol. Xiii: 121-146. Publications of The Faculty of Letters: Rabat.

9- Ereksoussi, Z. "A Pragmatic Study of Some Problem Areas in Translating Arabic Metaphors into English: Focusing on Three Translations of The Holy Qur'an". Unpublished Ph.D Thesis. Mohammed V University: Rabat. (2003).

and only unusually used in association with "sleeping people", whereas the verb "roused" is used only in collocation with "sleeping people" like the Arabic verb (أيقظ). Finally, all authoritative commentaries available to me interpret the original verb (بعث) as meaning "raised to life".

Notes and Comments:

1 Since these theories appeared before the invention of print, the date of the death of the author will be given, preceded by the letter (d), after its first mention in order to give the reader an idea about the work's approximate date of appearance. In subsequent quotes of the same author, however, the publishing date will be given for ease of reference.

2 These are merely names of people here.

3 In a conceptual metaphor, the source domain is that from which we draw metaphorical expressions, such as 'journey' in (love is a journey), and the target domain is that which we try to understand, i.e.,' love' in the same example.

4 The images discussed here are not claimed to constitute metaphors. Rather, they are metonymies. Yet whatever is said in relation to those figures of speech apply to all others. This is because Al-Jurjani's discussion is not limited to metaphor. It is intended to be general enough to include all types of texts.

5 It should be mentioned here that translation practice preceded translation theory, and the translations chosen were done before the appearance of the different approaches to translation. Yet, they can still be described as representing this or that approach if the main lines of an approach is traceable in them.

6 It should be noted, however, that the meaning chosen to be reproduced in Arberry's translation is linguistically justifiable since the original verb (بعث), according to Ibn Manzoor (n. d., Vol. 2, p. 117) and Lane (1980, Vol. 1, p. 223), could, in one of its unusual uses, mean "roused". However, translating it into 'raised' is more accurate for a number of reasons. First, the original verb (بعث) is commonly used to mean "raised to life". Moreover, the verb "raised" is equivalent to the original verb (بعث) in its being a common collocation with the "dead",

perfect, is never the Qur'an, and therefore, a number of versions can exist.

b. Making sure that a translation reproduces the same metaphor whenever possible.

c. Making sure that where the most preferable strategy is blocked, only the two other accepted strategies that reproduce at least part of the original message are used.

d. Making sure that compensation strategies are used to supplement for any inevitable meaning loss in a translation.

e. The committee may be set up every ten years or so to re-revise the available translations in light of the new discoveries in the fields of linguistics and translation in order to keep the recommended translations authoritative not only in terms of intuition but also in terms of sound scientific findings.

7. Currently, neither Arberry's nor Ali's translation of the Qur'anic metaphors can be recommended because both are in need of serious revision.
8. Yet, each of the two chosen translations excels on a different ground. On the one hand, Arberry's translation is outstanding in terms of reproducing the same metaphor whenever possible. On the other hand, Ali's translation excels in terms of its use of only those preferable strategies that reproduce at least part of the original message. However, both fail in terms of using compensation strategies to supplement for the inevitable meaning loss in metaphor translation. Therefore, it is recommended that a panel or committee involving commentators, translators and native specialists in English and Arabic languages be set up for the purpose of seriously revising the available translations. Their duties in relation to metaphor translation may include the following:
   a. Selecting the best from each translation and putting them all in one translation to be recommended later, or correcting a number of translations in order to have a number of recommended translations in order to give people the impression that a translation, however

Theoretically speaking, in cases where the most appropriate strategy cannot be used, communicative translators should opt for the reduction of metaphor to sense whereas semantic translators should opt for the substitution of metaphor by its simile paraphrase.

4. In practice, however, reducing metaphor to sense is the strategy that comes next in its frequency of use to the ideal one regardless of the approach adhered to in a translation.
5. All other translation procedures are not preferable when translating holy texts because they do not reproduce the original meanings appropriately. Moreover, they may produce new unintended meanings.
6. The mistranslation of a metaphor may be caused by a number of reasons: (a) the translator's wrong choices of words and structures, (b) the unfamiliarity of the metaphor itself within the TL culture, and (c) the difficulty in deciding on the different meanings of a metaphor, particularly when translating into English where the theories of metaphor have not yet reached a consensus on what constitutes a metaphor as distinct from other figures of speech.

In sum, the linguistic analysis of the types of meaning produced in the original metaphors as compared to the ones produced in their translations proves that out of the six different strategies that are actually used in practice for the translation of holy metaphoric texts, there are only three appropriate ones and these correspond to the three theoretically accepted strategies.

4. General Findings and Recommendations

1. In translating holy metaphoric texts, the most appropriate strategy is the production of the same metaphor in the TL provided that it enjoys the same familiarity in the TL culture. This is because any change in form would lead to a change in the meaning configuration.
2. The other two accepted but less preferred strategies are the substitution of a metaphor by its simile paraphrase or by its sense. This is because, in both, part of the original meaning is reproduced. Yet, they should be resorted to only when the production of the same metaphor is blocked, and they should be accompanied by the use of compensation strategies such as the use of footnotes or of bracketed explanatory insertions.
3. Each of these two less preferred strategies is connected to a different translation approach.

or the sense of the original is indirectly rendered by both of these strategies.

Moreover, although both translators use footnotes and inserted explanations, neither uses them to supplement for the meaning lost in metaphor translation. It is evident from the examples studied that their use is mandatory, especially in metaphors that express cultural specific meanings. In example number 15, for instance, the metaphoric meaning in (Soon shall we be free to judge you) will not be perceived if the translator is not aware of the fact that in the Islamic culture, nothing occupies Allah. He can do as many things as He likes without being occupied by any. For Him, any task, no matter how great is only a matter of a "Be" and it is. Without this piece of information, one can not perceive the hidden similitude between the act of Allah towards humans and Jinn on the day of Reckoning and that of someone who has devoted himself exclusively to judge someone else's wrongdoing to him. This is to show how severe and fearful the judgment action is. Therefore, this piece of information must be hinted in a footnote. Furthermore, some of Yusuf Ali's insertions and all of Arberry's insertions are not bracketed which makes it look as part of the original holy text, and therefore, they must be corrected.

translation that constitutes a better alternative especially if appended by a note explaining the cultural specific meaning derived from personifying the wall, and concluded by Ibn Katheer above. This is because, at least, the suggested translation reproduces the sense of the metaphor as explained by the prophet peace be upon him.

The previous tables show clearly that, in practice, where the most preferred strategy is not used, any other strategy can be chosen and not only the two theoretically accepted ones, namely the substitution of a metaphor by its simile paraphrase or its reduction to sense. In fact, Yusuf Ali adhered more than Arberry to the use of accepted strategies. Only in one case out of the sixteen studied cases that he deleted the metaphor altogether; and we explained above that he might not have perceived the metaphor there in the first place. His consistent use of only the strategies that produce the utterance' meaning can be attributed to his adherence to the semantic approach in translation, where the rendering of the meanings necessitated by the utterance itself is a priority. Arberry's use of strategies such as the production of a different TL metaphor or the production of an extension metaphor, on the other hand, can be attributed to his communicative stance because the Speaker's purpose

substitute for "graves" in order to imply that death is similar to sleep, but Arberry[6] borrowed "roused" to substitute for "raised" in order to imply that rousing from sleep is similar to raising from death. Clearly, if the similarity between rousing from sleep and raising from death is familiar in any culture, then the similarity between death and sleep must be familiar too.

Finally, to our surprise, the deletion of metaphor, which involves no translation at all, was used once by each translator. But we think that they did so because of a number of reasons. First, the translators might not have perceived the metaphor in the first place because neither of them is an Arab. Arberry is English and Yusuf Ali is Indian. Second, the metaphor itself is unfamiliar. Ibn Katheer (2000, Vol. 6, p. 188) quoted a Hadith in which the prophet was asked by the early companions about the meaning of (يريد أن ينقض), literally (seeking to fall down), the prophet replied (مائلا), i.e., (bending or tilted). Ibn Katheer concludes that this implies that intending to do something is the first step in doing it. Third, the reproduction of the same metaphor here is not possible. In English, the expression "a wall that wants to fall down" is odd. Therefore, the translators were obliged to avoid such an odd translation. However, "There they found a tilted wall about to fall down, and so he repaired it" is a

by a different TL metaphor that shares the same sense of the original, it is evident that Arberry uses both because in both the sense is implied. It seems that he resorts to these procedures because they are more literary, and hence may help reproduce the grandeur of the original. Unfortunately, since the text is holy and is highly authoritative, their implementation did more harm than good to the translation; they add meanings that are not intended by the original text. In translating metaphor number 8, for example, the original metaphor personifies anger by using the word (became silent) with it, but the translator uses the word (abated) which is usually used with winds and storms, and hence produced a different metaphor that adds some unintended meanings to the translation. Clearly, the addition of some meanings is worse than the omission of some because the latter is unavoidable at times whereas the former can easily be avoided. Ali, in contrast to Arberry, succeeded in avoiding these strategies completely in his translation. Similarly, substituting a metaphor by its extension is not justifiable simply because if an extension image is possible in any culture, the original metaphor must be possible as well. Therefore, there is no need to resort to an extension metaphor in the first place, especially while translating sacred texts. In example number 13, for example, the "place of sleeping" is borrowed to

and its conversion to simile, the former is more widely used by both of the translators; a matter which is justified and expected in Arberry's translation but not in Ali's. Arberry's translation is communicative and thus the production of the intention of the speaker which is the sense is a priority. This also explains Arberry's resort to the production of an extension metaphor as well as the production of a different metaphor because in both the sense of the original metaphor is reproduced in an implied manner. It also explains the reason why he avoids the conversion of metaphor to simile because in such a conversion only the content which is the utterance meaning is reproduced. However, since content is a priority in semantic translations such as Ali's, we expect him to convert metaphor to simile more often. Unfortunately, he does that only once. Moreover, he reduced metaphor to sense more often than Arberry. The only possible explanation of this heavy use of the reduction of metaphor to sense by Ali is Grice's (1999, p. 76-88) communication maxims, and in particular that of brevity which states that interlocutors usually express their intentions in the shortest manner; and the shortest in metaphor translation is the production of its sense only.

As for the fourth and fifth translation strategies, namely substituting a metaphor by an extension of it or

Table (1) shows that the reproduction of the same metaphor, reducing it to sense, converting it to simile, producing an extension metaphor, producing a different metaphor, and deleting metaphor are the actual procedures of metaphor translation that are used in practice.

Table (2) shows their frequency of use in each of the translations. Such a frequency tells clearly that the highest tendency in both translations is to use the most preferred translation procedure. This is no wonder since it is the procedure that best reproduces the meaning of the original metaphor. Yet, unfortunately, it is not used whenever possible. In translating a holy text like the Qur'an, one should stick to this ideal procedure whenever possible. In thirteen out of the sixteen examples under study, the reproduction of the same metaphor is possible, and at least one of the translators produced it in those thirteen cases, but both of the translators failed to use it wherever it can be applied. Arberry used it in ten out of the thirteen possible times whereas Yusuf Ali used it nine times only. The percentage of adherence to the use of the most preferable strategy whenever possible is 76.92% by Arberry, and 69.23% by Ali.

Of the two other accepted procedures to metaphor translation, namely the reduction of metaphor to sense

	Reproduction of the same metaphor	"Why, is he who was dead, and We gave him life"
	Reproduction of the same metaphor	"Can he who was dead, to whom We gave life"
15		"سنفرغ لكم أيها الثقلان" الرحمن: ٣١
	Reduction to sense	"We shall surely attend to you at leisure, you weight and you weight"
	Reduction to sense	"Soon shall we settle your affairs O both ye worlds"
16		"فانك لا تسمع الموتى" الروم: ٥٢
	Reproduction of the same metaphor	"Thou shalt not make the dead to hear"
	Reproduction of the same metaphor	"So verily thou canst not make the dead to hear"

Table 2: The Frequency of Use of Each Translation Procedure in Each of the Translations

No.	1	2	3	4	5	6
Metaphor translation procedures	Reproduction of the same metaphor	Reduction to sense	Conversion to simile	Production of an extension metaphor	Production of a different metaphor	Deletion of metaphor
Frequency of use by Arberry	10	2	0	2	1	1
Percentage	62.5%	12.5%	0	12.5%	6.25%	6.25%
Frequency of use by Ali	9	5	1	0	0	1
Percentage	56.25%	31.25%	6.25%	0	0	6.25%
Total	19	7	1	2	1	2
Average of use	59.37%	21.87%	3.12%	6.25%	3.12%	6.25%

	Reproduction of the same metaphor	"And well-nigh (it) bursts asunder with rage"
	Reproduction of the same metaphor	"Almost bursting with fury"
10		"وأحيينا به بلدة ميتاً" ق: ١١
	Production of an extension of the original metaphor	"And thereby we revived a land that was dead"
	Reproduction of the same metaphor	"And we give (new) life therewith to land that is dead"
11		"فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه" الكهف: ٧٧
	Deletion of metaphor	"There they found a wall about to tumble down, and so he set it up"
	Deletion of metaphor	"They found there a wall on the point of falling down, but he set it up straight"
12		"و آية لهم الأرض الميتة أحييناها" يس: ٣٣
	Reproduction of the same metaphor	"And a sign for them is the dead land, that We quickened"
	Reproduction of the same metaphor	"A sign for them is the earth that is dead: We do give it life"
13		"من بعثنا من مرقدنا" يس: ٥٢
	Production of an extension of the original metaphor	"Who roused us out of our sleeping place?"
	Reproduction of the same metaphor	"Who has raised us up from our beds of repose"
14		"أومن كان ميتا فأحييناه" الأنعام: ١٢٢

5		"فنبذوه وراء ظهورهم" آل عمران: ١٨٧
	Reduction to sense	"But they rejected it behind their backs"
	Reproduction of the same metaphor	"But they threw it away behind their backs"
6		"ختم الله على قلوبهم و على سمعهم و على أبصارهم غشاوة" البقرة: ٧
	Reproduction of the same metaphor	"God has set a seal on their hearts and on their hearing, and on their eyes is a covering"
	Reproduction of the same metaphor	"Allah has set a seal on their hearts and on their hearing. And on their eyes is a veil"
7		"و الشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون" الشعراء: ٢٤-٢٥
	Reproduction of the same metaphor	"And the poets-the perverse follow them; hast thou not seen how they wander in every valley"
	Reproduction of the same metaphor	"And the poets, it is those straying in evil who follow them: Seest thou not that they wander distracted in every valley?"
8		"و لما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح" الأعراف: ١٥٤
	Production of a different metaphor	"And when Moses' anger abated in him, he took the tablets"
	Reduction to sense	"When the anger of Moses was appeased, he took up the tablets"
9		"تكاد تميز من الغيظ" الملك: ٨

Table 1: Metaphor translation procedures used in Arberry's and in Ali's translations of the holy Qur'an respectively

No.	Translation procedures used	Original metaphors followed by Translations of Arberry, and Ali, respectively
1		"و اشتعل الرأس شيباً" مريم: ٤
	Reproduction of the same metaphor	"My head is all aflame with hoariness"
	Reduction to sense	"And the hair of my head doth glisten with grey"
2		"وآية لهم الليل نسلخ منه النهار" يس: ٣٧
	Reproduction of the same metaphor	"And a sign for them is the night; we strip it of the day"
	Reduction to sense	"And a sign for them is the night: We withdraw therefrom the day"
3		"و تركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض" الكهف: ٩٩
	Reproduction of the same metaphor	"Upon that day We shall leave them surging on one another"
	Conversion to simile	"On that day We shall leave them to surge like waves on one another"
4		"و قطعناهم في الأرض أمماً" الأعراف: ١٦٨
	Reproduction of the same metaphor	"And we cut them up into nations in the earth"
	Reduction to sense	"We broke them up into sections on this earth"

Ta'weel Al-Qur'an (Al-Tabari, 1968), and Safwat Al-Tafaseer (Al-Sabouni, 1981). In fact, the analysis of these metaphors and their corresponding translations was done in an earlier study of ours (Ereksoussi, 2003, p. 218-345), which aimed at finding out the problematic areas in metaphor translation and their possible solutions, but that same analysis can help us in finding out the different actual translation procedures used in each translation. The following table lists the chosen metaphors, their different translations, and the procedure or translation strategy used in each translation.

one of the four types of metaphor as classified by Al-Sakkaki in his Miftah (1973, p. 388). The translations of these metaphors by Arberry (1955) and by Abdullah Yusuf Ali (1991) were chosen for analysis because of two main reasons:

1. None of these two translations is known for its deliberate inclusion of translation deviations or mistakes that usually render the translators' own beliefs which discussion is outside the scope of this research. In fact, a number of Muslim scholars complement the relative objectivity of these two translations. Of these scholars, one might mention Sanaullah (1988), Quidawi (1990), and Al-Nadawi (1972).
2. These two translations represent the two different approaches to translation[5]. Arberry's translation is known to be communicative (Al-Sheikh, 1990) whereas Yusuf Ali's translation is known to be semantic (AL-Nadawi, 1972). This difference in the approach adhered to in a translation helps in finding out whether the theoretical order of preference among the different metaphor translation strategies obtains in practice or not.

The meaning of each metaphor was determined in accordance with famous exegesis such as Tafsir Ibn Katheer (Ibn Katheer, 2000), Jami' Al-Bayan fi

meanings from it, if not worse. This is because a meaning loss can be unavoidable, and hence justifiable whereas meaning additions cannot be so especially when translating metaphor since it is possible to give the sense directly with no additions.

In a nutshell, one can say that where the ideal translation strategy is blocked while translating Qur'anic metaphors, only two other strategies are accepted, namely converting the metaphor to simile retaining the same image or reducing it to sense. In practice, both of these less preferable strategies are equal alternatives because both retain some meaning constituents but sacrifice others. However, each is justifiable in terms of the priorities of a different translation approach.

3. Metaphor Translation Strategies Used in Qur'an Translations

After surveying the theoretically postulated strategies, we surveyed the actually used ones in different translations of the holy Qur'an in order to find out whether or not theory and practice do correspond to one another, whether or not there are any other strategies for metaphor translation, and whether or not the actual practical order of preference is identical to the theoretical one. Sixteen different Qur'anic metaphors were chosen: each four of them represent

semantic translators. In communicative translation, on the other hand, precedence is given to force (Newmark, 1982, p. 39); therefore, converting metaphor to sense is the strategy that best suits the purpose of communicative translators. Accordingly, semantic translators would translate Al-Jurjani's example "I saw a lion" into "I saw a man who is like a lion in bravery"; whereas communicative translators would opt for "I saw a brave man".

Although in each, a meaning constituent is reproduced, yet both involve some meaning loss. Therefore, if the text is authoritative, like the Qur'an, one should not hesitate to make up for any unavoidable meaning loss by employing the previously mentioned compensation strategies, namely the use of notes and of bracketed insertions.

As for the fourth translation strategy, where the SL image is replaced by a standard TL image that gives the same general sense of the original metaphor, it is evident that despite the fact that free translators, who give precedence to form over other constituents of a message, might opt for it, such a strategy does not suit authoritative sacred texts like the Qur'an because it would add meanings that are not intended in the original text. Clearly, adding unintended meanings to a sacred text is as harmful as deleting some intended

strategies because they know that translation is always a matter of more or less since languages differ in their cultural images and in the semantic range of each word. Therefore, our next question is: where the ideal strategy is blocked for some cultural or linguistic peculiarities, is there an order of preference obtaining among the less preferred strategies?

In a previous study of mine (Ereksoussi, 2008, p. 177-178), it was evident that the choice of any one of the less preferable strategies to the exclusion of others is readily explicable in terms of the translation approach adhered to in a translation. All translation approaches are, in the main, similar, in that they all aim at the reproduction of the three constituents of a message, namely form, content, and force. This is why all approaches to translation consider the reproduction of the same metaphor in the TL the best strategy since it is the one that reproduces all constituents of a message. However, where translation problems arise, the approaches to translation differ one from the other mainly in the emphasis given to each of the three constituents of a message. In semantic translation, where focus is on the reproduction of an equivalent content of the original message (Newmark, 1982, p. 22), the translation of a metaphor by simile retaining the same image is the strategy that reproduces the utterance meaning, and hence best suits the purpose of

closer examination of these strategies reveals that they are merely different combinations of the four basic strategies suggested by Al-Jurjani, or combinations of these strategies with what we shall call the 'compensation strategies'. The 'compensation strategies' are the strategies used by the translator to compensate for any unavoidable translation loss necessitated by linguistic or cultural peculiarities of either the SL or the TL. As can be inferred from Az-Zahri's strategies, the only two compensation strategies available to the translator of authoritative texts, such as the Qur'an, are either to add a footnote or to add an explanatory phrase in the main text of the translation, with the proviso that such explanatory inserted additions are enclosed in brackets in order for them to be distinguished from the content of the original holy message.

In a nutshell, it is clear that translation theorists as well as meaning theorists agree that the best way to render a metaphor is to reproduce the same metaphor in the TL, but they differ in putting the other translation strategies in an order of preference. On the one hand, those concerned with meaning, such as Al-Jurjani, would reject all other translation strategies since the implementation of any is bound to produce some loss of meaning. Translation theorists, on the other hand, propose the use of the other translation

the TL. The other alternatives, namely strategies number 2, 3, and 5 are equal to Al-Jurjani's three other basic strategies, i.e., converting metaphor to its simile paraphrase, or to its plain sense expressed either literally or indirectly by being implied in some TL standard metaphor. As for strategies number 4 and 7, each is a combination of some two of the four basic strategies suggested earlier by Al-Jurjani. The only new procedure or translation strategy, here, is the deletion of metaphor which cannot be accepted since it involves no translation at all.

Ghazala (1995, p. 155) also gives precedence to the reproduction of the same image, especially when translating holy texts where meaning is sacred (Ghazala, 2006). The only other method acceptable to him is the reproduction of the sense of a metaphor. His list of metaphor translation strategies does not include translation by simile. This is perhaps due to his communicative stance. He (1995, p. 162) contends that "The best translation is always to translate a metaphor with a metaphor or else the meaning." By 'meaning' he (1995, p. 162) refers to "The meaning we understand from any metaphorical expression, not the meaning of its individual words."

Az-Zahri (1990, p. 337-343) proposed eighteen strategies for the translation of metaphor. However, a

On surveying English scholarships on the topic, we found that Shibles (1971) gives exactly the first three translation procedures given by Al- Jurjani. Moreover, similar to Al-Jurjani, he also contends that the best translation procedure is to produce the same metaphor in the TL.

Newmark (1982, p. 88-91), on the other hand, postulates seven strategies for metaphor translation, and puts them in the following order of preference:

1. The production of the same metaphor or image in the TL (provided that the image has comparable frequency and currency in the appropriate register).
2. The production of a different TL metaphor that shares the general sense with the original (i.e., replacing the image with a standard TL image).
3. The conversion of metaphor to simile, retaining the same image.
4. The conversion of metaphor to simile combined with its general sense.
5. The reduction of metaphor to sense.
6. Deletion of metaphor.
7. The reproduction of the same metaphor combined with its sense.

Obviously, similar to Al-Jurjani, Newmark's first preference is the production of the same metaphor in

weak and thin" cannot be equal although both are intended as descriptions of hospitality. The first suggests, by implication, that the man, who owns the dog, receives guests so often that his dog does not bark any more at anyone approaching his tent, whereas the second implies that the owner of the camels slaughters them for his guests, and since he is so frequently visited, none of his young cattle members enjoy the time when to become strong and fat. In terms of the different types of meaning that we have discussed above, we can say that Al-Jurjani rejects this strategy because the two images share only the general sense, i.e., only the possibly intended meaning, but differ in all other types of meaning both direct and indirect.

In short, according to Al-Jurjani, the only accepted translation strategy is the production of the same metaphor in the TL. The other three translation strategies, namely the reduction of metaphor to sense, the conversion of metaphor to simile, and the production of a different TL metaphor, all involve some meaning loss. Moreover, the last one involves also the addition of new meanings that are not intended in the SL text; a matter which makes it worse than the other two, especially in translating holy texts where accuracy is required.

man who is like a lion in bravery). Al-Jurjani (1991a, p. 322) criticizes this translation as well because it mentions both entities, i.e., the man and the lion, clearly; therefore, the receiver here can only see a man who is like a lion in bravery but never a man in a lion's image. In this translation, the exaggeration effect, where both man and lion become one in bravery, is lost, and hence all the possibly intended meanings based on it are lost too. Al-Jurjani notes (1991b, p. 364) that any change in form results in a change in meaning.

According to Al-Jurjani, the best way to translate a metaphor is by giving the same metaphor in the target language. He (1991b, p. 265) points out that if you translate (I saw a lion) into (I met a predatory animal), the translation is correct because it gives the same similizing act, the same exaggeration act, and hence the same meaning image. Since all the necessary meanings of meaning are produced, all their possible implications have become possible too.

However, substituting a SL image by some TL image that is derived from a different simile that shares only the same general sense with the original one is not accepted. AL-Jurjani (1991b, p. 312) says that images[4] such as "Your dog is kinder than others in its behavior with guests"; and "My young camels are all

involves a transfer of meaning from one language to another, and hence the way we conceptualize the meaning under translation determines the translation procedure that best reproduces it.

Thus, semanticists who believe metaphor to be merely a name transfer would translate metaphor by its sense only without mentioning the name of the entity from which the sense is borrowed (Al Musta'ar minhu). In other words, they would translate (I saw a lion) into (I saw a brave man), without mentioning the word lion at all. Al-Jurjani (1991a, p. 35-36) comments that if a translator chooses to do so, "He is not translating the metaphoric utterance; rather, he is giving his own utterance." This is because the translator has not translated the lion image at all. He merely confined himself to giving the general sense of the utterance. Moreover, as is clear from Al-Jurjani's discussion of some other examples (1991b, p. 304-305), such a translation could imply that the words (lion) and (brave) are synonyms which is plainly false. Furthermore, all the indirect meanings, both the necessary and the possible ones that are derived from seeing a man in a lion's image are lost.

The second group of semanticists who believe metaphor to be a compressed simile, i.e., a simile with no particles, would translate (I saw a lion) into (I saw a

4. Metaphors representing concrete entities in terms of some abstract ones as in:

Mercy angels. (Angels are abstract whereas nurses are concrete).

It is evident that, in contrast to Leech's classification of metaphor, Al-Sakkaki's provides for all and only the four types of possible directionalities in perception. It is also worth noting here that contemporary English scholars still believe in the unidirectionality of perception. Lakoff (1993) emphasizes the principle that abstract concepts are understood in terms of concrete processes. Similarly, Kertesz (2004) makes it clear that "In a conceptual metaphor, … unlike the source domain[3], which is concrete and based on sensory experience, the target domain is abstract." As a result, in order to cover all possible types of metaphor, the selection of metaphors chosen for analysis in this study is made in light of Al-Sakkaki's classification of the directionality of shifts in metaphor perception.

2. Metaphor Translation Procedures: a Theoretical Perspective

While explaining the different kinds of meanings involved in metaphor and their equivalences theoretically, AL-Jurjani implies metaphor's different possible translation procedures. In fact, translation

else by means of exaggerating the similarity point between the two, as in: I saw a lion at the battle". Implicit metaphor, on the other hand, conveys the meaning configuration of "Attributing a trait to some object that does not really possess it by means of exaggerating the similarity point between the two objects or entities involved, as in: the situation tells…" (Al-Sakkaki, 1973, p. 384).

Al-Sakkaki (1973, p. 388) also classifies metaphor into four different types in terms of the directionality in perceiving metaphoric images:

1. Metaphors representing concrete entities in terms of some other concrete ones as in:

The horse flew. (Both flying and running are concrete, i.e., sensory perceived).

2. Metaphors representing abstract entities in terms of some other abstract ones as in:

He faced death in fulfilling his dream. (Both the hardships of death and those one faces in fulfilling a life goal are abstract, i.e., sensibly or intellectually perceived).

3. Metaphors representing abstract entities in terms of some concrete ones as in:

The dark ages. (Darkness is concrete while ignorance is abstract).

better than the traditional ones, they still suffer from a number of drawbacks as compared with the Arabic typologies. First, most of their illustrative examples are still similes and not metaphors. Examples are primary conceptual metaphors (Purposes are destinations), complex conceptual metaphors (A purposeful life is a journey), complex metaphors (The world is a small village), and simple metaphors (My lawyer is a shark), and the like. Second, some of the types, such as "political metaphors" and "culturally sensitive metaphors" are not classified in terms of cognitive conceptualization. Furthermore, because of this absence of a unifying theme of classification, some suggested types might be identical to one another, but they are designated different terms only because they are suggested by different authors. Therefore, I will not implement any of these classifications in this study.

In contrast to Western classifications of metaphor, Arabic classifications are very precise and clear cut. In Arabic scholarships, Al-Sakkaki (1973, p. 373) distinguishes between explicit and implicit metaphor. The difference between the two is a structural one. In explicit metaphor or Al-Isti'ara Al-Tasrihiya, the entity mentioned is the one similized to whereas in implicit metaphor or Al-Isti'ara Al-Makniyah, it is the one similized. Thus, explicit metaphor conveys the meaning configuration of "Making a thing something

metaphors, where a human characteristic is assigned to inanimate objects (His manners speak eloquently of him); (b) animistic metaphors, where animate characteristics are attributed to the inanimate (The shoulder of the hill); (c) abstract to concrete shifting metaphors, where a material or physical characteristic is assigned to an abstract concept (The light of learning); (d) the synesthetic metaphor, where experiences of one sense are described in terms of some other sense (Warm color). It is clear that similar to Newmark's typology, Leech's typology also suffers from the absence of clear cut boundaries between the different proposed types. In fact, Leech himself (1985, p. 158) points out that "Categories (a), (b), and (c), overlap because humanity entails animacy, and animacy entails concreteness." Moreover, Leech's classification is based on two unrelated criteria. The first is concerned with personification versus animalization, whereas the second is concerned with concrete/abstract shifting.

Ghazala (2014, forthcoming) points out that a better alternative to these traditional typologies is the contemporary typologies of conceptual metaphors "Put forward in terms of cognitive conceptualization in the first place," and he gave a crude account of eighteen types of metaphor. However, a thorough look at these types reveals that though these new typologies are a bit

"where you mention one of the entities involved in simile while intending the other, claiming that the similized entity has become the one similized-to, and providing a proof on that by asserting to the similized entity one of the prominent features of the similized-to entity."

1.2. Types of Metaphor

In English scholarships, many traditional typologies of metaphor exist. The most common of which is Newmark's (1988/2003, p. 106-113) where he lists the following seven types of metaphor:

1. dead metaphors (foot of a page)
2. cliché metaphors (head over heels in love)
3. standard/stock metaphors (his wife wears the trousers)
4. cultural metaphors (to stir one's stumps (from cricket))
5. adapted metaphors (they hold all the cards)
6. recent metaphors (political transparency)
7. original metaphors (a window of opportunity)

As rightly stated by Ghazala (2014, forthcoming), such classifications are of little use nowadays because of its "superficiality". There is no clear cut boundary between a dead metaphor and a cliché or a stock one, and so on. Leech (1985, p. 158), on the other hand, distinguishes four types of metaphor: (a) humanizing

either hold similarity as the only possible relation in metaphor but fail to distinguish metaphor from simile; or hold similarity to be only one of the possible relations in metaphor; hence, they fail to distinguish it from all other figures of speech. Proponents of the first group are Nowottny (1965) and Grice (1975/1999), whereas proponents of the second group are Richards (1936) and Searle (1979). Moreover, Western pragmatists have never tried to reconcile their findings about meaning with the ones in semantics.

Because of the maturity and comprehensibility of Al-Jurjani's theory of metaphor, it is the one that prevailed in Arabic literature since it appeared. All linguists who came after Al-Jurjani, such as Al-Zamakhshari (d. 538 H), Al-Razi (d. 606 H), Al-Sakkaki (d. 626 H), and Al-Qazwini (d. 739 H), adopted his theory of metaphor, but to them goes the credit for collecting the scattered information about this theory, and the credit for specifying its definitions and divisions because, as mentioned before, Al-Jurjani's main concern was only to prove the inimitability of the Qur'an, and while doing so he had to explain the meanings and the structure of the language of the Qur'an in general. In particular, Al-Sakkaki's definition of metaphor is the one given in most present day books about the subject. Al-Sakkaki (1973, p. 369) points out that metaphor is an utterance

In short, Al-Jurjani could explain what constitutes a metaphor in semantic as well as pragmatic terms, and both explanations go hand in hand and support one another. El-Hakkuoni (1995, p. 122) clarified Al-Jurjani's concept of language as a communication system that aims at conveying to the listener the speaker's communicative purposes in a specific context. According to this view, meanings are the speaker's communicative purposes and they usually build up first in the speaker's psyche (Al-Jurjani, 1991b, p. 405), then he chooses the appropriate words and grammatical structures and relations to convey them (Al-Jurjani, 1991b, 412). In a previous study of mine (Ereksoussi, 2003, p. 53-65), I could deduce from various parts of Al-Jurjani's two major works, Al-Dala'el and Al-Asrar, metaphor encoding as well as decoding procedures, in addition to the role of context, both linguistic and situational, in specifying the direct and indirect meanings.

It is worth noting here that English contemporary pragmatic theories of metaphor do acknowledge the fact that metaphor is a meaning that is not possible in literal terms, but they fail to explain this distinguished meaning. Their suggested decoding procedures always end with a perception of a simile not a metaphor. Examples are Grice (1975/1999), and Searle (1979). This problem is due to the fact that Western linguists

subject of truth analysis because they cannot be true or false in themselves. According to Arab scholars, only those necessary meanings that are evidenced by something in the utterance itself are the ones that can be designated as true or false (Al-Maidani, 1996, Vol. 1, p. 171-172). Moreover, not all of the necessary meanings are the subject of truth analysis, but only their negative and affirmative assertions (Al-Jurjani, 1991b, p. 527). Furthermore, of those negative and positive assertions, some are logical and others are fictitious or imaginary. The logical or mental ones are the wise sayings that people, in general, agree upon (Al- Jurjani, 1991a, p. 264), and therefore, they are always true. On the other hand, the fictitious ones cannot be the subject of truth analysis because they are merely fancies, not realities (Al-Jurjani, 1991a, p. 284-319). In line with this explanation, we can say that the similarity assertion involved in the above utterance must always be true whereas the exaggerated assertion, where the man and the lion become one in bravery, is only fictitious, and hence is not a subject for truth analysis. In this way, Al-Jurjani could explain the rhetorical element in metaphor, namely that it consists of both a necessary true meaning in addition to a fictitious one that keeps the door open for imagination to take place.

This includes the meaning of the lexical items involved and the meaning of their grammatical relations. The inconsistency of this meaning with the situational context of the utterance indicates the presence of other kinds of meaning.

II. The Meaning of Meaning Subdivisions:

a. The Necessary Meanings

There are two necessary meanings in the utterance under analysis. The first is the similarity assertion between Zaid and the lion in the lion's most prominent features. The second is the exaggeration assertion where Zaid is made a real lion in bravery and courageousness.

b. The Possible Meanings

The utterance could be intended to frighten Zaid's enemies, or to praise him, or to convince someone to hire him for security duties …etc. Yet, all these intentions are hidden and can therefore be easily denied.

By specifying clearly these different types of meaning involved in metaphor, Al-Jurjani could also solve the problem of the truth and falsity of metaphor. Unlike English scholars in the field (Ereksoussi, 2003), Arab scholars believe that meanings whose truth and falsity depend on the honesty of the speaker are not the

hand, cannot be taken literally because of some linguistic or situational contextual evidence. For example, in (I saw a lion) referring to Zaid, the situational context proves that the literal meaning is not intended which leads the hearer to assume that the speaker wants to similize Zaid to a lion in its prominent features, namely courageousness and bravery, but he chooses to exaggerate the presence of the similarity to the point where Zaid and the lion become one in bravery. "Meaning" and the "meaning of meaning" are the two terms chosen by Al-Jurjani to designate the direct and the indirect kinds of meaning respectively, and the latter is further divided into two subtypes: necessary and possible meanings of meaning (Al- Jurjani, 1991a, p. 220-222). The necessary ones must be there because of "something in the utterance itself", i.e., without them, the utterance is meaningless or its meaning is incomplete. In contrast, the possible ones are not a must. They can only be there in terms of the "intention of the speaker". In other words, there is no linguistic or contextual evidence that necessitates their being intended. Therefore, they can easily be denied by both the speaker and the hearer. In line with this theory of meaning, the metaphoric utterance (I saw a lion) referring to Zaid can be analyzed as follows:

I. The Meaning (i.e., the direct or literal meaning)

then get stuck while deciding which of the two meanings to choose and on what basis. Therefore, Al-Jurjani rightly deemed both as inappropriate and proposed a better semantico-pragmatic alternative within a more comprehensive global theory of language.

Al-Jurjani defines metaphor in semantic and pragmatic terms. Semantically (Al-Jurjani, 1991a, p. 251), metaphor is meaning transfer between two entities because of some similarity between them. Yet, it differs from simile in structure and in function. He concedes that the relation between a metaphoric sign and its referent is fusion. Thus, in (I saw a lion) referring to (Zaid), we see (a man in a lion's image) (Abu Musa, 1993, p. 177). Moreover, Al-Jurjani, at different parts of his two major works Al-Dala'el and Al-Asrar, and within a comprehensive theory of language and meaning defines metaphor in pragmatic terms as well. According to Al-Jurjani, as summarized in El-Hakkoni (1995) who uses modern linguistic terminology, language is a means of communication, and meanings are the speaker's communicative purposes. These meanings or communicative purposes are of two kinds: direct and indirect (Al- Jurjani, 1991b, p. 263). The direct meaning can be understood from the literal meaning of the utterance itself as in (Zaid went out). The indirect meaning, on the other

together and become one in terms of the point of similarity intended (Al-Jurjani, 1991a, p. 248). Moreover, in simile, there is no transfer in the first place because both entities are mentioned clearly (Al-Jurjani, 1991a, p. 240). In addition, the structural differences themselves that are claimed by proponents of this theory do not always exist. For example, in the most rhetorical form of simile, namely X is Y, such as (Zaid is a lion), which is called "at-tashbeeh al-baleegh" in Arabic, no similizing tools are used, and in metaphor proper, the entity dropped could be the one similized to rather than the one similized.

It is interesting to know that when Al-Jurjani criticized these two theories of metaphor that has Latin origins, and proposed a better alternative, he was not interested in metaphor per se but he was trying to prove the inimitability of the holy Qur'an. While doing so, it became clear to him and to other linguists of the time that applying the previous two semantic theories of metaphor in interpreting the Qur'an would result in distorted interpretations of its meaning. Proponents of the first theory, for example, would claim the Qur'an to be void of metaphors and interpret it literally throughout because metaphors are false and Allah's Word cannot be described as such. Proponents of the second theory, on the other hand, would double the meaning of each and every word in the Qur'an, and

no transfer at all. According to this theory, the differences between metaphor and simile are merely structural. It is claimed that in metaphor, similizing tools such as (like, as if, and as) are not used, and the similized entity might also be dropped (Ibn Al-Athir, 1939, Part 2, p. 83). Like the first semantic theory of metaphor, this second one has also Latin origins going back to Cicro (1942). Of their proponents in today's English scholarships are Ullman (1951), and Nowottny (1965).

According to this second semantic theory of metaphor, the word (lion) in (I saw a lion) referring to (Zaid) has two meanings. The first is the literal meaning of lion which is the predatory animal, and this one is certainly false. The second is a courageous being, and if Zaid is really courageous, the utterance is true.

Al- Jurjani criticizes this theory and points out a number of flaws in it. He argues (1991a, p. 322) that the differences between metaphor and simile are not only structural but also functional. In simile, an entity is never claimed to be some other one but only similar to some other one in some respects, and this is why it is usually used to express new images whereas metaphor expresses familiar images but in an exaggerated manner through which both entities fuse

theory of metaphor. Therefore, it is the theory chosen as a framework for this study.

1.1 Al- Jurjani's Theory of Metaphor

Al- Jurjani started by criticizing the two semantic theories of metaphor that preceded his work. The first of these used to define metaphor as a name transfer from one entity to some other entity. Of its pioneers are Al-Jahidh (d. 255 H), Ibn Qutaibah (d. 276 H), Ibn Al-Mo'taz (d. 296 H), and Ibn Ja'far (d. 337 H). Al-Jurjani (1991a, p. 405), along with other linguists of the time such as Al-Razi (d. 606 H), and Al-'alawi Al-Yamani (d. 751 H) in his Tiraz (vol. 1, p. 199), pointed out how such a definition leads to conceiving each language transfer as a metaphor. It also leads to misperceiving proper names such as "Asad (Lion), and Wardah (Flower)[2]" to be metaphors, which is plainly incorrect. According to this theory, which has Latin origins going back to Aristotle (1946), all metaphorical utterances are false. Of their proponents in today's English scholarships is Black (1962).

The second semantic theory of metaphor pioneered by Ibn Al-Athir (d. 637 H) defines metaphor as a meaning transfer from one entity to another based on some similarity between them (Ibn Al-Athir, 1939, Part 2, p. 83). The problem with this theory is that it defines simile in the same way though simile involves

similarity because this relation is what distinguishes metaphor from other figures of speech such as metonymy and synecdoche (Al- Jurjani, 1991a, pp. 403-404).

Apart from its literal meaning, metaphor is defined as a kind of rhetorical meaning, the specification of which differs according to the meaning approach in which it stems. In general, there are two basic approaches to meaning, namely, the semantic and the pragmatic approaches. On the one hand, semanticists define meaning in terms of the relationship between a sign and its referent. Their main concern is to investigate the truth and falsity of meaning propositions. On the other hand, pragmatists define meaning as one of the communicative purposes of the speaker. Therefore, they explain meaning within an encompassing theory of language as a communicative act where context in its linguistic as well as situational forms play a major role in encoding and decoding speaker- meaning.

After reviewing theories of metaphor, both semantic and pragmatic, in both Arabic and English scholarships, we came to a conclusion (Ereksoussi, 2003) that no theory is complete or void of one or the other flaw except Al- Jurjani's semantico-pragmatic

metaphor, the different meanings involved in it, and the different procedures of translating it. Practically, it highlights the appropriateness potential of each translation procedure, specify its associated meaning loss, and suggest possible compensations of meaning. It is also hoped that the present study would contribute to the production of a more appropriate translation of the holy message based on the findings of modern linguistics rather than on intuition.

1. Metaphor and Its Types:

In Arabic, metaphor is "Isti'ara", which literally means borrowing. Al-Jurjani (d. 474 H)[1] concludes that it is named as such because in metaphor, just like in actual borrowing, there is a transfer of some benefit between two entities; and this is what distinguishes metaphor from simile where no transfer is involved. In particular, the transfer here is one of meaning rather than of name because the transfer of benefit is the cause of borrowing (Al- Jurjani, 1991a, p. 324-325). Moreover, just like in borrowing, in metaphor, three elements are involved: the entity from which we borrow, the entity borrowed, and the entity to which we borrow (Atiq, 1985, p. 167). Furthermore, for transfer to take place, there must be a relationship between the entity from which we borrow and that to which we borrow; and this relation must be one of

Introduction:

Metaphor translation has always been a problematic translation area because it demands the transfer of different meanings, some of which are cultural and may not have ready equivalents in the TL. This problem gains in momentum and reaches its height when translating sacred texts since faithfulness to the Speaker, here, would highly restrict the translator's choices.

The main purpose of this paper is to identify and put in order of preference the different translation procedures that would yield appropriate translations of Qur'anic metaphors. In order to achieve this purpose, metaphor will be defined and exemplified clearly and precisely. Then, I would review the different procedures that theory presents for the translation of metaphor, discuss their appropriateness, and relate them to their mother translation approach. Finally, an investigation of the actual procedures used in the translation of Qur'anic metaphor will be carried out in order to assess the level of success of each, and highlight the main problems resulting from the choice of a certain procedure to the exclusion of others. Consequently, one can decide if an order of preference can be maintained among the different procedures.

The importance of the study lies in its theoretical contributions as well as practical applications. Theoretically, it would add to our knowledge of

ترجمة استعارات القرآن: أشكالها و نماذجها

د. زبيدة محمد خير حسن عرقسوسي

ملخص البحث

إن ترجمة الاستعارة العربية لا تزال محط دراسة وتأمل لأنها تتطلب نقلا أمينا لمجموعة من المعاني المتعلقة غالبا بثقافة اللغة المصدر، والتي قد يتعذر وجود مقابل حرفي لها في اللغة الهدف. وتزداد المشكلة تعقيدا عندما تختص الترجمة بالنصوص الدينية المقدسة وبخاصة القرآن الكريم، مما يضيق على المترجم دائرة التصرف في الترجمة إلى أبعد الحدود.

لذا فقد هدفنا في دراستنا هذه إلى توضيح أشكال ترجمة الاستعارة المقبولة نظريا و التعرف على نماذجها، ثم استقصينا أشكال الترجمة الفعلية لاستعارات القرآن ودرسنا مدى قبولها أملا في أن تساهم هذه الدراسة في ترتيب أشكال الترجمة الممكنة حسب الأفضلية و كشف الأسباب الحقيقية التي تؤدي في بعض الأحيان إلى استغلاق ترجمة هذا اللون من البلاغة، وطرح الحلول العلمية العملية لمثل هذه الحالات.

وتكمن أهمية هذه الدراسة ليس بالتعريف بأشكال الترجمة المقبولة فقط بل بتحديد معاني الاستعارة بطريقة تتفق وعلوم المعاني الحديثة مما يسهل دراستها وترجمتها، و يسهم في الوصول لترجمة بلاغية قوية وصحيحة للقرآن الكريم أيضا.

Received: March,31, 2014 Accepted: June,17, 2014

The Translation of Qur'an Metaphors: Procedures and Examples

Dr. Zubaidah M. Kheir Hasan Ereksoussi

ABSTRACT

Metaphor translation is a problematic area since it requires an honest transfer of SL cultural meanings. In fact, it is more so when the metaphors translated are part of a sacred text like the Holy Qur'an, where a highly accurate rendition is usually in demand.

The main purpose of this paper is to identify and put in order of preference the different translation procedures that would yield appropriate translations of Qur'anic metaphors. In order to achieve this purpose, I will define metaphor, review the different procedures that theory presents for its translation, discuss their appropriateness, and relate them to their mother translation approach. Finally, an investigation of the actual procedures used in the translation of Qur'anic metaphor will be carried out in order to assess the level of success of each.

The importance of the study lies in its theoretical contributions as well as practical applications. It is also hoped that the present study would contribute to the production of a more appropriate translation of the holy message based on the findings of modern linguistics rather than on intuition.

The Translation of Qur'an Metaphors: Procedures and Examples

Dr. Zubaidah M. Kheir Hasan Ereksoussi
Umm AL-Qura University

Strategy		
13-Taking notes on important points.		
14-Making guesses about what will come next based on information already given.		
15-Relating the text to background knowledge.		

Post-reading Strategies

Strategy		
16-Classifying words according to meaning.		
17-Classifying words according to grammatical categories.		
18-Summarizing the main points in the text.		
19-Rereading the text to make up for comprehension failure.		
20-Rereading the text to remember the important points.		

Appendix 1 THE QUISTIONNAIRE

Please, Tick the Strategy you commonly use in the pre-reading, while-reading and post-reading stages

Pre-reading Strategies

Strategy		
1-Relate the title and illustration to the text		
2-Skimming		
3-Reading the first sentence		
4-Thinking about previous knowledge.		

While-reading Strategies

Strategy		
5-Look up every unknown word in the dictionary.		
6-Check the dictionary only for important words.		
7-Contexual guessing		
8-Using grammatical clues to guess the meaning.		
9-Skipping unknown words.		
10-Rereading a sentence if not understood.		
11-Translating the text word-for-word.		
12-Think-aloud when reading		

26 Sanders, S. (2013). Effective Reading Strategies. *Reading Matrix*, 34-71. Retrieved from: http://www.readingmatrix.com

27. Singhal, M. (2001). Reading Proficiency, Reading Strategies, Metacognitive Awareness and L2 Readers. *Reading Matrix,* 1-9. Retrieved from: http://www.readingmatrix.com/articles/singhal/article
28. Song, M. (2003). Teaching Reading Strategies in an On-going EFL University Reading Classroom. *Asian Journal of English Language Teaching, 8,* 41-54.
29. Umar, A. (2006). Psychology in the service of Foreign Language Teaching. *Umm Al-Qura University Journal of Social Sciences, 6*, 1-32.
30. Vaezi, S. (2006). *Metacognitive Reading Strategies Across Language and Techniques*. Unpublished PhD Dissertation: Allameh Tabtaba'I University, Tehran, Iran.
31. Waxman, H. and Pardon Y. (1987). *The Effect of ESL Student Perceptions of their Cognitive Strategies on Reading Achievement*. Paper presented at the Annual Meeting of the South West Educational Research Association, Dallas.
32. Yang, Y. (2006). Reading Strategies or Comprehension Monitoring Strategies? *Reading Psychology, 4,* 313-343.
33. Wafi, A. (2012) *Problems Faced ESP Teachers in Teaching the Reading Skills to Secondary School Students*. Unpublished M.A Thesis: Omdurman Islamic University.

13. Givelek, M. (2006). A study on the Use of Cognitive Reading Strategies by ELT students. Reading Matrix, 61-76. Retrieved from http://www.readingmatrix.com.
14. Grabe, W. (1991). Current Development in Second Language Reading Research. *TESOL Quarterly, 25,* 375-406.
15. Hosenfeld, C. (1977). A preliminary investigation of the reading strategies of successful and non-successful second language learners. *System, 5,* 110-123.
16. Kern, R. 1979. L2 reading strategy training: A critical perspective. Paper presented at the AAA Conference, Orlando, Florida, March 10, 1979.
17 Meiraf, A. (2013). *Reading Strategies Used by Sudanese University Students*. Unpublished PhD Dissertation: University of Gezera.
18. Knight, S., Pardon, Y. and Waxama, H. (1985). The Cognitive Reading Strategies of ESL Students. *TESOL Quarterly, 19,* 789-792.
19. Lynch, B. & Hudson, T. (1991). EST Reading. In M. Celce-Murcia (Ed.), Teaching English as a second or foreign Language (2nd ed.) (pp. 216-232). Boston: Heinle & Heinle Publishers.
20 Olshavesky, J. (1977). Reading as Problems Solving: An Investigation of Strategies. *Reading Research Quarterly, 4,* 654-674.
21. Oxford, R. And Crookall, D. (1989). Research on Language Learning Strategies: Methods Findings and Instructional Issues. *Modern language Journal, 73,* 404-419.
22. Oxford, R. (1990). *Language Learning Strategies: What Every Teacher Should Know?* New York: Newbury House Publishers.
23. Pearson, P. (1990). Comprehension Instruction. In R. BAro, M. Kamil, P, Mosenthal, & P. Pearson (Eds.), *Handbook of Reading Research.* (pp. 815-860). White Plains, NY: Longman.
24. Phan, N. (2006). Effective Reading. *Asian Journal of English Language Teaching, 8,* 41-54.
25. Rumelhart, D. (1980). Towards an Interactive Model of Reading. Paper presented at the attention and performance. VI International Symposium. Stockholm, Sweden, July, 1975.

References

1. Al-Masi, J. (2012). *Teaching Strategic Processes in Reading*. New York: The Guilford Press.
2. Barnett, M. (1988). Reading through context: How real and perceived strategy use affects L2 comprehension. *Modern Language Journal*, 72, 150-162.
3. Basloum, F. (1997) *Reading Strategies of Female EFL Students at Umm Al-Qura University*. Unpublished MA Thesis: Umm Al-Qura University.
4. Block, E. (1986). The Comprehensive Strategies of Second Language Readers. *TESOL Quarterly, 20,* 463-494.
5. Brantmeir, C. (2002). Second language reading research at the secondary and university level: variations; disparities generalizability. *Reading Matrix,* 1-14. Retrieved from http://www.readingmatrix.com/articles2006
6. Brown, A. and Palincsar, A. (1984). Reciprocal teaching of comprehension-fostering and comprehension monitoring activities. *Cognition and Instruction, 2,* 117-175.
7. Carrel, P. (1983). Three Components of Background Knowledge in Reading Comprehension. *Language Learning,* 33, 183-207.
8. Carrel, P. (1989). Metacognitive awareness and second language reading. *Modern Language Journal, 73,* 121-134.
9. Carrel. P. (1998). *Interactive Approaches to Second Language Reading*. Cambridge: Cambridge University Press.
10. Galicia, M. (2006). *Reading strategies: a study on pupils use of strategies when reading fictional texts*. Unpublished MA Thesis: Vaxjo University.
11. Garner, R. (1987). *Metacognitive and reading comprehension*. Norwood. NJ: Ablex.
12. Gaskin, I. (1994). Classroom Application of Cognitive Science: Teaching Poor Readers How to Learn, Think, and Problem Solve, In K. McGill (Ed), *Classroom Lessons: Integrating Cognitive Theory and Classroom Practice*, (pp. 129-154). Cambridge, MA: The MIT Press.

Since this study focuses on reading strategies used by male Medical sciences students, a parallel study should be conducted in the near future to elicit strategies used by female ESP learners in the same college. Such a study is likely to yield some interesting results.

text may help students to focus on issues they do not comprehend fully or correctly during the first reading.

Given that one of the most important objectives of teaching reading is to help students develop as strategic and independent readers, several of the above mentioned strategies can be taught systematically according to a two-fold plan. In the first place, strategies should be taught via direct explanation, explicit teacher modeling, and extensive feedback. Students should be fully acquainted with the most productive reading strategies, where and when they can be used and how they are used. Second, ESP readers, particularly the poor or less capable ones, should be given intensive and direct strategy training for a reasonably long period. Gaskin (1994) reserves that teaching of strategies without direct explanation and explicit teacher modeling would not have a long-term effect on students and would not help them to develop as strategic readers.

Recommendations for Future Research

In future research, it is recommended that the number of participants and the text that will be used during the Think-aloud Protocol sessions be increased to give more reliable results.

Since this study reveals significant discrepancy between the self-reported data and the protocol data regarding strategy use, the reasons of these differences can be adequately investigated in future research. However, improved Think-aloud Protocols can be recommended as suitable methodology since they allow objective observation of both ongoing behavior and the mental images created by the participants.

approach the text in a purposeful manner as the discussion should attract them to think about the questions or points raised in the text. In addition, Pre-reading activities should include discussion of the text type, brain storming, reviewing familiar scientific points or facts in the text, considering illustrations and titles, skimming and scanning.

While-reading exercises could be manipulated to develop effective reading strategies, improve students' control of the target language, and decode difficult reading text passages. Assisting ESP learners to employ while-reading strategies is observed by many researchers as a difficult task as different learners need different strategies. Nevertheless, the teacher can outline the most valuable strategies for his students, explain which strategies individual students most need to implement, and provide concrete examples in the form of guided reading activity sheets (Barnett, 1988). Such exercises may include guessing meaning, using context clues, word formation clues or cognate practice, analyzing reference words to predict text content, and using the dictionary only when necessary.

Finally, Post-reading exercises should focus on checking the students' comprehension and lead them into deeper analysis of the text. Since the goal of scientific reading is not simply to memorize the text, but rather to generate new information from what one already knows, ESP reading activities must go beyond shallow comprehension skills to help the students recognize that different strategies are suitable for different texts. Scanning and summarizing, for example, are appropriate strategies to use for long scientific passages, whereas predicting and following text cohesion are effective strategies for shorter texts. Group discussion and rereading a

Conclusion and Recommendations

This study is launched with the objective of identifying the reading strategies commonly used by a sample of ESP students in the College of Medical Sciences at Umm-Al-Qura University. The study also aims to point out which strategies that the students need to develop in order to pursue their academic studies successfully and to get the maximum out of the texts they read.

Results obtained through a Think-aloud Protocol reveal that the subjects actually use an astonishingly limited number of reading strategies. Out of 20 strategies claimed to be used by the subjects in response to a Questionnaire, only eight reading strategies have been actualized during the Think-aloud Protocol. It should be pointed out that some of the strategies claimed to be or actually used by the subjects are really poor strategies and are not likely to yield proper comprehension. Strategies such as translating word-for-word and depending heavily on dictionary are just frustrating and conducive of boredom.

To encourage students to use effective reading strategies, the ESP instructors may play a key role through working out simple exercises to elicit information through targeted strategies. These exercises can be divided in accordance with the reading stages.

During the Pre-reading stage, for instance, the activities should be geared to introduce the students to the target text, provide relevant background knowledge and activate necessary schemata. Previewing a text with the students, should be planned to capture students' interest and help them

to use some of the most unproductive strategies, such as their heavy reliance on the dictionary, and word-for-word translation. Such poor strategies are likely to reflect negatively on the students' reading comprehension and may lead to boredom and frustration.

It has become clear that these ESP students need to develop more effective reading strategies to help them cope with the increasing demands of their academic reading. These may include relating the illustrations, pictures and background knowledge to the text they read. Skimming, using dictionary parsimoniously, guessing, remembering a word through situations, and rereading to enhance understanding, being careful about how the text is organized, making notes and summaries of important information and classifying words according to their meanings and grammatical categories are also strategies that may help ESP students enhance their comprehension .Indeed, Effective use of these strategies is bound to help students to improve their reading ability and to accomplish their cumbersome academic tasks successfully.

The above list of reading strategies could be cited to answer the second question of the study which asks for the kind of strategies that ESP students need to use to improve their reading skills.

As for third the question which inquires about differences between 'good' and 'poor' readers in term of their reading strategy use, it is now clear that 'good readers' use more strategies than the 'poor readers' and that 'good readers' use these strategies more often than their counterparts.

During the While-reading phase, the subjects admit that they use their dictionaries, resort to word-for-work translation, reread sentences and assimilate the text with background knowledge. During the Think-Aloud Protocols, however, only a few of these claims are confirmed. It is confirmed that the subjects rely quite heavily on their dictionaries, reread sentences, and oftentimes resort to word-for-word translation.

During the Post-reading phase, the subjects, in their responses to the Questionnaire, indicate that they classify words according to their meaning and according to their grammatical structures. Furthermore, the subjects state that they summarize the main ideas and sometimes reread the text to remember important points and to make up for comprehension failure.

During the Think-aloud Protocols, however, it is found that only two of the post-reading strategies have been put into practice. These are rereading the text to, perhaps, remedy comprehension failure, and summarizing the main ideas. The latter is used by only (17.7%) of the 'good readers' but by none of the 'poor readers'.

The above findings can be cited to answer the first question of this study which inquires about the reading strategies that are commonly used by ESP students in the College of Medical Sciences at Umm-Al-Qura University.

Findings generated through the Questionnaire and the Think-aloud Protocol also indicate that the participants from both groups, i.e. ' good readers' and 'poor readers' do not always use or even consider using certain effective reading strategies. Indeed, a considerable number of the subjects tend

Findings and Discussion

When the data generated through the Questionnaire and the Think-aloud Protocols are compared, one may clearly observe the gap between the self-reported information and the actual practice of the subjects with regard to their reading strategy use. Differences between 'good readers' and 'poor readers' in terms of type and frequency of strategy use are also documented. In the self-reported data, the subjects claim that they use a relatively wide range of reading strategies at various reading phases; however , when it comes to actual practice , it is revealed that the subjects have used a limited number of reading techniques, and even these are used with a limited level of frequency.

Indeed, out of more than twenty reading strategies claimed to be used by the subjects in the various stages of the reading process, only eight have materialized in their actual reading practice. This difference can be partially attributed to the natural gap that normally exists between theory and practice. Another reason for this discrepancy could be related to the inability of the subjects to verbally express the covert mental processes readers engaged in when trying to extract meaning from the reading text.

During the pre-reading phase, the subjects have claimed that they tend to relate the title to the text content, practice some skimming, read the first sentence in each paragraph and think about previous knowledge. However, only two of these strategies are realized during the Think-Aloud protocols; namely, reading the title and relating it to the text content, and thinking about the previous knowledge.

Table-V: Strategy Use of the Participants for the While-reading Phase as Reflected in The Think-Aloud Protocol

Strategy	%of use by good readers	% of use by poor readers
1-Using the dictionary to check new word.	66.6%	83.3%
2-Translating word-for-word.	33.3%	83.3%
3-Relating the text to background knowledge.	66.6%	17.7%
4-Re-reading a sentence to enhance understanding.	58.4%	41.7%

With reference to Post-reading strategies, the Think-aloud protocol reveals that these strategies are the least used by both groups. More specifically, only two strategies are used in this phase. These are rereading the text to remedy comprehension failure and summarizing the main ideas. The former is used by (58.4%) of the 'good readers' and by (41.7%) of the 'poor readers'. The latter, i.e., summarizing the main ideas used by (17.7%) of the 'good readers' but none of the poor readers has attempted this strategy. The following table shows the strategies actually used during the Think-aloud Protocol in the Post-reading phase.

Table-VI: Strategy Use for the Post-reading Phase As Reflected In The Think-Aloud Protocol

Strategy	% of use by good readers	% of use by poor readers
1-Re-reading the text to remedy comprehension failure.	58.4%	41.7
2-Summarizing the maid ideas.	17.7%	00%

Table-IV: Strategy Use of the Participants for the Pre-reading Phase as Shown in the Think-aloud Protocol

Strategy	% of use by good readers	% of use by poor readers
1-Reading the title and relating it to the text.	58.4%	33.3%
2-Thinking about previous knowledge.	41.7%	33.3%

Considering the While-reading strategies, it is found that the subjects (both good and poor readers) rely heavily on their dictionaries. It is found that (83.3%) of the 'poor readers' and (66.6%) of the 'good readers' resort quite often to dictionaries to check the meaning of words. Another popular strategy is 'the word-for-word translation' which is used by (83.3%) of 'poor readers' and by (33.3%) of the 'good readers.'

Rereading a sentence and assimilating the text with background knowledge are used by the two groups, but with different levels of frequency during the While-reading phase. Rereading a sentence to enhance understanding is used by (58.4%) of the 'good readers' and by (41.7%) of the 'poor readers'. The 'good readers' seem to assimilate the text with background knowledge more often than their counterparts, the 'poor readers'. Indeed, (66.6%) of the 'good readers' apply this strategy compared to (17.7%) of the 'poor readers'. The following table shows strategies used by the subjects during the While-reading phase.

acknowledge that they reread the text to remember important points.

The Results of the Think-aloud Protocols

The Think-aloud Protocol technique is used, as mentioned earlier, to identify the actual strategies implemented by the subjects when they are involved in the reading process. Analysis of these protocols reflects considerable discrepancies between the strategies claimed to be used and those actually put into practice by the subjects when they approach their reading task.

Out of the four pre-reading strategies claimed to be used by the subjects in response to the Questionnaire, only two have materialized in the Think-aloud Protocol. These are reading the title and imagining what the text might be about, and thinking about the previous knowledge on the topic of the text. It is also observed that the 'good readers' use these strategies more often than the 'poor readers'. More specifically, it is found that (58.3%) of the 'good readers' read the title and try to relate it to the text compared to (33.3%) of the 'poor readers'. As with reference to thinking about previous knowledge and relating it to the text, this strategy is used by (41.7%) of the 'good readers' compared to (33.3%) of the poor readers. The following table shows the actual strategies used in the Pre-reading phase.

Table-III: Strategy Use of the Participants for the Post-reading Phase

Strategy	%of use of good readers	% of use by poor readers
16-Classifying words according to meaning.	33.3%	16.7%
17-Classifying words according to grammatical categories.	33.3%	8.3%
18-Summarizing the main points in the text.	41.6%	8.3%
19-Rereading the text to make up for comprehension failure.	58.3%	33.3%
20-Rereading the text to remember the important points.	41.7%	33.3%

The findings in this section indicate that (33.3%) of the 'good readers' say they classify words according to their meanings, whereas only (16.7%) of the 'poor readers' mention that they follow this strategy. Furthermore, (33.3%) of the 'good readers' note that they classify the words according to their grammatical categories compared to only (8.3%) of the 'poor readers'.

On another level, (41.6%) of the 'good readers' claim they summarize the main points in the text, whereas only (8.3%) of the 'poor readers' point that they summarize the main ideas of the text they read. Furthermore, (58.3%) of the 'good readers' and (33.3%) of the 'poor readers' claim that they reread the text to make up for comprehension failure. Finally, (41.7%) of the 'good readers' and (33.3%) of the 'poor readers'

strategy. (66.6%) of the 'good readers' say that they reread a sentence when they do not understand its meaning the first time. On the other hand, only one third of the 'poor readers' group say they reread sentences to understand them better. More than two thirds of the 'poor readers' group admit that they always attempt translating the text word-for-word, whereas only one fourth of the 'good readers' confirm that they resort to 'word-for-word translation.

About only (8.3%) of the 'poor readers' say that they think aloud when reading, but (25%) of the 'good readers' claim that they think aloud while reading. (33/3%) of the 'poor readers' mention that they take notes on the important points in the text compared to (8.3%) of the 'poor readers'. Furthermore, half of the 'good readers' assume that they make guesses about what will come next based on the information already given in the text, whereas only about (8.3%) of the 'poor readers' attempt such guessing strategies. With reference to relating the text to background knowledge to consolidate important information, (33.3%) of the 'good readers' and (25%) of the 'poor readers' point out that they attempt this strategy.

Post-reading Strategies

This final section of the Questionnaire attempts to pinpoint the reading strategies claimed to be used by the subjects during the last phase of the reading process. Table-III highlights the main strategies adopted by the participants.

Strategy	% of use by good readers	% of use by poor readers
14-Making guesses about what will come next based on information already given.	50%	8.3%
15-Relating the text to background knowledge.	33.3%	25%

As shown in the above table, items 5 and 6 are both related to dictionary use strategies. Responses to these items reveal that (33.3%) of the 'good readers' look up every unknown word in the dictionary and (75%) of the 'poor readers' claim that they do look up every unknown word in their dictionary. Furthermore, (75%) of the 'good readers' confirm that they check an unknown word in their dictionary especially if this word seems important or crucial to the understanding of the text. On the other hand, (66.6%) of the 'poor readers' admit that they check important words in the dictionary. With reference to contextual guessing, (75%) of the 'good readers' claim they attempt to guess the meaning of new words from context, whereas only (25%) of the other group claim that they try to guess meaning of words from context. Furthermore, (66.6%) of the 'good readers' report they use grammatical clues to guess the meaning of new words compared to (25%) of the 'poor readers' who claim that they use this strategy.

In response to item No. 9, (66.6%) of the sample of the 'good readers' admit that they skip some unknown words, whereas (33.3%) of the 'poor readers' claim that they use this

While-Reading Strategies

This section includes eleven items aimed to identify strategies said to be employed in the while-reading phase. Data related to this section are presented in Table-II below.

Table-II: Strategy Use of the Participants for the While-reading Phase

Strategy	% of use by good readers	% of use by poor readers
5-Look up every unknown word in the dictionary.	33.3%	75%
6-Check the dictionary only for important words.	75%	66.6%
7-Contexual guessing	75%	25%
8-Using grammatical clues to guess the meaning.	66.6%	25%
9-Skipping unknown words.	66.6%	33.3%
10-Rereading a sentence if not understood.	66.6%	33.3%
11-Translating the text word-for-word.	25%	66.6%
12-Think-aloud when reading	8.3%	25%
13-Taking notes on important points.	33.3%	8.3%

knowledge and understanding what the text is about. Table-I below reveals the strategies reported to be used by the subjects during this phase.

Table-I: Percentage of Pre-reading Strategy Use by 'Good' and 'Poor' Readers

Strategy	%of use by good readers	%of use by poor readers
1-Relate the title and illustration to the text	66.6%	41.7%
2-Skimming	41.7%	25%
3-Reading the first sentence	50%	25%
4-Thinking about previous knowledge.	75%	41.7%

From the above table, it is revealed that the group of subjects termed 'good readers' claim that they use the pre-reading strategies more often than their counterparts, 'the poor readers'. For instance, it is shown that (66.6%) of the good readers report that they relate the title and illustrations to the text content, while only (41.7%) of the 'poor readers' report they use this strategy. Skimming is said to be used by (41.7%) of the 'good readers' compared to (25%) of the 'poor readers'. Reading the first sentence of each paragraph strategy is employed by (50%) of the 'good readers', but only (25%) of the 'poor readers' adopt this strategy. With regard to 'thinking about previous knowledge, (75%) of the 'good readers' claim that they use this strategy compared to (41.7%) of the 'poor readers'.

frequencies and percentages. Frequency and percentage calculations for responses generated through the two instruments are then used to help in comparing the self-reported data generated through the Questionnaire with the actual reading process in terms of reading strategy use reflected in the Think-aloud Protocol.

Results

Analysis of data generated through the Questionnaire and Think-aloud Protocol has revealed some interesting results. In the first place, it is found that the 12 best scorers in the reading comprehension tests, hereafter 'the good readers', differ both quantitatively and qualitatively from their counterparts, the low scorers, and hereafter ' the poor readers' in terms of reading strategy use. It is also revealed that both 'good readers' and 'poor readers' are very limited in their strategy use and a considerable number of effective strategies never materializes neither in the subjects' self-report nor in their Think-aloud Protocols.

Furthermore, the analysis reveals that the subjects (both good and poor readers) employ much less reading strategies in-to-to than what they self-reported in response to the Questionnaire. The following sections will show the details of these findings.

Results of the Questionnaire

Pre-reading Strategies

The first four items of the Questionnaire are intended to generate data pertinent to pre-reading strategies. Broadly speaking, these are strategies related to activating background

The other instrument, i.e., the Think-aloud Protocol aims to capture the overt, verbal expressions of the normally covert mental processes readers engaged in when trying to construct meaning from texts (Oxford, 1990). In this study, the Think-aloud Protocol is conducted in a series of sessions during which the participants are asked to think aloud in front of a tape recorder which captures their reflections on how the text is being processed and understood.

The text used in this study is an excerpt from Harbor (2005) Bio-Chemistry, a textbook widely adopted in teaching bio-chemistry in colleges of medicine in the Arab World. The text selected deals with protein structures and it is presented to the subjects in its original form without any modification. There are 542 words in this text and it includes some illustrations, headings, subheadings, drawings and tables. Staff from the bio-chemistry department confirm that this text represents material commonly encountered by medical students during their pre-medical course of study.

Data Analysis

Data generated through these two instruments, i.e., the Questionnaire and the Think-aloud Protocol, are analyzed quantitively using an SPSS 12 computer program. Frequencies and percentages are calculated straight away for all Questionnaire items. The Think-aloud Protocol responses are analyzed qualitatively. In the first step, the entire playback of the Think-aloud Protocol is coded into strategies by following an initial strategy coding scheme. This coding scheme is created by adapting the taxonomy provided by Oxford (1990). Identified strategies are eventually presented in the form of

Method

Participants

The sample of this study consists of 24 male subjects drawn purposively from the population of first year students in the College of Medical Sciences at Umm-Al-Qura University, Saudi Arabia. The total of this population is 494 students. They are registered in a compulsory ESP course which aims to help them pursue their study through an English medium. This group of students has already learned English for six years (three years at the intermediate and three years at the secondary school) plus one term of an intensive ESP course at the University. The sample of the study is selected from the above population on the bases of their performance in a series of reading comprehension tests conducted during the first term of their ESP course. The sample is formed of the highest 12 plus the lowest 12 scorers in the series of the above mentioned reading tests. Their ages range between 18.5 and 20 years and they all speak Arabic as their first language.

Data Collection Procedures

To collect data for this study, two instruments are used: a 'Questionnaire' and a 'Think-aloud Protocol'. The Questionnaire consists of two parts: the first part is intended to provide background information about the subjects, whereas the second part aims to identify the reading strategies claimed to be commonly used by the participants while reading a scientific text relevant to their specialization. This part includes 20 items classified under three headings: Pre-reading, While-reading, and Post-reading phase. (This questionnaire is administered at the beginning of the experiment).

reading and provides rich descriptions of ways in which less successful readers differ from proficient readers.

Generally speaking, the above literature review reveals that researchers in different parts of the world have shown great interest in the study of reading strategies. Indeed, hundreds of investigations have been launched around the globe with the ultimate objective of identifying the best strategies that may help students become effective and efficient EFL/ESL readers. In the Arab world, where English is still the main medium of instruction in many higher and technical education institutes, such studies on reading strategies remain widely unexplored. This is indeed very unfortunate. Arab researchers are, therefore, sincerely called upon to look into the reading strategies used by Arab learners when they read English, a language that is so vital in today's world of science and technology.

This current study, and hopefully many others that are yet to follow, will investigate the reading strategies adopted by Arab ESP students. It is hoped that this will help to identify the strategies commonly used and those which are not used by this group of learners. Results of this study will promote understanding of the reading processes adopted by these learners and pave the way for solving the many problems that face them while they approach their reading tasks.

common reading strategies only three materialize in the reading activities of the selected sample.

From the above empirical studies on reading strategies, one may conclude that there is a strong relationship between reading strategies used by readers and their proficiency level. It is also strongly demonstrated that there are indeed differences between successful readers and less successful readers in terms of strategy use. Overall, successful readers or proficient readers appear to be using a wider range of strategies. Furthermore, it becomes clear that these successful readers use strategies more frequently than poor readers. It is also demonstrated that successful readers know when and how to implement reading strategies for different reading tasks.

One common denominator among these empirical studies is the use of interviews, questionnaires and/or Think-aloud Protocols as a means for data collection. Interviews and questionnaires are commonly conducted during or after the task. In the case Think-aloud Protocols, researchers require the subjects to verbalize their thoughts and say aloud everything that occurs to them while performing the task of reading (Garner, 1987). This technique "requires the reader to stop periodically, reflect on how a text is being processed and understood, and relate orally what reading strategies are being employed" (Singhal, 2001.p10). In fact, Think- aloud Protocols involve the overt verbal expression of the normally covert mental process readers engage in when constructing meaning from text. Singhal (2001) admits that verbal protocol has made a significant contribution to the understanding of

In "the while-reading stage", the most commonly employed strategies are "using the dictionary", "guessing the meaning of a word from the context", "skipping some unknown words", and "assimilating the text with the background knowledge". However, none of the participants has used any of the post-reading strategies.

Tung-hsien He (2012) studies the effect of goal orientations on strategy use patterns and reading comprehension of adult EFL readers. Thirty-eight Taiwanese EFL college students are randomly selected and assigned into "the mastery-oriented" and the combined mastery and performance-oriented group. Results of this study show that at least two strategy use patterns have surfaced in the participants' Think-aloud Protocols. The combined group goes through more turns of strategy use and employs more follow-up strategies, compared to its counterpart. The combined group also attains better reading comprehension. On the other hand, the mastery-oriented group is found to be more liable to stop its efforts at understanding the unknown vocabulary/expression. This study concludes that goal orientations leads to significant differences in strategy use patterns and reading comprehension. EFL reading teachers are, therefore," advised to investigate the links among these variables and to encourage their students to adopt a dual rather than a single achievement goal".(P.130).

Quite recently, Mieraf (2013) in collaboration with the researcher have conducted a comprehensive study which aims to explore the reading strategies used by Sudanese students at tertiary level. They used the Think - Aloud Protocols and a questionnaire to collect data. It is found that out of eight

comprehension questions is improved by the training method. These findings suggest that foreign language reading methodology should include explicit and direct strategy teaching.

Based on his empirical studies on Iranian students reading strategies, Vaez (2006) offers guidelines which can be used as general ideas to aid students in reading and comprehending materials. These guidelines can be seen in three consecutive phases: before reading, during reading, and after reading. Before starting to read a text, it is recommended that the reader should think of the purpose of reading that particular text. The during reading technique may include re-reading for better comprehension. Filling out forms and charts can be used as an after-reading activity. Vaez proposes that these tasks and ideas can be implemented to enhance reading comprehension.

Ozek and Livelek (2006) conduct a study to find out which reading strategies are commonly employed by ELT students when reading a text, and which reading strategies that need to be developed to understand the text better. The population of this study involves beginner and final students in ELT department at a Turkish university. The researchers use two different instruments to collect data for this investigation: a Self –Report Questionnaire and a Think-aloud Protocol. The Questionnaire which is composed of 25 items is administered to a sample of 185 subjects. The Think-aloud Protocol is conducted with 23 subjects. Reading strategies are evaluated under three categories: pre-reading, while-reading and post-reading in both parts. The result of the Think-aloud Protocol analysis shows that the subjects use one single strategy, that is "relating the title to the text content", in the pre-reading phase.

for one reader in a certain reading situation, but not for another reader in another reading context.

Galicia, (2006) studies reading strategies used by Swedish secondary school students studying English as a foreign language. The sample is comprised of four fifteen-year-old students. Data are collected through a series of interviews with the subjects. Results of this study reveal that pupils who are subjected to different reading strategies are better readers than those who are not. It is clearly demonstrated that when reading strategies become part of the learning process, they will increase the pupils' reading comprehension. This study also reveals that there are some important strategies that the subjects need to use. These include summarizing, paraphrasing and rereading to enhance comprehension.

In a relevant area of investigation, Song (1998) proposes a method for training students to use reading strategies in an EFL university reading program. This training method is based on the procedure developed by Brown and Palincsear (1984). It includes four consecutive reading strategies: summarizing, questioning, clarifying and predicting. The study addresses the following research questions: "Does strategy training enhance reading ability of EFL college students?" If so" How is effectiveness reading strategy training related to the reading proficiency of the students?" Which types of reading comprehension questions are affected by strategy training? "(P:41). Results show that "strategy training enhances EFL reading and that the effectiveness of training varies with L2 reading proficiency"(P"41). The results also indicate that students' performance on certain types of reading

subjects who effectively consider and clearly remember context as they read, understand more of what they read than those who employ this strategy less or less effectively. Moreover, it is found that the subjects who think they use some strategies (i.e. perceived strategy use) actually "understand more than those who do not think they use such strategies" (p.156).

Basloum (1996) investigates the effect of text structure on 'good' and 'poor' EFL female readers at a Saudi University. This study involves 114 subjects and aims to examine how 'good' and 'poor' readers differ in the quantity, quality and variety of the reading strategies they use in reading two types of text structures. Basloum finds that 'good' and 'poor' readers differ significantly in their approach to the text. More specifically, she finds that good readers approach the text independently and adjust their scheme to accommodate that of the writer. Conversely, poor readers approach the text dependently and adjust the text to fit their own scheme of meaning. Basloum ends up her study giving some useful pedagogical and methodological recommendations for the support of the interactive theory of reading. These include the use of retrospection tasks, reading instruction, students' training and classroom practice.

Kern (1997) studies the case of two American university students learning French as a second language; one 'a good reader of French as L2,' the other less good. Kern finds that no strategy is inherently a 'good' or a 'bad' strategy; that some of the so-called "bad" strategies are oftentimes used by 'good' readers and vice-versa. The researcher goes on to explain that using prior knowledge may sometimes be an effective strategy

Using a Think-aloud Protocol, Olshavsky (1977) examines the reading strategies used by tenth grade students. Students' strategies are analyzed according to the following criteria: reading proficiency (good vs. poor), readers' interest (high vs. low), and reading material (abstract vs. concrete). Olshavsky finds that students who have high reading proficiency and are interested in what they read can easily employ problem solving strategies to surpass their reading problems. It is then concluded that effective use of strategies is a feature of good readership.

Block (1986) studies non-proficient readers enrolled in remedial reading courses in the US. She finds that there are four characteristics that distinguish the more successful from the less successful of these non-proficient readers. The four characteristics are: (1) integration, (2) recognition of aspects of the text structure, (3) use of general knowledge, personal experiences, and associations, (4) response in an extensive as opposed to a reflexive mode.

Barnett (1988) investigates the relationship between reading strategies and perceived strategy use on reading comprehension. This study dealt with 278 French language students. Initially, these students are required to read an unfamiliar text and to report what they understand in English. The second part asks the subjects to answer a set of background questions before reading a text, and the third part of the study asks the students to respond to a seventeen-item questionnaire in English about the types of reading strategies they think best denote their method of reading. 'Background knowledge scores' 'Comprehension scores', and 'Strategy use score' are used for analysis. This analysis reveals that the

A number of empirical studies have been conducted since the late seventies. Several of these studies have identified concrete relationships between certain types of reading strategies and successful and unsuccessful second language reading. Other studies have investigated individual differences in strategy use by second language learners while engaged in different reading tasks. In recent years, a great deal of research has been conducted on reading strategy training. Such research is based on the assumption that success in reading depends mainly on appropriate strategy use and that poor readers can improve their reading by being trained to use effective strategies.

Of the early empirical studies conducted to demonstrate the relationship between strategy use and successful reading is that by Hosenfeld (1977). Hosenfeld studies high school students reading French, German or Spanish, but thinking aloud in English. She finds that successful French readers do several things :

1- They keep the meaning of the passage in their mind during reading.
2- They read in what she terms as broad phrases.
3- They skip words unimportant to total phrase meaning.
4- They have positive self-concept as readers.

On the other hand, Hosenfeld finds that unsuccessful French readers:

1- Lose the meaning of sentences as soon as they are decoded.
2- Read in short phrases.
3- Seldom skip words as unimportant and view words as equal in their contribution to total phrase meaning.
4- Have negative self-concept as readers.

Rumelhart (1980), schemata are used for the interpretation of both linguistic and non-linguistic information, for retrieving information from memory, for arrangement of actions, and largely for the direction of the flow of processing in the system.

Rumelhart (1980) defines schema as an abstract representation of generic concepts, stored in the memory for objects, actions, events and situations. In this sense, schema may help in interpretation of new information by linking it to past experience and prior knowledge. For Galicia, (2006) Schema is a summary of different conditions that have general features in common, but differ in details. It is a structure that represents an organization pattern of relationships among its constituents.

In order to understand the role of schemata in reading comprehension, it is worthwhile to differentiate between two types of schemata: formal and content Schema (Carrel, 1983). Formal Schemata stand for the background knowledge about the text structures. These may include differences in organization and structure of different types of writing such as articles, expository texts, scientific reports, and so on. Content schemata, on the other hand, involve the cultural and the background knowledge about the content of the text such as a text about economics, medicine, chemistry, biology and the like. Numerous studies have shown that content schemata have great influence on reading comprehension (Pearson, 1990; Basloum, 1996; Singhal , 2001; Phan, 2006).

Empirical studies

dictionaries. (4) Meta-cognitive strategies: these involve activities done by the learner to plan, arrange, and assess their own learning. Such strategies may also include setting goals and objectives, self- monitoring and correction of errors. (5)Affective strategies: these include self-encouraging behavior, to reduce anxiety. (6) Social strategies: which cover cooperation with peers and asking for correction and feedback.

Sanders (2013) confirms that reading researchers have identified a wide variety of strategies. She maintains that these reading strategies range from traditionally recognized reading behavior such as skimming a text to get the general idea, and scanning a text for specific piece of information to more recently recognized cognitive strategies such as activating prior background knowledge and recognizing text structure.

Generally speaking, research in first and second language reading has provided a binary division of cognitive reading strategies as bottom-up and top-down. Goodman (1986), for instance, refers to the bottom-up model as a process of decoding, which involves identifying letters, words, phrases and then sentences in order to get the meaning. On the other hand, the top-down model is based on "the selection of the fewest and most productive elements from a text so as to make sense of it" (Lynch & Hudson, 1991, p.218). Goodman (1998) describes reading as a psycho-linguistic guessing game in which the reader reconstructs a message that has been coded by a writer as a graphic display.

The above mentioned cognitive model of reading is very much influenced by the schema theory which is broadly defined as the building blocks of cognition. According to

they read a text, and which strategies they do not use but they need to develop to improve their reading comprehension.

This study, therefore, aims to find answers for the following questions:

1- Which strategies do medical sciences students at Umm Al-Qura University use when they read texts related to their field of specialization?
2- Which reading strategies should be developed by these students in order to improve their reading skills and to continue their academic studies successfully?
3- Are there any differences between "good" and "poor" readers in term of their reading strategies use?

Review of Literature

Theoretical Considerations

Strategies are learning techniques, activities and problem solving skills that enhance learning (Singhal, 2001). Oxford (1990) provides a useful classification scheme of the various strategies used by second language learners. This involves: (1) Cognitive strategies: these are used by the learners to manipulate language. This category covers note-taking, formal study of the specific aspects of the target language, summarizing, paraphrasing, predicting, analyzing and using context clues. (2) Memory Strategies: these help the reader remember information through creating mental pictures, grouping and associating. (3) Compensation strategies which involve activities such as guessing while reading, or using

qualifying them to benefit by instruction provided through English medium. However, in spite of the tremendous effort made by both teachers and students during their ESP courses, students reading skills remain far away from being satisfactory. Terribly slow reading, word-for-word translation and hence minimum comprehension are characteristic features of many ESP readers.

Although many ESP textbooks include clear prescriptions of activities that call for the use of fruitful reading strategies, such as skimming, scanning, activating background knowledge and paraphrasing or summarizing, the implementation of these techniques in actual reading practice of the students is hardly noticeable. Consequently, students face significant difficulties when reading English textbooks related to their specializations. This situation may lead to students' frustration and may induce them to develop negative attitudes towards reading which may, in its turn, result in students' low achievement or, even worse, failure in their respective fields of study.

To avoid such unnecessary tragic consequences, this study is launched to investigate the reading strategies which ESP students at Umm Al-Qura University generally use when

relevant to the text, identifying key words, using grammatical analysis to determine the various components of the sentence, skipping, rereading, paraphrasing and summarizing (Almasi, 2012).

Obviously these strategies can be useful tools for teachers of English as a foreign language, who normally do not find sufficient practice time for their students who are required to cope with studying a new language and reading for content (Wafi, 2012). It is also reported that the need for efficient reading skills is heightened at the post secondary levels, especially at tertiary education, where English gains significant importance as it becomes a medium of instruction and a vehicle of content information. To cope with this situation, students must take English for special purposes (ESP) courses. Such courses are specially designed to assist students read technical subject matter written in English.

Typically, in colleges of medicine, sciences, engineering and technology in Saudi Universities as it is the case in many other Arab countries, English is solemnly adopted as a medium of instruction. Students in such colleges are oftentimes assigned for intensive ESP courses with the ultimate objective of raising their standard of English and

Introduction

Since the early seventies, reading researchers have concentrated on describing strategies and procedures used by second / foreign language learners while or when they read a text. Findings of these studies indicate that students use a variety of strategies in order to read better (Hosenfeld, 1977; knight, Pardon & Waxman, 1985; Garcia and Pearson, 1995). In Singhal (2001) terms, strategies can be defined as learning techniques, behaviors, and problem-solving or study skills that help learners to read more effectively and efficiently. Block (1986) adds that reading strategies show how readers conceive a text, what textual cues they attend to, how they make sense of what they read, and what they do when they do not comprehend the text. Meiraf (2013) states that these strategies may involve skimming, scanning, recognizing synonyms and word families, predicting, activating general knowledge, making inferences, and identifying main ideas from supporting ones.

Furthermore, reading strategies may involve evaluating content, finding an association between the text and previous knowledge or experience, asking and answering questions

بحث في استراتيجيات القراءة باللغة بالانجليزية التي يستخدمها طلاب العلوم الطبية بجامعة أم القرى

د. عبد المجيد الطيب عمر

ملخص الدراسة

هذه الدراسة عن أساليب القراءة التي يستخدمها مجموعة من طلاب كلية العلوم الطبية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، المسجلين في برنامج اللغة الانجليزية للأغراض الخاصة. أجريت هذه الدراسة بهدف تحديد الاستراتيجيات التي يستخدمها الطلاب عادة حين يباشرون القراءة في اللغة الانجليزية، كما هدفت الدراسة إلى تحديد أساليب القراءة التي يحتاجها الطلاب ليتمكنوا من مواصلة دراستهم الأكاديمية بنجاح، وتحديد السبل التي تمكن الطلاب من الاستفادة القصوى مما يقرءون.

تكونت عينة هذه الدراسة من أربعة وعشرين طالبا من كلية العلوم الطبية، وجاءت نتائج هذه الدراسة التي تم الوصول إليها من خلال استخدام الاستبانة وبرتوكولات التفكير بصوت عال إلى أن أفراد العينة يستخدمون عددا محدودا جدا من استراتيجيات القراءة. فمن مجمل عشرين استراتيجية زعم أفراد العينة استخدامها (من خلال الاستبانة)، لم يُستخدم منها في الواقع سوى ثماني استراتيجيات. كما تبين أن بعض الاستراتيجيات التي زعم أفراد العينة استخدامها أو تم استخدامها فعلا هي استراتيجيات قراءة ضعيفة وغير مثمرة، ولا تؤدي إلى فهم جيد.

وخُتمت الدراسة بتقديم بعض المقترحات والتوصيات التي تساعد الطلاب على القراءة الجيدة. وهذه تشمل ضرورة تدريب الطلاب على استخدام أساليب القراءة الجيدة التي يمكن أن تعينهم على إتمام واجباتهم الأكاديمية بنجاح، كما اقترحت الدراسة القيام بمزيد من البحوث في هذا الحقل المهم.

.The study ends up giving some suggestions which involve training the students to use more effective strategies to help them accomplish their reading tasks successfully. Further research into the area is also recommended.

Received: February,1, 2014 Accepted: June,11, 2014

An Investigation into the Reading Strategies of ESP Students in the College of Medical Sciences at Umm Al-Qura University

Dr. Abdul majeed Al-tayib Omar

ABSTRACT

This study is an investigation into the reading strategies used by a group of medical sciences students enrolled in an intensive ESP program. It is launched with the objective of identifying the reading strategies commonly used by these students. The study also aims to point out which strategies that the students need to develop in order to pursue their academic studies successfully and to get the maximum out of the text they read. The sample is composed of 24 students from the college of medical sciences at Umm AL Qura University .Results obtained through a questionnaire and think – aloud protocol reveal that the subjects use an astonishingly limited number of reading strategies. Out of 20 strategies claimed to be used by the subjects in response to the questionnaire, only eight reading strategies have been actualized during the think-aloud protocol. It is also found that some of the strategies claimed to be or actually used by the subjects are really poor strategies and are not likely to yield proper comprehension

An Investigation into the Reading Strategies of ESP Students in the College of Medical Sciences at Umm Al-Qura University

Dr. Abdul majeed Al-Tayib Omar
Associate Professor of Applied Linguistics English
Language Center, College of Social Sueias
Umm AL-Qura University

Umm Al-Qura University
Journal of Languages and Literatures

Aims and Scope

The journal is a referred scientific periodical, issued biannually by Umm Al-Qura University. It aims at publishing original academic works in the fields of linguages & Literature. It accepts book reviews, funded research reports, recommendations of conferences, symposia and academic activities, and dissertation abstracts. Researches in both Arabic and English from Umm Al-Qura University and elsewhere are accepted, on condition that they have not been published or beng presented to be published in another publication. All researchrches are to be revewed by the editors and referred by specialists in the fields.

Board of General Supervision

Dr. Bakry bin Matuq Assas

Chancellor, Umm Al-Qura University

Dr. Thamir Bin Hmdan Al-Harbi

Vice-Rector for Graduate Studies and Scientific Research

Editor in Chief

Prof. Abdulrahman H. Al- Aref

Editorial Board:

Prof. Saad Alghamdi
Dr. Muhammad Alqurashi
Dr. Dhafer Alamri
Dr. Abdullah Alqarni
Dr. Fahad Alqurashi
Dr. Afaf Khoger
Dr. Mariam Alqahtani

In the Name of Allah

The Most Gracious The Most Beneficent

PUBLICATION NOTES

1- Materials submitted for Publication in *Umm Al-Qura University Journal for Languages & Literature* (UQUJLL) will be accepted according to the followings:

a) Four paper copies of the manuscript, and a CD copy are required.
b) The manuscript should be double-spaced, written in Microsoft Word, using Times New Roman Font, size 16 on A4 paper-size. Manuscript length should not exceed 40 pages, including tables, figures and references.
c) Tables and Figures should be presented on separate sheets, with their proper text position indicated in the original manuscript.
d) Abstracts in both Arabic and English within 200 words each should be submitted.
e) Author's name and affiliation should be written on a separate sheet along with a brief CV. A signed consent from the author(s) that the manuscript has not been published or submitted to another publication.
f) Original figures should be presented on a CD, using appropriate computer software.

2- All references within the text are to be cited according to the followings; Last name of the author, year of Publication, and page number(s) when quoting directly from the text. For example, (Abu Zaid, 1425, p.15). If there are two authors, last names of both authors should be provided for example, (Al-Qahtani & Al-Adnani, 1428, p.50). In case there are more than two authors for the same reference, citation should be in the following form: (Al-Qurashi et al., 1418, p.120). Citations of two references for two authors should be as follows: (Al-Makki, 1425; Al-Madani, 1427) while citation of two references for one author having the same year of Publication should take the form (Al-Mohammady, 1424a, 1424b).

3- All references are to be listed sequentially at the end of the manuscript in an alphabetical order, according to the author(s) last name(s), followed by the first name(s) or their abbreviations; the book title (underlined), or the article title (between quotations).The number of the edition, name of the publisher (for books) or journal, place of publication (for books), and year of publication. For articles, the volume of the journal; or the year, number, and page numbers should be provided.

4- Authors will be provided with 20 reprints, along with a copy of the journal's volume in which the work appears. A free of charge copy will also be forwarded to book reviewers& report dissertation abstract writers.

Correspondence: All correspondences and subscription requests should be addressed to: *Umm Al-Qura University Journal for Languages & Literature* (UQUJLL). Umm Al-Qura University. P.O.Box 715 Makkah, Saudi Arabia.

E-mail: jll@uqu.edu.sa

Exchanges and Gifts: Requests should be directed to: Deanship of Libraries Affairs. Umm Al-Qura University. P.O. Box 715 Makkah, Saudi Arabia.

Copyrights: Materials published in UQUJLL solely express the views of their authors, and all rights are reserved to Umm Al-Qura University Press.

Subscriptions (Annual) fees: Seventy-five Saudi Riyals, or twenty US dollars (price per issue + shipping & handling).

Notification: The current Umm Al-Qura University Journal for Languages & Literature (UQUJLL) used to be part of Umm Al-Qura University Journal of Shariah & Islamic Studies.

ISSN: 1658 / 4694

Umm Al-Qura University
Journal of Languages and Literatures

Volume No. 13
Rajab 1435Ah. May. 2014